الجزء الأول

القرن الثالث عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الجذور

خلفاء وأمراء وسلاطين

ظلت سيرة اثنين من كبار الفاتحين المسلمين، تشغل حكام سلطنة دلهي. تَمثَّل أوَّلهما بمحمود الغزنوي (المتوفَّى سنة 421 هـ/ 1030م)، والذي تمخّضت حملاته عن مد الحكم الإسلامي إلى عمق البنجاب الغربي. وتمثّل الثاني بالسلطان الغوري معزّ الدِّين محمد بن سام، الذي شكّلت انتصاراته الأحدث على عدد من الدويلات الهندية، ترسيخاً للنفوذ الإسلامي في سهل الغانج الشمالي، والذي ما لبث اغتياله سنة 602 هـ/ 1206م، أن أدّى، أولاً إلى دفع الهند الإسلامية في مسارها المنفصل الخاص المتميّز، عن المسار الذي سارت فيه المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر السند Indus. لقد كان كل من محمود ومعزّ الدِّين، كل بطريقته، نموذجاً لنمط أمراء الحرب، الذين دأبوا على اجتراح إمارات خاصة بهم، في إطار العالم الإسلامي منذ القرن التاسع (الميلادي). فخلافة العباسيين العامة، كانت قد سارت في طريق التفكك والتحلل، ولم يبق منها إلاَّ الزعامة الاسمية للمسلمين السنة. وكانت المعارضة الشيعية، قد باتت مسيطرة على بعض الأقاليم. وعلى امتداد ما يقرب من ثلاثة قرون (296 ـ 567 هـ / 909 ـ 1171م)، ظل العباسيون يواجهون تحدي **الأئمة** الفاطميين، الممثلين للطائفة الشيعية الاسماعيلية. فمن

obeikandl.com

مصر وسورية بقي هؤلاء المعادون للخليفة، دائبين على نشر شبكة من العملاء، والدعاة الذين وسّعوا دائرة نشاطاتهم إلى أن باتت تشمل، حتى الأماكن البعيدة في الشرق مثل السند، تلك المنطقة الشاملة لوادي الأندوس الأوسط والأسفل، التي كان القائد العربي محمد بن قاسم الثقفي، قد أخضعها في وقت مبكر، يعود إلى سنة 92 هـ / 711 م. منذ سنة 344 هـ / 965م، أصبح اسم الإمام الفاطمي، يُذكر في الصلوات بمدينة مُلْتان، ثم صار يتردد في المنصورة مع حلول نهاية القرن[1]. غير أن السلطة في أكثرية الولايات التابعة للخلافة، ما لبثت أن آلت إلى أيدي عدد من الحكام، الوراثيين المستقلين. وأمثال هؤلاء الحكام الذين لم يبادروا في البداية إلى اعتماد أي لقب أعلى من لقب **الأمير** (القائد حرفياً)، كانوا عادة يحرصون على الالتزام، بشكليات الحصول على (منشور) التفويض بالحكم و(الخلعة) وأحد الألقاب الطنّانة من الخليفة العبّاسي، مقابل إيراد اسمه في خطبة صلاة الجمعة، وعلى القطع النقدية المسكوكة، إضافة إلى إرسال كمية، تكاد تكون رمزية، من الخراج سنوياً.

وسعياً إلى تدعيم مشروعيتهم الملتبسة، تعين على أمراء الأقاليم، أن يكونوا (ظاهراً إن لم يكن في الواقع)، أنصاراً متحمسين للإسلام السني وخليفته في مواجهة كل من الكفار والهراطقة. ولعل الأنجح في أداء مثل هذه المهمات، هم الحكام الذين كانوا يتحدرون من أصول تركية. فأكثرية الأسر الحاكمة الإقليمية، درجت على تقليد الخلفاء العباسيين، ودأبت على تدعيم

---

(1) ثمة مقدمة جيدة تلقي الضوء على القرون الأولى من الحكم الإسلامي في السند في مقال يوهانان فريدمان، «مساهمة في التاريخ المبكر للإسلام بالهند» في كتاب م. روزن ـ آيالون (محرراً): **دراسات في ذكرى غاستون ڤييت** (القدس، 1977م)، 309 ـ 333؛ وفي كتاب دريل ن. ماك لين، **الدين والمجتمع في السند العربي** (لايدن، 1989م). أما عن فعاليات الإسماعيليين فيمكن الرجوع إلى مقال س. م. شترن «الدعاية الإسماعيلية والحكم الفاطمي في السند»، IC 23 (1949م)، 298 ـ 307؛ وإلى كتاب عباس الهمداني، **بداية الدعوة الإسماعيلية في شمال الهند** (القاهرة، 1956م).

نفوذها عن طريق الاحتفاظ بفصائل من وحدات الحراسة المؤلفة من المماليك، (**الغلمان** بالعربية و**الباندا** بالفارسية)، القادمين من السهوب الوثنية في آسيا الوسطى. لا بد من التأكيد على أن مكانة الغلام أو المملوك، لم تكن لتنطوي على أي من المعاني التحقيرية الملازمة للأشكال الأخرى من العبودية. كانت الأقوام التركية تتمتع بسمعة استثنائية على صعيد المهارة العسكرية، والتزمُّت، أو التشدُّد الديني، وكان الغلمان ذوي قيمة رفيعة في نظر أسيادهم، بعد حصولهم على التعليم في العقيدة الإسلامية من جهة، وعلى التدريب العسكري الصارم من جهة ثانية[2]. هذا ولم تكن هذه الثقة في غير محلها، لأن عملية اجتراح سلطة إسلامية مستقلة في الهند، والحفاظ عليها كانت، كما سوف نرى، في جانب كبير منها، من صنع القادة المماليك الأتراك، ومن معهم من غلمان يملكونهم.

لقد كانت أسرة محمود الحاكمة، العائلة الغزنوية أو اليمينية [من لقب: يمين الدولة] (352 ـ 582 هـ / 962 ـ 1186م)، ذات أصول تركية؛ فمؤسّسها الفعلي سبوكتكين والد محمود، كان قائداً مملوكياً من الأتراك. وقد ضمت الإمبراطورية الغزنوية في أوج اتساعها، مساحة ممتدة بين الري وأصفهان في بلاد فارس، وحتى إقليم هانسي في البنجاب الشرقي. وما لبث الخليفة العباسي أن كافأ محموداً ـ الذي جرَّد ما لا يقل عن سبع عشرة حملة، ضدّ حكّام وثنيين

---

(2) سي. إ. بوزوورث، «تجاوزات بربرية: توغل الأتراك في العالم الإسلامي» في كتاب د. س. ريتشاردز (محرراً)، **الحضارة الإسلامية 950 ـ 1150م** (أوكسفورد، 1973م)، 1 ـ 16 (خصوصاً 4 ـ 10)، وطُبع ثانية في كتاب بوزوورث، **التاريخ الوسيط لإيران وأفغانستان وآسيا الوسطى** (لندن، 1977م). د. آيالون، «السهب الأوروبي ـ الآسيوي: خزان القوة الرئيسي للعالم الإسلامي»، في **ترودي 25 المؤتمر الدولي للمستشرقين، موسكفا 1960** (موسكو 1963، 5 أجزاء)، II، 47 ـ 52؛ المصدر السابق «ملاحظات أولية حول المؤسسة العسكرية **المملوكية** في الإسلام»، في 2. ج. باري وم. إ. ياب (محررين)، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع في الشرق الأوسط**، (أوكسفورد ولندن، 1975)، 44 ـ 58؛ وتمت إعادة طبع المقالين، كليهما، في كتاب آيالون، **المجتمع العسكري المملوكي** (لندن، 1979).

هنود، كما استأصل جذور الاسماعيليين من مدينتي مُلْتان والمنصورة بالذات ـ على خدماته الجليلة للإسلام السنّي، بلقب **يمين الدولة**[3].

ومع ذلك فإن الاتجار بالرقيق لم يكن هو السبيل الوحيد، لوصول الأتراك إلى الأراضي الإسلامية المتحضرة. فقد كانوا يأتون أيضاً بوصفهم أحراراً في غمرة الهجرات الواسعة، أو الغزوات التي تقوم بها أقوام قَبَلية بدوية، مُهتدية حديثاً (معتنقة للإسلام حديثاً) انطلاقاً من آسيا الوسطى؛ وثمة إحدى هذه القبائل، ألا وهي قبيلة السلاجقة المنتمية إلى تجمع قبائل الغُز (أوغور)، المنتشرة إلى الشمال من بحر آرال، تمكنت، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (الميلادي)، من تأسيس إمبراطورية، كانت تضم إيران كلها مع كل من العراق وسورية. ففي سنة 344 هـ / 1055م، دخل القائد السلجوقي بغداد، ووضع الخليفة تحت حمايته، حاصلاً مقابل ذلك على لقب **السلطان** الجديد والرفيع. وكان السلاجقة قد هزموا الأمير الغزنوي مسعود الأول بن محمود (431 هـ / 1040م)؛ أما خلفاؤه الذين أصروا على اعتماد لقب السلطان، نكايةً بمزاعم السلاجقة، فقد جرى طردهم تدريجياً، من مناطقهم الواقعة في إيران الشرقية. وما إن حلت سنة 511 هـ / 1117م، حتى تم إعطاء لقب ملك لبهرم شاه الغزنوي، بمساعدة السلطان السلجوقي الأعظم سنجر، الذي كان يفرض سيطرته على إيران الشرقية من مقره في خراسان، مما جعل الغزنويين بين دافعي الضرائب للسلاجقة، وإن لم يكن تدميرهم قد تم فيما بعد على أيدي هؤلاء.

أمّا عشيرة معز الدِّين الشانسابانية، فتنتمي إلى مجموعة الأمراء والملوك

---

(3) سي. إ. بوزوورث، «السياسة الإمبراطورية للغزنويين الأوائل» IS (1962م)، القسم الثالث، 49 ـ 82، وأعاد نشره في كتابه **التاريخ الوسيط**. وللاطلاع على استعراض وجيز لتاريخ الأسرة الحاكمة، انظر ب. شبولر، «**الغزنويون**» Enc. Isl. أمّا المؤلّفات المتداولة فهي كتاب بوزوورث، **الغزنويون. إمبراطوريتهم في أفغانستان وإيران الشرقية 994 ـ 1040 م**، طبعة ثانية، (بيروت، 1973م)؛ **الغزنويون اللاحقون، ازدهار فتحلل: الأسرة الحاكمة في أفغانستان وشمال الهند 1040 ـ 1186** (أدنبره، 1977م).

القَبَليين الغوريين الصغار، المنتشرة بطونهم في المناطق الجبلية، الواقعة إلى الشرق من هراة[4]. فبعد أن تحولت العشيرة إلى وضعية التبعية لمحمود الغزنوي أولاً، وعلى أيدي السلاجقة فيما بعد، ما لبثت أن وجدت فرصتها في عصر الانتفاضات، والاضطرابات المتجددة في العالم الإيراني. وفي عشرينيات القرن الثاني عشر الميلادي استطاع قوم شبه بدوي، يعرف باسم قره ختاي، أو خيتان، قد يكون من جذور مغولية، وبقيادة أسرة حاكمة بوذية، عبر واحدة من سلسلة العمليات المماثلة التي ستؤدي في سهوب آسيا الشرقية، إلى جلب الجيوش المغولية الغازية نحو الغرب في القرن الثالث عشر، أن يتوغل في تركستان، وما وراء النهر، ويفرض هيمنته على الحكام المسلمين هناك. تمت هزيمة سنجر سنة 536 هـ / 1141م، وما لبثت إمبراطوريته أن تعرضت، مع حلول منتصف القرن، للانهيار تحت ضغط الموجات الجديدة من قبائل الغُز، المقتلعة من أوطانها من قبل القره ـ خيتان. وكذلك فإن الغُز استولوا أيضاً على غزنة، بتحريرها من قبضة خسرو شاه بن بهرم شاه، وخلفه الذي اضطر للجوء إلى لاهور (لاهَور)، المركز الإداري لأقاليمه الهندية. لقد كان الشانسابانيون المتورطون منذ سنوات في حرب مع الغزنويين، المستفيدين الأخيرين من هذه التطورات. فمنذ تاريخ مبكر يعود إلى حوالى 544 هـ / 1150م، كان الأمير الشانسباني علاء الدين حسين، قد نجح مؤقتاً في طرد بهرم شاه من غزنة، ومن نهب المدينة، مما أكسبه اللقب الخالد المتمثل بـ «جهانسوز» (حارق العالم)؛ فضلاً عن اتخاذ السلطان لقباً له واعتماد الشعار الطقسي (الشتر) (المظلة)، الذي ابتدعه سلاطين آل سلجوق. وكان ابن أخ حسين، المعروف

---

(4) آ. ماريك وج. ويت، **مئذنة جام. اكتشاف عاصمة السلاطين الغوريين (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)** (باريس، 1959م): 31 ـ 44 تتضمن مسحاً تاريخياً لحياة الأسرة الحاكمة حتى حوالى سنة 1200 م؛ وبصوة أعم انظر سي. إ. بوز وورث، **الغزنويون اللاحقون**، 111 ـ 122؛ وكذلك «التاريخ السياسي والأُسَري للعالم الإيراني (1000 ـ 1217م)»، في كتاب ج. آ. بويل (محرراً)، **تاريخ إيران، كامبردج**، V **الفترتان السلجوقية والمغولية** (كامبردج، 1968م)، 157 ـ 166، 185 ـ 192.

باسم غياث الدين محمد بن سام (558 ـ 599 هـ / 1163 ـ 1403م)، هو الذي طرد الغز من غزنة سنة 569 هـ / 1173 ـ 1174م، ونصّب ابنه الأصغر معزّ الدين محمد (شهاب الدين سابقاً) حاكماً عليها.

في ظل غياث الدين ومعز الدِّين، اللذين ظلا متعاونين، بقدر أكثر أو أقل برز الشانسابانيون ـ أو الغوريون، كما يمكننا أن نسميهم الآن، لأنهم كانوا قد أخضعوا الملوك، والأمراء الآخرين في المنطقة لنفوذهم ـ بوصفهم إحدى القوى الكبرى في العالم الإسلامي الشرقي. كان مقرهم الرئيسي متمثلاً بقلعة فيروزكوه، التي اهتدى أندريه ماريك A. Marieq سنة 1957م، إلى أطلالها في موقع جام، وسط نهر هاري رود على مسافة 200 كيلومتر من هراة؛ وباتت سلطة غياث الدين، تحظى بالاعتراف لدى فروع من الأسرة الحاكمة، التي حكمت باميان ومادين وجُرواس. أما المنافسون الرئيسيون لهذا الأخير فكانوا متمثلين بحكام خوارزم في الوادي السفلي لنهر جيحون (آمودريا)، المنتمين إلى أسرة حاكمة أسَّسها مملوك تركي، الذين ظلوا إلى ذلك الحين، مثلهم مثل الغوريين، خاضعين للسلطان السلجوقي. غير أن ملوك الخوارزشاه، كانوا يعانون من مشكلتين لم يواجههما الغوريون. تمثلت الأولى بسيادة القَرَه خيتان الوثنية على مؤخرتهم، (رغم أن الدعم العسكري المتوفر من هذه كانت موضع ترحيب في بعض الأحيان)؛ وكانت الثانية مشكلة عداء الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 ـ 622 هـ / 1180 ـ 1225م). فاستناداً إلى تشجيع الخليفة، الذي حصل منه على لقب **قسيم أمير المؤمنين**، دخل غياث الدين في صراع مع الخوارزمشاه على خراسان، صراع كانت للغوريين فيه اليد العليا بصورة حاسمة، قبل موته سنة 599 هـ / 1203 م. ثم جاء معزّ الدين الذي حمل مثل أخيه غياث الدين، لقب السلطان، وعَزَّز جهود أخيه بجدارة، غير أنه كان أيضاً يتطلع نحو الشرق.

بدايات الهند الإسلامية

خلال القرون القليلة الأولى، التي أعقبت فتح محمد بن القاسم للسند،

بقيت الحدود في الهند بين **دار الإسلام** أي العالم الإسلامي، وبلاد الوثنيين أو الكفار أي **دار الحرب** مستقرة نسبياً. صحيح أن أوائل ولاة المسلمين على إقليم السند دخلوا في حروب مقدسة (جهادية) ضد جيرانهم الهندوس، إذ قاموا بتجريد حملات متقطعة بين الحين والآخر، وصلت إلى مشارق كشمير أو مالوا[5]، إلاّ أن التوسع الإسلامي باتجاه الشرق بقي على الصعيد العملي، حتى العقود الأولى من القرن الميلادي العاشر، ملجوماً بفعل سطوة أسرة الغورجارا ـ البراتيهارا الحاكمة القوية، التي كانت تسيطر على الهند الشمالية، من عاصمتها قِنَّوْج الواقعة على نهر الغانج. ومن المؤكد أن محمود الغزنوي، استفاد من أفول نجم هذه الإمبراطورية، ومن تمزيق أرضها، بين عدد من الدويلات التالية المتحاربة. لم يتمخض العديد من انتصاراته في الهند، عما هو أكثر من الحصول على مقادير، لم يسبق لها مثيل من الغنائم، حيث تم نهب المدن الهندوسية ولا سيما ميناء سومنات الكبير في غوجرات (416 هـ / 1025 ـ 1026م)، وسلب موجودات معابدها، فضلاً عن تحطيم أصنامها الذهبية تعبيراً عن التقوى، ونقل أشلائها إلى غزنة، لملء خزائن محمود حتى الثمالة. غير أن إحدى نتائج نشاطات الأمير الغزنوي، رغم طابعها الغارق في التباهي والغطرسة، تمثلت في إكساب الإسلام موطىء قدم في غربي البنجاب[6].

في أعقاب تعرضهم للطرد من إيران الشرقية، بات الغزنويون أكثر انحصاراً داخل أراضي أفغانستان الحالية، ومَكْران والسند، فضلاً عن فتوحاتهم وأشكال توغلهم في الهند. أما في قلب شبه القارة، فقد أضاعوا بعضاً من مكاسب محمود. ثمة تحالف بين عدد من الأمراء الهندوس، تمكن سنة 435 هـ

---

(5) لامتلاك لائحة مُقْنِعة للغزوات انظر ج. ف. ريتشاردز، «الحدود الإسلامية في الشرق: التوسع في جنوب آسيا»، ساوث إيجيا 4 (1974م)، 94 ـ 98؛ وحول الهند الإسلامية المبكرة بصورة أعم انظر أندري وينك الهند تشكيل العالم الهندي الإسلامي، ا. **الهند أوائل العصر الوسيط والتوسع الإسلامي، القرن السابع ـ القرن الحادي عشر** (لايدن، 1990م)، خصوصاً الفصل 4.

(6) م. ناظم، **حياة وأيام السلطان محمود الغزنوي** (كامبردج، 1931م)، الفصل 8.

/ 1043م، من انتزاع هانسي من أيديهم؛ أما المُلتان فعادت مرة أخرى إلى أيدي الإسماعيليين[7]. إلاّ أن الأسرة الحاكمة، لم تكن على مشارف الاحتضار بأي حالٍ من الأحوال. فأيام حكم كل من إبراهيم (451 ـ 492 هـ / 1059 ـ 1099م)، وابنه مسعود الثالث (492 ـ 508 هـ / 1099 ـ 1115م)، تميّزت بالمتابعة المتواصلة لتنفيذ المهمة التقليدية في الهند. ففي نقش يعود لسنة 1090م نجد غاهَفَغَالا، ملك قِنُّوج يفرض مَكْساً يحمل اسم تُرُشْكَدَنْدا الغريب. وهو عبارةٌ عن ضريبةٍ فُرضت، إما لتمويل النضال ضد المسلمين، أو لتلبية مطالبتهم بالجزية، ووفقاً لما جاء على لسان المؤرخ الجوزجاني، فإن **حاجب** مسعود الثالث العسكري طغتكين، شَنَّ غارة توغلت إلى ما وراء نهر الغانج، ووصلت شرقاً إلى ما هو أبعد من أية حملة إسلامية منذ زمن محمود. لم تكُف الأسرة الحاكمة إذن عن متابعة الأعمال العسكرية، حتى في حقبة الانحطاط والتدهور. ويقال إن بهرم شاه، خاض حروباً جهاديةً في الهند. ويبدو أن حفيده خسرو ملك، قد قاتل القوى الهندوسية إلى زمن غير بعيد عن تعرض السلطنة الغزنوية الممزقة، للاندحار الأخير على أيدي الغوريين[8].

الفتوحات الغورية

لدينا عدد من المصادر التي تتحدث عن حملات الغزو والفتح الغورية، وعن بروز سلطة إسلامية مستقلة في شمال الهند. فكتاب **طبقات ناصري**

---

(7) ج. بورتون ـ بيج، «هانسي» Enc. Isl.[2]؛ بوزوورث، **الغزنويون اللاحقون**، 32 ـ AH33 .. 252 ـ 254.

(8) طغتكين: TN، ا، 240 (تر. 107). بهرم شاه: المصدر السابق، ا، 241 (تر. 110). خسرو ملك: AH 272 ترجمة جزئية إ.م شفيع: أضواء جديدة على الغزنزيين IC 12 (1938م)، 218. **توروشكادانداا**: بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 67؛ أما بالنسبة إلى مناقشة المعاني المحتملة فانظر لالانجي غوبال، **الحياة الاقتصادية لشمال الهند، 700 ـ 1200 م**، الطبعة الثانية (دلهي، 1989م)، 48 ـ 52. انظر أيضاً تعليقات بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 61 ـ 67، 84 ـ 86، 125 ـ 126، على الحيوية الغزنوية، جنباً إلى جنب مع البينات التي راكمها آ. ب. م. حبيب الله، **أساس الحكم الإسلامي في الهند**، الطبعة الثانية (الله آباد، 1961م)، 57 ـ 60.

لمنهاج الدين بن سراج الدين الجوزجاني، الذي جرى إتمامه بدلهي سنة 658 هـ / 1260م، في صورة تاريخ عام للعالم الإسلامي في ثلاثة وعشرين جزءاً **(طبقات)**، ينصب الجزءان التاسع عشر والعشرون منه على الكلام عن الغوريين، وخلفائهم المباشرين في الهند. وعلى بقائه مرجعاً قيماً عن سلطنة دلهي، منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، نجده أقل قيمة فيما يخص الأحداث الجارية في الهند، قبل سنة 623 هـ / 1226م، حين كان المؤلف ما يزال مقيماً في غور[9]. أما من بين المؤلفات الأقدم، المكتوبة في الهند، فلعل كتاب **تاج المآثر**، المنمق القائم على الإطناب الممل، لحسن نظامي، الذي بدأ الكتابة سنة 602 هـ / 1205 ـ 1206م، ولكنه لم ينهها إلاّ بعد سنة 626 هـ / 1229م، هو السَّرْد الأقرب الذي نملكه عن الأحداث. فهذا العمل الذي يبدأ بانتصار معز الدين الكبير في تَرائن سنة 588 هـ / 1192م، ربما كان مستنداً إلى أخبار الفتوحات (فتح ـ نامات)، التي كتبها قائد معز الدين المملوك آيبك. يستطيع هذا المؤلَّف، رغم عيوبه الكثيرة، أن يدعي أنه التأريخ الأول المكتوب عن سلطنة دلهي[10]. ثمة إيجاز يكاد أن يكون هيكلياً، للفترة الممتدة من 588 هـ / 1192م، وحتى أحداث 602 هـ / 1206م، في أعقاب مقتل معز الدِّين، يمكن استخلاصه من مدخل كتاب فخر مدبّر، الذي يحمل عنوان **شجرة (أو بحر) الأنساب**، المكتوب في لاهور بُعَيْد الحدث؛ على الرغم من أنه يورد تواريخ، لأحداث معينة لا نجدها في أي مكان آخر. غير أن ما يدعو للأسف، هو أن كتاب فخر مدبّر التالي: **آداب الحرب والشجاعة** الذي هو دراسة

---

(9) عن المؤلف انظر ك. آ. نظام، **عن تاريخ هند العصر الوسيط ومؤرخيها** (نيودلهي، 1983م)، 71 ـ 93.

(10) ثمة حاجة ماسة إلى طبعة نقدية، في حال عدم قول خلاف ذلك، تبقى الإحالات على IOL المخطوطة الفارسية رقم 15 (ايثه، قم: 210). تنتهي الطبعة المتداولة في 614 هـ / 1217م، على الرغم من أن السرهندي قام في القرن الأخير باستخدام نسخة (وهي مفقودة) غطت حتى سنة 626 هـ / 1229 م: خلاصة مترجمة في ED، II، 240 ـ 242. وللاطلاع على تلخيص مفيد للنسخة المنقحة الرئيسية انظر س. هـ. عسكري، «تاج المآثر لحسن نظامي»، PUJ 18 (1963م)، رقم 3، 49 ـ 127؛ وعن المؤلف، نظامي، **في التاريخ... والمؤرخين**، 55 ـ 70.

عسكرية، وإدارية مقدَّمة إلى سلطان دلهي الأول: إلتُتْمِش، سنة 630 هـ / 1232م، لا يضيف إلى نوادره الكثيرة، أية حكاية ذات علاقة بعقودٍ أحدث[11]. وبالمثل فإن جزءاً يسيراً فقط من المادة المتصلة بالهند في **جوامع الحكايات**، التي هي مجموعة كبيرة من النوادر التاريخية، جرى تجميعها من قبل العوفي في دلهي (حوالى سنة 630 هـ / 1232م)، يعود إلى ما بعد الحقبة الغزنوية[12]. من حسن الحظ أن أحداثاً جارية في هذه التخوم البعيدة، أحدثت أصداء قوية في المراكز الإسلامية. فلولا الكتاب العام في التاريخ، الذي كتبه ابن الأثير (المتوفى سنة 630 هـ / 1232م)، تحت عنوان **الكامل في التاريخ** بمدينة الموصل العراقية، لبقيت معلوماتنا عن الحملات الغورية، أقل بكثير مما هي؛ على الرغم من أن مصدر معلوماته بقي لغزاً كبيراً، بالنسبة إلى أحد المعاصرين، بمقدار ما هو كذلك بالنسبة إلينا نحن أيضاً[13].

ما إن جرى تنصيبه في غزنة، حتى سارع معز الدين، دونما إضاعة وقت إلى انتحال دور الغزنويين، بوصفهم حملة لواء الإسلام السني في شبه القارة (الهندية). وحاذياً حذو محمود شَنَّ الحرب على الإسماعيليين، الذين كانوا قد استعادوا نفوذهم في المُلتان، واحتل المدينة (571 هـ / 1175 ـ 1176م)؛ والدلائل تشير إلى أن أمراء سومرا في دَيبُل، الذين هاجمهم سنة 578 هـ / 1182 ـ 1183م، كانوا أيضاً ذوي نزعات إسماعيلية على الرغم من أصولهم الهندية. ومن المؤكد أنه يُمْتَدَح، بسبب خوضه الحرب ضد

---

(11) م. س. خان، «حياة وأعمال فخري مدبر»، IC 51 (1977)، 127 ـ 140. إ. دنيسون روس، «أنساب فخري مبارك شاه»، في ت. و. آرنولد ور. آ. نيلوكسون (محررين)، **عَجَب ـ نامه: سِفْر دراسات شرقية مقدمة إلى إدوارد ج. براون** (كامبردج، 1922م)، 392 ـ 412.

(12) عن حياة المؤلف، انظر م. نظام الدين، **مقدمة جوامع الحكايات**، GMS، هوامش، VIII (لندن، 1929)، 3 ـ 20.

(13) د. س. ريتشاردز، «ابن الأثير والأجزاء الأخيرة من **الكامل**: دراسة للأهداف والمناهج»، في د. أو. مورغان (محرراً)، **الكتابة التاريخية الوسيطة في العالمين المسيحي والإسلامي** (لندن، 1982)، 84 ـ 85.

الشيعة[14]. أما ضم المناطق الغزنوية الباقية، فقد كان هدفَه الرئيسي دون شك. ثمة سلسلة من الحملات، منذ سنة 577 هـ / 1181 ـ 1182م فصاعداً، أدت أولاً إلى ضمان أخذ الخراج من خسرو ملك، وما لبثت أن تمخضت فيما بعد، سنة 582 هـ / 1186م، عن استسلام لاهور. جرى إرسال خسرو ملك إلى غياث الدين، وتم إعدامه في الأسر لاحقاً.

بات الحاكم الغوري الآن، في مواجهة عدد من القوى الهندوسية الكبرى التي أُطلقت عليها تسمية «أراجبوت»، (غير الواردة في المراجع الإسلامية قبل القرن السادس عشر الميلادي)، وهو لقبٌ من المؤكَّد أنه لا يعود لتلك الحقبة[15]. وكانت مملكة تشاهمانا (تشاوهان) الساكمباهارية (السبهارية)، المسيطرة على راجستان الحالية من عاصمتها في أجمر في طليعتها؛ وقد ضمت أجزاء كبيرة من المناطق الممتدة، بين السوتلج واليمونا. وادعت لنفسها، السيادة على الهند كلها شمال جبال فنذيا في عهد برثفيراجا الثالث (الراي بيثورا بلغة الكتاب المسلمين). وثمة فروع ثانوية من الأسرة الحاكمة، فرضت سيطرتها على نادول وجالور ودلهي، تحت قيادة أمرائها التومارا كانت منتمية إلى التشاوهانيين، منذ منتصف القرن الثاني عشر. كان تفوق التشاوهان حديث العهد نسبياً على أية حال، لأنه لم يتحقق إلاّ بفضل التغلب على المعارضة الشديدة، التي أبداها التشاولوكويون، الذين كانوا يسيطرون على غوجرات من عاصمتهم آنهيلوارا (ناهروالا؛ باتان الآن)، وظلوا يخططون، لإعادة فرض

---

(14) SA، 19 ـ 20. حبيب الله، **أساس**، 36 ـ 37. س. هـ. هوديڤالا، **دراسات في التاريخ الإسلامي ـ الهندي** (بومباي، 1939 ـ 1957م، جزءان)، ا، 141. وبالنسبة إلى ديبول، انظر س. قدرة الله فاطمي، «ميناءا دايبول التوأمان»، في حميدة خوهرو (محرراً)، **السند عبر القرون** (أوكسفورد وكراتشي، 1981م)، 97 ـ 105؛ وينك، **الهند**، ا، 181 ـ 183.

(15) حول هذه العبارة، انظر ب. د. تشاتوبادهيايا، «أصل الراجبوت: السيرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في راجستان العصر الوسيط المبكر» IHR 3 (1976م)، 59 ـ 82، أعيدت طباعة المادة في كتابه، **تَشَكُّل هند العصر الوسيط المبكر** (أوكسفورد ودلهي، 1994)، 57 ـ 88.

السيطرة على راجستان الجنوبية. أما إلى الشرق فإن دولة تشاوهان، كانت متجاورة مع مملكة غاهاضوالا القنوجية (كانياكوبيا القديمة) المسيطرة على الجزء الأكبر من إقليم أوتاربرادش الحديث، ومملكة تشانديلاّ جيجاكبوكتي (بوندلخاند الحديثة)، المتمركزة على كالنجر. في الثمانينيات من القرن الثاني عشر، تعرض التشانديلا للضغوط من كل من الغاهاضواليين والتشاوهانيين، على حد سواء، وخسروا بعضاً من مناطقهم الغربية، لصالح برثفيراجا الثالث. أما مملكة الغاهاضوالا، فكانت من الجهة المقابلة، دائبة أيضاً على التوسع بنشاط في إقليم بيهار، حيث أصرت على انتزاع أطلال إمبراطورية البالا البائدة، من أيدي أسرة سينا الحاكمة في البنغال الغربي[16]. وفي جميع هذه الدول، كانت ثمة هرمية شبه إقطاعية، تمكّن الملوك (**الراجات**، الرايات حسب تسمية الغزاة المسلمين)، من الحصول على الخدمة العسكرية، مقابل إعطاء إقطاعات الأرض من زعماء، وقادة تابعين عرفوا باسم **الراناكات** (أو الثاكّورات أحياناً)، كانوا بدورهم يمنحون قادتهم الخيالة، المعروفين باسم **الرواتات** (من راجابوترا السنسكريتية)، أو الثياكا، المزارع؛ وقد ورد هذان المستويان الأدنى، في المصادر الإسلامية على شكل **رانات** و**راواتات** على التوالي[17].

---

(16) عموماً انظر هـ. سي. راي، **تاريخ الأسر الحاكمة في شمال الهند** (كالكوتا، 1931 ـ 1935م، جزءان)، الفصول 6 (السينا)، 8 (الغاهادافالا)، 11 (التشانديلاّ)، 15 (التشولوكيا) و16 (التشاهامانا)؛ أيضاً داشاراتاشارما، **الأسر الحاكمة التشاوهانية الأولى**، طبعة ثانية، (دلهي، 1975م)؛ ر. سي. ماجومدار، **تشولوكيا گوجرات** (بومباي، 1956م)؛ رومانيوغي، **تاريخ أسرة غاهادافالا الحاكمة** (كالكوتا، 1959م)؛ آ. بزجي، «التوسع الشرقي لمملكة غاهادافالا»، JAS، السلسلة الرابعة، 5 (1963م)، 105 ـ 111؛ ن. س. بوس، **تاريخ التشانديلاّ** (كالكوتا، 1956م)؛ ور. ك. ديكشيت، **كانديلاّ جيجاكابهوكتي** (نيودلهي، 1977م).

(17) ر. س. شارما، **الإقطاع الهندي: حوالى 300 ـ 1200م** (كالكوتا، 1965م)، خصوصاً الفصل 5. بوشبابراساد (محرراً)، **المنقوشات السنسكريتية في سلطنة دلهي 1191 ـ 1526م** (دلهي، 1992م)، 56 ـ 57 (رقم II: 5)، 58 ـ 71 (رقم II: 6)، 78 ـ 79 (رقم II: 9)، 80 ـ 89 (رقم II: 11). وللاطلاع على أمثلة مأخوذة من مصادر إسلامية، انظر SA، 33؛ Taj، ملف 137 أ، 150 أ؛ و«الراوات الشهيرة» في TN، II، 65 (تر. 828).

ثمة مكاسب ذات شأن على حساب القوى الهندوسية، جرى إرجاؤها إلى ما بعد قيام معز الدين بضم المناطق الغزنوية، التي مكنته من السيطرة على الطرق الأبعد شمالاً، عبر بيشاور (پرشاور) وممر خيبر. وبالفعل فإن إغارته الأولى على دار الحرب، كانت قد انتهت بكارثة. ثمة هجوم تم سنة 574 هـ / 1178 ـ 1179م على مملكة تشاولوكيا عن طريق السند الأسفل، أسفر عن هزيمة شنيعة للسلطان الغوري بالقرب من جبل آبو. وفيما بعد، في تاريخ مختلف عليه بين 583 هـ / 1187 ـ 1188م و587 هـ / 1191م، قام السلطان باجتياح البنجاب الشرقي، وتأسيس حامية في تَبَرْهند. غير أنه ما لبث أن هُزم في ترائين أمام قوة هندوسية كبرى بقيادة برثفيراجا، وتابعه غوفنداراجا الدلهي، فأُجبر على الانسحاب إلى غزنة؛ ونجح الهندوس في استرجاع تَبَرْهند[18]. غير أن معز الدين، حين عاد ثانية سنة 558 هـ / 1192م، وخاض معركة في موقع قريب من ترائين، فاز بنصر ساحق تم فيه أسر برثفيراجا، وقتل غوفنداراجا. ويبدو أن الانتصار في ترائين، شكل منعطفاً على مستويين. فمن ناحية التزم زعماء الهندوس في البنجاب الشرقي، بدفع الخراج لمعز الدين[19]. ومن ناحية ثانية كانت تلك هي اللحظة التي نستطيع اعتبارها، تاريخ فرض سلطة إسلامية دائمة في المنطقة، في موقع يدعى أندرابراستا (أندرابات) بالقرب من دلهي[20]. أما الحكم الإسلامي المباشر، فلم يتم فرضه بصورة مطردة ودائمة. ففي حين أن قلعة تشاوهان في رنثانبور احتُلّت، جرى إبقاء أجمر بيد برثفيراجا الذي بات عميلاً لمعز الدين؛ وفي أعقاب إعدامه جراء تورطه ببعض النشاطات

(18) حبيب الله، **أساس**، 60 ـ 61، TN، I، 398 ـ 400 (تر. 457 ـ 464، 466)، حيث يؤرخ هذا الاشتباك في السنة التي سبقت معركة ترائين. IA، XI، 113 ـ 114 / 172 ـ 173، 371 ـ 372 / 561 ـ 562، يصف الحملة مرتين (قارن XI، 115 / 174): في الرواية الثانية يعيد تاريخ الحدث إلى النصف الثاني من 583 هـ (الأول من آذار / مارس 1188)، ويجري تأكيد هذا في XII، 59 / 91.

(19) المصدر السابق، XI، 115 / 174، **والتزموا له بالأموال**. Taj، ملف 50 ب، لزعماء منطقة دلهي تحديداً.

(20) المصدر السابق، ملف 51 أ.

المشبوهة بعد فترة وجيزة جرى تنصيب ابنه حاكماً للمدينة. وبالمثل فإن دلهي مُنحت لخليفة غوفنداراجا بوصفه أميراً تابعاً[21]. وقد جرى اتباع هذا الأسلوب مرات عديدة، في مناطق أخرى فتحها المسلمون.

واصل معز الدين نزوله من غزنة، وتوغله في أعماق الهند مع كل فصل بارد، فضلاً عن الاضطلاع بمهمة الجهاد ضد الكفار. وفي سنة 590 هـ / 1194م جاء دور الغاهاضواليين، الذين تعرض ملكهم جاياتشاندرا (جايتشاند، لدى المؤلفين المسلمين) للهزيمة والذبح، على يد معز الدين في منطقة تشانداوار (تشانداوال، بالقرب من إتاوا)؛ حيث قام الجيش الغوري بنهب كنوزه في آسي (آسني)، وباحتلال مدينة بَنَارِس (فاراناسي الحالية). وفي سنة 592 هـ / 1196م، قاد السلطان حملة فتحت قلعة تانغير (تاهانغره، على مسافة خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من مدينة بهايانا الأحدث) من أيدي التشانديلاّ، غير أنها سمحت بالإبقاء على ملك (راي) غواليور مقابل دفعه للخراج. وفيما عدا ذلك يبدو أن معز الدين، لم يلعب إلاّ دوراً محدوداً نسبياً في توسيع دائرة النفوذ الإسلامي. فبعد وفاة أخيه غياث الدين (599 هـ / 1203م)، باتت أكثرية طاقاته، مشغولة بالتطورات الجارية في خراسان، حيث كان الخوارزم شاه علاء الدين بن تكش، عازماً على استعادة مناطق سبق للغوريين أن احتلوها. وفي 601 هـ / 1204 هـ قام معز الدين بغزو خوارزم بالذات، ولكنه ما لبث أن مُني بهزيمة ساحقة، وحاسمة على أيدي أسياد الشاه من القَرَه خيتان في موقع

---

(21) حبيب الله، **أساس**، 61 ـ 62. عن قطع نقدية اعتُقد فيما مضى أنها عاكسة لوضعية بيرثيغيراجا التابعة، انظر الآن ب. ن. سنغ «القضية المشتركة المزعومة لمحمد بن سام وبيرشيغير الثالث: تقويم جديد»، JNSI 50 (1988م)، 120 ـ 123؛ جون س. ديل، **العيش بدون فضة: التاريخ النقدي لشمال لهند في العصر الوسيط المبكر**، (أوكسفورد ودلهي، 1990م)، 267 ـ 269. أن تكون دلهي، بالتالي، قد أُخضِعَت على مرحلتين، من شأنه أن يساعد على تفسير التواريخ المتضاربة الواردة عن موعد احتلالها في المصادر، وحول الموضوع، انظر محمد عزيز أحمد، **التاريخ السياسي ومؤسسات إمبراطورية دلهي التركية الأولى (1206 ـ 1290م)** (لاهور، 1949م)، 129. هـ: 1.

آندخود (آندخوي الحالية)[22]، وفي هذه الظروف، بدا السلطان الغوري، أكثر ميلاً إلى الاعتماد على القادة العسكريين من مماليكه الأتراك في الهند.

كان الغوريون شعباً جبلياً. وكانوا تقليدياً يقاتلون راجلين (مشاة)، حيث ترك لنا الجوزجاني وصفاً لأسلوبهم المميز في الحرب، القائم على قيام كل جندي، باستخدام ستار واق يعرف باسم **القاروا**، ستار مصنوع من جلد البقر المحشو بكمية مضغوطة من القطن[23]. صحيح أننا نواجه أيضاً مقاتلين غوريين من الخيالة، مثل الـ 1200 فارس من تولك، الذين عسكروا لفترة وجيزة في تَبَرْهند، بعد غزو معز الدين الأول للبنجاب الشرقي[24]؛ غير أن هؤلاء ربما كانوا قلة، في حين أن مخططات السلطان التوسعية، كانت تتطلب توفير أعداد أكبر من الخيالة. ومع توسع الإمبراطورية غرباً، جرى تعزيز القوات وتدعيمها، بمقاتلين من مختلف أجزاء خراسان: ثمة، مثلاً، خراسانيون تحت راية معز الدين في الاجتياح الأخير، لمواقع الغزنويين وفي إغارته على برثفيراجا، كما بين الوحدات التي دخلت لاهور مع آيبك في 602 هـ / 1206م، فيما بعد[25]. أضف إلى ذلك، أن مقاتلين من الغُز نجدهم في جيش غزنة، في الفترة التي أعقبت وفاة معز الدين، كما أن السلاطين الغوريين، شأنهم شأن أسلافهم الغزنويين، درجوا على تجنيد الفرسان القبليين من عشائر الخَلْج، وهي عشائر بدوية، كانت تقيم في مناطق بُست، وزاميندار، وقد تكون متحدرة من أصول تركية، غير أنها ما لبثت مع الزمن،

---

(22) و. بارتولد، **التركستان حتى الغزو المغولي**، طبعة ثانية، تحرير سي. إ. بوزوورث، GMS، ns، V (لندن، 1968م)، 349 ـ 351. بوزوورث «التاريخ السياسي والعائلي»، 164 ـ 165.

(23) TN، ا، 343 (تر. 352 ـ 353). الكاروا واردة أيضاً في AH، 423، بين قائمة المعدات اللازمة لفرض الحصار.

(24) TN، ا، 399 (تر. 458)؛ وعن إشارة أبكر إلى فرسان غوريين انظر ا، 355 ـ 356 (تر. 372 ـ 373).

(25) IA، XII، 110/168، 113/172، SA، 33.

أن ذابت في بوتقة جيرانهم الأفغانيين[26]. وحدهم المؤلفون اللاحقون يذكرون اسم الأفغان، الذين كانوا ما يزالون محصورين بالسلسلة السليمانية (التي ما لبثت أن أصبحت تعرف أحياناً باسم **كوهي ـ أفغان**: جبال الأفغان)، والذين كانوا قد رافقوا الحملات الغزنوية، بوصفهم جنوداً في ترائين[27].

باتت الأسرة الحاكمة الغورية، تدرك مخاطر الاعتماد الكلي، والحصري على مثل هذه القوى. فالعشائر البدوية، كانت شديدة التقلب بطبيعتها. وحين خاض علاء الدِّين حسين (الجهانسوز)، حرباً ضد سنجر سنة 547 هـ / 1152م، جرى حسم المعركة، بفعل انتقال حوالى ستة آلاف من الخَلْج والغُز وغيرهم، من البداة الأتراك في جيشه، من صفه إلى صف السلطان السلجوقي. حتى الغوريون لم يثبتوا جدارتَهم الدائمة بالثقة بالنسبة إلى معز الدين. فحسب ما جاء على لسان ابن الأثير، ما لبثت وحداته الغورية، خلال حملته الأولى على تارائين، أن تركته نهباً للهزيمة، مما أدى إلى تعرض القيادات للتوبيخ الشديد؛ فضلاً عن أنه ظل ساخطاً عليهم على امتداد عدد من السنوات[28]. ومثل هذه الاعتبارات، إضافة إلى العديد من السوابق، التي شهدتها أسر حاكمة إسلامية أخرى، ربما أدت إلى تشجيع الغوريين اللاحقين على تكوين وحدات من الغلمان الأتراك. وهؤلاء المماليك الأتراك، يظهرون

---

(26) غوزا IA، XI، 144 / 219. عن الأصل العرقي للخلج، انظر ف. مينورسكي، «اللهجة التركية للخلج»، BSOS 10 (1940)، 426 ـ 432، أعيدت طباعته في كتابه، **الأتراك والإيرانون والقفقاس في العصور الوسطى** (لندن، 1978م)؛ سي. إ. بوزوورث، «خلج، أ تاريخ» Enc. Isl²؛ سي. إ. بوزوورث والسير جيرالد كلاوسون «الخوارزمي حول شعوب آسيا الوسطى» JRAS (1965م)، 6، 8 ـ 9، أعيدت طباعته في بوزوورث، **التاريخ الوسيط**. أما إذا أردت الاطلاع على وجهة نظر مختلفة فقارن مع عرفان حبيب، «تشكُّل الطبقة الحاكمة السلطانية في القرن الثالث عشر» في حبيب (محرراً)، **هند العصر الوسيط أ. أبحاث في تاريخ الهند 1200 ـ 1750م** (أوكسفورد ودلهي، 1992)، 2 ـ 3 وهـ: 12.

(27) ج. مورغنشتيرن، «أفغان»، Enc. Isl². وعن المحاربين الأفغان لدى الغزنويين، انظر آندري وينك، الهند: **تشكُّل العالم الهندي ـ الإسلامي**، II، **الملوك المماليك والفتح الإسلامي، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر** (لايدن، 1997م) 116 ـ 118.

(28) TN، I، 346 (تر. 359). IA، XI، 114 / 173، 371 ـ 372 / 561 ـ 562.

في بلاط غياث الدين في تاريخ مبكر. وينبئنا الجوزجاني أن معز الدِّين، كان شديد الحرص على امتلاكهم[29]. وعلى الرغم من تمرد واحد، أو اثنين من الضباط المماليك في الهند، في أعقاب هزيمة السلطان في آندخوند سنة 601 هـ / 1204م، فإن ثقة الأخير بهؤلاء، كانت مبررة إلى حد بعيد. ففي آندخوند، بقي مماليك معز الدِّين الشخصيون معه في لحظات الصراع الحاسمة، وكان أحدهم هو الذي استطاع، بعد عناء طويل، أن ينقله من أرض المعركة، حفاظاً على سلامته[30]. لقد بين البرفسور عرفان حبيب، مدى حرص السلطان على ترقية غلمانه، (الذين عرفوا باسم المُعزِّيين نسبة إليه، أي إلى معز الدِّين) وتمكينهم خصوصاً من شغل المناصب الإدارية والعسكرية، في مناطقه الخاصة في كل من غزنة والهند، على النقيض من حال الأراضي الغورية الأقدم[31].

ولعل الفضل الرئيسي، فيما يخص الفتوحات الغورية في البنجاب الشرقي وما وراءه يعود، كما تقول المصادر، إلى قائد مملوكي يدعى قطب الدين آيبك، الذي كسر شوكة النزعة الانتقامية التشاوهانية في عهد هاريراجا (هيراج)، شقيق برثفيراجا، والذي تمكن سنة 589 هـ / 1193م، من السيطرة على دلهي، بذريعة مخططات حاكمها الخيانية الغادرة؛ والذي استطاع في 593 هـ / 1197م، أن يلحق الهزيمة بالتشاولوكيا على جبل آبو، منتقماً للمهانة التي لحقت بسيده قبل حوالى عشرين سنة. أمّا في داخل الإمبراطورية المتداعية للغاهاضوالا، فقد استولى آيبك على قلاع ميرات (ميروت) في 588 هـ / 1192م، وكول (القريبة من عليكره الحديثة) في 591 هـ / 1194م، وباداؤون (بوداون) في 594 هـ / 1198م، وقنّوج (كاناوج) في 595 هـ / 1199 م. وما

(29) غياث الدين: TN، ا، 354 ـ 355، **تركاني خاص** (تر. 371). معز الدين: المصدر السابق، ا، 410 (تر. 497).

(30) المصدر السابق، ا، 403 (تر. 476 ـ 478).

(31) ع. حبيب، «تشكُّل»، 4 ـ 7. انظر أيضاً وينك الهند، II، 141.

لبثت غواليور أن استسلمت له سنة 597 هـ / 1200 ـ 1201م، ثم تمكّن سنة 599 هـ / 1203م من احتلال كالينجار عاصمة ملك التشانديلاّ: باراماريديفا (پرمار، عند حسن نظامي)[32].

في هذه السنوات، كانت عناصر أخرى تقوم بنقل النفوذ الإسلامي على أسنة الرماح، إلى أماكن أبعد من ذلك في عمق الهند. ثمة مقاتل من الخَلْج يدعى محمد بن بختيار، كان قد احتل قاعدة في أَوَذ، التي راح يشن منها حملات نهب منتظمة، يغير فيها على إقليمي مانير وبيهار الهندوسيين. ثم ما لبث أن اكتسب قوة تكفي، لاحتلال مدينة بيهار أولاً ومن ثم شن الهجوم، بعد ذلك، على مملكة سينا في البنغال الغربي. ففي منتصف شهر رمضان 601 هـ / أوائل أيار / مايو 1205م، تم احتلال نوديا، عاصمة ملك لاكسماناسينا (الخمانيا)، ونهبها، بعد إجبار الملك نفسه على الفرار. وقد جرى اغتيال محمد بن بختيار هذا، حوالى سنة 602 هـ / 1206م في أعقاب حملة كارثية في إحدى المناطق الأسّامية (كامروب). وعلى الرغم من اعترافه بالسلطان الغوري سيداً له وتقديمه جزءاً من الغنائم إلى آيبك، فقد كان يتصرف بحرية، دون الإفادة من التوجيهات ـ بل وحتى من التعزيزات حسب ما نعلم ـ الصادرة عن غزنة[33]. لقد تمخضت هذه العمليات، التي وصلت شهرتها إلى أسماع ابن الأثير في العراق والتي كانت ستدفع مؤلفاً لاحقاً، إلى إرجاع فضل الفتوحات الإسلامية إلى الخَلْج، دون غيرهم ـ عن إخضاع مساحات ذات شأن في حوض الغانج، لم تكن قوات معز الدِّين قد توغلت فيها، لصالح المسلمين[34].

---

(32) عن هذه الحملات، انظر حبيب الله، **أساس**، 62 ـ 69؛ HN، 156 ـ 190.

(33) Ta$j، ملف 186 أ ـ ب. TN، ا، 423 ـ 427 (تر. 551 ـ 554، 560). وعن حملة نوديا، انظر حبيب الله، **أساس**، 69 ـ 74؛ وعن التاريخ انظر بارماشفاري لال غوبتا، «عن تاريخ نمط الفارس من النقد لدى محمد بن سام»، JNSI 38 (1976م) رقم: 1، 81 ـ 87.

(34) IA، XI، 115 / 174. وعن دور «القالاج» في فتح «هندوستان»، انظر ابن سعيد المغربي (المتوفى 673 هـ / 1274م أو 685 هـ / 1286م)، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، 1970م)، =

أدت الأنباء، التي تحدثت عن هزيمة معز الدِّين في آندخوند سنة 601 هـ/ 1204م، إلى قيام حركة تمرد من جانب قائد من جنده، سارع إلى الاستيلاء على المُلْتان، واستثارة ثورة أقوى بين صفوف الخوخار الهندوس، وأهالي سلسلة جبال الملح (كوهي جود)؛ فقضى سنواته الأخيرة مشغولاً بإخماد هذه الثورة. ولدى تعرضه للاغتيال سنة 602 هـ / 1206م (ربما على أيدي إسماعيليين من خراسان)، تمزقت إمبراطوريته أشلاء. لم يخلف ولداً، وكانت تركته الكبرى موضع نزاع بين أقاربه، ومماليكه، وخصمه الخوارزم شاه علاء الدِّين محمد، الذي شقّ عصا طاعة القَرَه ـ خيتان، وضم المناطق الغورية في خراسان. صحيح أن تاج الدين يلدز، كبير غلمان السلطان الراحل، استولى على غزنة، غير أن الخوارزم شاه، ما لبث سنة 611 ـ 612 هـ / 1214 ـ 1216م، أن ألحق الهزيمة به وبغيره من الأمراء الغوريين المختلفين، قبيل تعرض الإمبراطورية الخوارزمية للتدمير، (618 ـ 620 هـ، 1221 ـ 1123م) على أيدي جحافل جنكيزخان المغولية المتقدمة[35]. وفي هذه الأثناء عاشت الأقاليم حياتها الخاصة. فلدى سماعه بوفاة سيده سنة 602 هـ / 1206م، تحرك آيبك من دلهي، وأقام في لاهور، حيث نصب نفسه حاكماً. وحين قضى آيبك نحبه في لعبة بولو (**تشاوغان**) سنة 607 هـ / 1210 ـ 1211م، جرت دعوة غلامه إلْتُتمش إلى دلهي من بداؤون، من قبل جماعة في المدينة، فنصّب نفسه حاكماً في تحدٍ لوريث آيبك[36]. لقد شكلت حركة آيبك منطلقاً لانبثاق سلطة إسلامية مستقلة في الهند، أما حركة إلْتُتْمش فكانت لسلطنة دلهي، والتي ستكون موضوع الفصل القادم.

= 63: وعن هذا المؤلف، انظر جيل بوتيرون، «بوليغراف أندلسي من القرن الثالث عشر»، **آرابيكا** 13 (1966)، 142 ـ 167.

(35) ب. جاكسون، «سقوط الأسرة الغورية الحاكمة»، في كارول هيلين براند (محرراً)، كتابات فارسية تكريماً للبروفسور إدموند بوزوورث (أدنبره؛ قيد الإصدار).

(36) حبيب الله، **أساس**، 88 ـ 92.

الأسباب الكامنة وراء الانتصارات الغورية

يبقى التأريخ، لانتصارات الجيوش الغورية في الهند، حسب تتابعها الزمني، أسهل من الغوص وراء أسبابها، فضلاً عن أن الحقيقة المؤكدة، هي أن المراجع لن تقدم أي تفسير مقنع لتلك الانتصارات. ففي رأي الكتاب المسلمين الأربعة، الذين يتابعون هذه الأحداث، يكفي القول، بأن الله ينعم بالنصر على السلطان وقواته. وبالتالي فإن أي تحليل لأسباب نجاح المسلمين، يستند إلى جملةٍ من الأدلة المجتزأة، مما يبقي استنتاجاتِنا تأملية وتخمينية لا أكثر.

علينا أولاً أن نناقش فرضية تكرر إيرادها بين حين وآخر، على صعيد تفسير الفتح الإسلامي لشمال الهند، مع حلول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. فاستناداً إلى الملاحظات التي أوردها الكاتب الإسلامي البيروني، تعليقاً على طبيعة النظام الطبقي الجامد (نظام الكاست)، قال الأستاذ الجامعي الراحل محمد حبيب، إن مقاومة الحكام الهندوس، عند مواجتهم للجيوش الغورية الغازية، تعرضت للإحباط جراء سببين اثنين. فقد أدى النظام الطبقي الجامد إلى إحداث شلل خطير للفاعلية العسكرية، لدى الممالك الهندوسية أولاً، لأن هذا النظام، حصر المشاركة في الحرب بطبقة المقاتلين، طبقة **الكشاتريا**، فضلاً عن أن مبدأ النبذ فرض على أبناء هذه الطبقة، عشية المعارك القتالية، القيام بالعديد من المهام التي كان من شأنها، لولا ذلك النظام القائم على النبذ، أن تقع على عواتق أناس ينتمون إلى طبقة وضيعة. أما الخلل الثاني الذي قيل إن الدول الهندوسية كانت تعاني منه جراء النظام الطبقي الجامد، فقد تمثل في غياب التجانس، والتناغم بين أفراد الرعية. وبما أن الإسلام يدعو إلى المساواة، فإن الجماهير الحضرية، التي سارعت إلى التقاط هذه الرسالة التحريرية (كما يقول أصحاب هذا الرأي)، لم تستطع إلاّ أن تعقد المقارنة مع القيود الاجتماعية، التي كانت تعاني منها، وصولاً إلى انحيازها لصف القادمين

الجدد. وهكذا فإن حبيب، اختتم كلامه بعبارات اكتسبت قدراً غير قليل من الشهرة السلبية قائلاً إن: «هذا لم يكن فتحاً مزعوماً. لقد كان انقلاباً للرأي العام، انقلاباً مفاجئاً دون شك، ولكنه كان انقلاباً طال انتظاره، انقلاباً كان يجب أن يحدث منذ زمن طويل»[37].

على الرغم من أن هذه الآراء تبدو جذابة للوهلة الأولى، فإنها لا تصمد أمام المعاينة الأدق. فعلى صعيد الفاعلية العسكرية، سبق أن قيل إن الجيوش الهندوسية، ضمت أعضاء من الطبقات الأخرى، مثل **الفايسيا والسودرا** من ناحية، وإنَّ مخبري البيروني البراهمانيين، ربما كانوا يبالغون بمدى فاعلية الضوابط والقيود الطبقية الجامدة من ناحية ثانية[38]. أمّا فيما يتعلق بالتحرير، فلا بد لنا من أن نعرف أكثر مما نعرفه عن التصورات، التي كانت لدى العامة الهندوسية من الطبقات الدنيا، حول أوضاعها وحول الرسالة (إذا كانت هناك أية رسالة)، التي حملتها القوات الإسلامية الغازية. يمكننا القول، ولو خاطَرْنا بتكرار ما هو واضح، إن تعرُّف المرء على مرتبته الاجتماعية المتدنية، خصوصاً حين تكون مكرَّسة بالشرائع الدينية، لا يكون بالضرورة مصحوباً بسعيه إلى تحسينها ـ في مجتمع لم يَمْسَسْه التنوير الأوروبي، العائد إلى القرن الثامن عشر الميلادي[39]، ناهيك عن استحالة التسليم بالتحرير، الذي عرضه الفاتحون المسلمون على أولئك الطامحين، إلى الخلاص من النظام الطبقي الجامد دون نقاش. ليس ثمة ما يشير إلى أي إقبال كثيف على اعتناق الإسلام، عند نهاية

---

(37) م. حبيب، «مقدمة **تاريخ الهند**، II»، تأليف إليوت وداوسون، في ك. آ. نظامي (محرراً)، **السياسة والمجتمع في الفترة الوسيطة المبكرة. المؤلفات الكاملة للبروفسور محمد حبيب** (نيودلهي، 1974، جزءان)، I، 59 ـ 74 (72 للاقتباس). انظر أيضاً عزيز أحمد، **دراسات في الثقافة الإسلامية في البيئة الهندية** (أوكسفورد، 1964م)، 82.

(38) محاربون آخرون: برابها ديكسيت، «مغالطات البروفسور محمد حبيب التاريخية»، في دافاهوتي (محرراً)، **الانحياز في كتابة التاريخ الهندي** (دلهي، 1980م)، 205. نظام الطبقات الجامدة: س. دغسبي، مراجعة مؤلفات حبيب الكاملة، في BSOAS 39 (1976م)، 457.

(39) أَحْسَن فريدمان إذ أثار هذه النقطة، «مساهمة»، 320 ـ 321.

القرن الثاني عشر الميلادي ببساطة. بل ويبدو أن عرض مثل هذا الخلاص، لم يكن وارداً انطلاقاً من معرفتنا بالقرون الأولى من الحكم الإسلامي في السند، هذه المعرفة، التي نجدها أكثر اكتمالاً إلى حدود معينة، من اطلاعنا على الأوضاع السائدة في المناطق الهندية المفتوحة حديثاً، من جانب الغوريين.

يبقى المرجع الرئيسي عن قيام العرب بإخضاع السند، أوائل القرن الثامن (الهجري) متمثلاً **بالتشاتش نامه**، وهو كتاب فارسي، جرى تأليفه حوالى سنة 613 هـ / 1216 ـ 1217م، غير أنه يقوم على الزَّعْم بأنه، ترجمة لتاريخ سابق باللغة العربية. يدعي الكتاب، أن فاتح السند محمد بن القاسم، علم بالقيود المفروضة على الأهالي المحليين، الجات، في حقبة الأسرة الحاكمة البراهمية المخلوعة. تمثل أحد تلك القيود، بأن الجات كانوا ملزمين باصطحاب الكلاب كلما خرجوا من بيوتهم، كي يبقى التعرف عليهم ممكناً. أصدر محمد بن القاسم أمراً قضى بالإبقاء على هذه القيود. ويتم استخلاص أنها بقيت من فقرة وردت في كتاب **فتوح البلدان** للبلاذري (المتوفى سنة 279هـ / 892م)، الذي يتحدث عن أن أحد ولاة الخليفة في السند، أواخر العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي طالب الجات باصطحاب الكلاب، لدى خروجهم من منازلهم مستقبلاً. إن حقيقة أن الكلب حيوان غير طاهر في التراثين الهندوسي، والإسلامي سهَّلت على الفاتحين المسلمين، الحفاظ على **الأمر الواقع**، بالنسبة إلى فئة تنتمي إلى الطبقة الدنيا. وبعبارة أخرى، فإن النظام الجديد في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، لم يبادر إلى إلغاء الضوابط والقيود التمييزية، العائدة إلى فترة السيادة الهندوسية، بل حرص على استبقائها[40]. ليس لدينا أي أساس نستند إليه كي نفترض، أن رد فاتحي

(40) CN، 33. البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق م. ج. دوغويه، (لايدن، 1866)، 445، تحقيق صلاح الدين المنجد (بيروت، طبعة جديدة)، 544. فريدمان، «مساهمة»، 331 ـ 332. انظر أيضاً ملاحظات موجزة في عرفان حبيب، «التاريخ الاقتصادي لسلطنة دلهي ـ مقال في التفسير»، IHR 4 (1977م)، =

أواخر القرن الثاني عشر الميلادي على النظام الطبقي الجامد (نظام الكاست)، كان مختلفاً في أي شيء.

ولدى تحولنا الآن، إلى اعتماد تفسيرات ممكنة أخرى للانتصارات الغورية، فإننا قد نجد التكنولوجيا العسكرية، ميداناً ربما كان المسلمون يتمتعون فيه، بقدر من التفوق المحدود. فأحد المصادر الهندوسية، يصف معز الدين قائلاً إنه «سيد الجهات الشمالية ـ الغربية، حيث تكثر الخيول»[41]، وبالتالي فإن من الممكن أنه كان متفوقاً على خصومه، من حيث القدرة على تسيير وحدات أكبر من الفرسان والخيالة. إنها مسألة عاينها سايمون ديغبي، بالنسبة إلى حقبة سلطنة دلهي بالذات[42]، وسوف تحظى بالمزيد من التمحيص في فصول لاحقة. أما الآن، فلا بد من الإشارة إلى أمرين اثنين. يكمن الأول، في حقيقة أن منطقة الغور طالما اشتهرت بمخزوناتها المعدنية، وإتقان فنون تصنيع الأسلحة والدروع، هذه السلع، التي كانت ذات يوم، تشكل جزءاً من الخراج، المقدَّم إلى الغزنويين والسلاجقة على التوالي[43]. وبالتالي فإن من الواضح أن معز الدين، استند إلى امتلاك كميات أوفر من الأسلحة اللازمة لحملاته الهندية، مقارنةً بالسلاطين الغزنويين الجدد (وبسلاطين دلهي في القرن التالي، بالمناسبة). أما الاعتبار المهم الثاني، فيتمثل بقيام حسن نظامي، لدى وصفه لحملات معز الدِّين آيبك، بالإشارة، مراراً وتكراراً، إلى النشابية (ناواك)، وبالمبالغة في إطراء مميزات النشاب

= 279: «ليس ثمة ما يشير إلى أي هجوم مباشر من جانب الدولة أو المسلمين على النظام الطبقي الجامد؛ ولا إلى أية حركة تمرد من الداخل».

(41) هار بيلاس ساردا، «البريثغراجابيجايا»، JRAS (1913)، 279.

(42) س. ديغسبي، **جياد الحرب والفيلة في سلطنة دلهي: مشكلة تجهيزات عسكرية** (أوكسفورد وكراتشي، 1971).

(43) TN، ا، 335، 346 (تر. 336، 358). انظر أيضاً **حدود العالم** من القرن العاشر، تر. ف. مينورسكي، GMS، هوامش، XI، طبعة ثانية (لندن، 1970)، 110، آثار علي، «التكنولوجيا العسكرية لدى سلطنة دلهي» (القرن 13 ـ 14)، في PIHC 50 (غوراخبور 1989م) (دلهي، 1990)، 167.

القادر على اختراق الدروع[44]. ليس ثمة أي دليل يشير، إلى أن خصوم الغوريين من الهندوس، كانوا يستخدمون مثل هذه الأسلحة النشابية[45]. فهذا السلاح الهائل الذي كان في تلك الفترة ذاتها، يمنح الجيوش المسيحية اللاتينية تفوقاً حاسماً على أعدائهم في العالمين الكلتي والسلافي[46]، ربما أدى مهمة موازية بالنسبة للمسلمين الذين غزوا الهند. وهذا قد لا يكون قادراً على تفسير الانتصار المتحقق في تارائين، ذلك الانتصار الذي تحقق في البقعة، التي كان النجاح فيها قد راوغ معز الدِّين بالذات، قبل فترة زمنية غير طويلة.

من الممكن أن تكون التكتيكات الخاصة، التي اعتمدها السلطان في معركة تارائين الثانية، قد لعبت دوراً ذا شأن في انتصاره. ثمة نادرة طريفة في كتاب **جوامع الحكايات** لعوفي تشي، بأن معز الدِّين استغلّ قرب فيلة العدو من الخيل، التي يجعل خوفُها من الفيلة أمرَ التنسيق بين هذين النوعين من الحيوانات، أمراً بالغ الصعوبة. وفيما تم إبقاء نيران المعسكر مشتعلة، لإيهام جنود برثفيراجا بأن الجيش الغوري كله بات هاجعاً لقضاء الليل، فإن السلطان، قاد فرقةً من وحداته إلى ما وراء صفوف العدو، لمهاجمة التشاوهان من

---

(44) انظر خصوصاً Ta$j، ملف 81 أ، 146 ب، 201 أ، 229 أ؛ أيضاً AH، 400، 423 وأماكن أخرى. وعن الدور الممكن **للناواك**، انظر عرفان حبيب، «تغييرات تكنولوجية في هند العصر الوسيط»، **دراسات في التاريخ** 2 (عليكرة، 1980)، 26 ـ 27؛ وعن تحديد معجمي يعود إلى القرن الرابع عشر لمعنى **ناواك**، انظر محمد بن هندوشاه ناختشواني، **شاهات الفرس**، تحقيق عبد العلي تعاطي (طهران، 1962م)، 188. كانت الكلمة تعني في الأساس أنبوت أوقناة السلاح، غير أنها ما لبثت لاحقاً أن توسَّعَت لتعني السلاح كله: كاليرفو هوري، مساهمة في تاريخ المدفعية في العصر الوسيط من مصادر شرقية (هلنسكي ولايبزيغ، 1941)، 105؛ أيضاً مراجعة .Cl كاهن، في JA 236 (1946م)، 169؛ وكاهن «رسالةٌ في السلاح كُتبت لصلاح الدين، BEO 12 (1947 ـ 1948م)، 153، 154.

(45) الإشارات المتكررة بين وقت وآخر تبين أنهم كانوا يمتلكون **الناواك**: مثال Ta$j، ملف 40 ب، 130 ب؛ AH، 247.

(46) روبرت بارتلت، **تشكُّل أوروبا: غزو واستعمار فتغيير ثقافي 950 ـ 1350م** (هارموندزوورث، 1993)، 63 ـ 64، 73 ـ 74.

الخلف. عند الصباح انقضّ على أمتعة برثفيراجا. باتت المؤخرة ضاغطة على الفيلة، التي خرجت عن السيطرة، مما أدى إلى انتشار الفوضى بين صفوف الجيش التشاوهاني، فأصبح برثفيراجا عاجزاً حتى عن قيادة انسحاب منظم[47].

ومن جهة أخرى، نرى في الرواية الوجيزة لقصة المعركة، التي نقلها الجوزجاني في كتابه **طبقات ناصري** عن شاهد عيان، أن معز الدِّين قام بتقسيم قواته[48]. ففي حين جرى إبقاء القلب، والمعدات والعتاد والفيلة على مسافة بضعة أميال في المؤخّرة، تم الإيعاز لوحدات منتقاة من الخيالة ذات الأسلحة الخفيفة (سوار باراهنا واوجريدا)، بلغ تعدادها عشرة آلاف رجل، بمشاغلة العدو وإزعاجه من جميع الجهات. ولا يلبث أن يتضح بعد بضعة سطور، أن هؤلاء ليسوا إلاّ رماة سهام من الخيالة؛ وأن توجيهات السلطان إليهم ـ الرمي من جميع الجهات، ثم التراجع، والحفاظ على مسافة بينهم وبين العدو، حين يقرر الجيش الهندوسي أن يشن هجوماً ـ وهو أسلوب شديد الشبه بتكتيكات رماة السهام من فرسان البداة الأتراك كالسلاجقة عند تعرضهم، على سبيل المثال، لمواجهة الجيوش الصليبية في الأناضول وسورية[49]. ومن هنا فإن البروفسور نظامي توصل إلى افتراض يقول بأن هذه التكتيكات، هي التي مكّنت المسلمين من الفوز بالنصر في سهل الغانج الشمالي[50].

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الانتصار جرى كسبه، في جانب منه، بفضل تقنيات تميز بها البداة الأتراك، لا يجوز لها أن تعمينا عن جملة الأدلة الأخرى. فجيوش معز الدِّين، لم تكن مؤلفة بأكثريتها الساحقة من البدو الترك. والقوة

---

(47) JH، BN مخطوطة. آنسان فون بيرسان 75، ملف 185 (خلاصة في ED، II، 200).

(48) حول ما يتبع انظر TN، I، 400 (تر. 467 ـ 468).

(49) والتر إ. كيغي، الابن، «مساهمة الرماة في الفتح التركي للأناضول»، **سبكيولوم** 39 (1964م)، 96 ـ 108. ر. سي. سمايل، **حرب الصليبيين 1097 ـ 1193م** (كامبردج، 1956؛ طبعة ثانية، 1995) 75 ـ 83.

(50) ك. آ. نظامي، **بعض جوانب الدين والسياسة في هند القرن الثالث عشر** (عليكره، 1961م)، 82؛ وفي HN، 186.

المؤلفة من عشرة آلاف رجل من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة، لم تكن إلاّ جزءاً من جيش أضخم، ضم كما يقول الجوزجاني، مئة وعشرين ألفاً من الخيالة على صهوات جياد ترتدي دروعاً (بار ـ غوستوان)[51]. حتى إذا كان هذا الرقم مبالغاً، يبدو جلياً أن القوات الغورية في تارائين، كانت مؤلفة بأكثريتها من الخيالة الثقيلة. ومن جرى تخليد ذكراهم على القطع النقدية المعدنية الإسلامية البنغالية، هم هؤلاء المقاتلون الذين يشكلون عنوان السيطرة الإسلامية ـ لا رماة السهام من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة[52]. ويعلق الرحالة المغربي ابن بطوطة، الذي وصل إلى سلطنة دلهي سنة 734 هـ / 1333م، على واقع أن الخيالة المدرعة الثقيلة، كانت لا تزال تشكل قوات سلطان دلهي[53]. ويجدر بنا في هذا المنعطف، ملاحظة أن الجنود المماليك الأتراك، الذين كانوا يُسْتَخْدَمون كخيالة ثقيلة ـ ما كانت قيمتهم بنظر مستخدميهم كامنةً في أية محاولة لتكرار التكتيكات المرتبطة تقليدياً بالبوادي والسهوب[54]. فمثل هذه الوحدات المدرعة الثقيلة، ما كانت مؤهلة لشن ذلك النوع من الهجمات، التي ظلت الجيوش الصليبية تعاني منها. وبالفعل فإن أداء مثل هذه الوحدات، ربما كان أقرب إلى تكتيكات الصليبيين أنفسهم، حيث كان اقتحام وحدة الخيالة المدرعة الثقيلة لمواقع خصم ثابت نسبياً، يحدث صدمةً تتردد أصداؤها في سائر أرجاء الشرق الأدنى[55]. وإذا كانت قصة العوفي، قد أوردت أية تفاصيل

---

(51) TN، I، 400 (تر. 465 ـ 466).

(52) CMSD، 6 (رقم: 3 A)، 15 (هوامش 49 ف، 49 ج)، 16 (هوامش 49 هـ. ج) والرسوم التوضيحية على لوحات XXII - XXIV. انظر أيضاً ريتشارد م. إيتون، **صعود الإسلام وحدود البنغال، 1204 ـ 1760** (بيركلي ولوس آنجلوس، 1993م)، 33 ـ 35، والقطع النقدية المشروحة هناك. كان الهندوس يستخدمون فرسان **البرغوستوان** أيضاً: AH، 272؛ SA، 27.

(53) IB، II، 374 (تر. جيب، 479).

(54) انظر ملاحظات Cl كاهن «Le changement technique militaire d'un le proche Orient midiéval et leur importance historique» (التغييرات التقنية العسكرية في الشرق الأدنى القروسطي وأهميتها التاريخية)، في باري وياب، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع**، 121؛ أيضاً وينك، **الهند**، II، 89.

(55) سمايل، **حرب الصليبيين**، 112 ـ 115. كريستوفر مارشال، **الحرب في الشرق اللاتيني، 1192 ـ 1291**=

صحيحة عن حملة تارائين، دون أن تكتفي بمجرد وصف استراتيجية معينة، اعتمدها القادة المسلمون أحياناً في حربهم ضد الجيوش الهندوسية في الماضي، فإن من شأنها أن تكون عاكسة، لنجاح معز الدِّين في تجميع قلب جيش برثفيراجا، وجَعْلِه كتلة جامدة ـ حتى بات هدفاً مؤكداً، وسهلاً للوحدات الخفيفة من رماة السهام، التي أتى الجوزجاني على ذكرها، غير أنه شكَّل أيضاً هدفاً مثالياً ثابتاً لأي هجوم تشنه وحدات الخيالة الثقيلة المدرعة.

على الرغم من عدم امتلاكنا لأية معلومات دقيقة عن الأعداد، فإن من المعروف أن معز الدِّين، كان أيضاً مديناً بانتصاراته للتفوق في حجم جيشه. من الواضح أن رقم المئة والعشرين ألفاً، المذكور من قِبَل الجوزجاني حجماً للجيش الغوري في معركة تارائين، مصمم للتأثير على القارئ، ويشير بأن السلطان كان قد شكل جيشاً غير عادي من حيث الضخامة للقيام بالغزو. ربما قيل ذلك في الشرق الأدنى، قبل أن يكتبه الجوزجاني بعدد من العقود، وذلك لترك انطباع ينطوي على قدر كاف من القوة، لدى الفاتح المغولي بابُر، بعد ثلاثة قرون، بما يجعله يضيف الأمر إلى مذكراته[56]. أمّا بالنسبة للجيش الذي هاجم الغاهاضوالا فإن الأعداد التي نملكها، تكاد أن تكون أقل بعض الشيء، إذ لا تتجاوز الخمسين ألفاً، من الفرسان المدججين بالأسلحة الثقيلة[57] ـ وهذه قوة كبرى، إذا كان الرقم جديراً بالثقة. من المحتمل أن تكون أعداد كبيرة من

= (كامبردج، 1992م)، 158 ـ 163. يبدو أن الهندوس لم يستخدموا قوات الفرسان المباغتة: وينك، **الهند**، II، 81.

(56) **بابور ـ نامه**، 479 ـ 480. يرد العدد في **كنز الدرر** لابن الدواداري (حوالى 730 هـ / 1329)، تحقيق سعيد عاشور وآخرين، VII (القاهرة، 1391 هـ / 1972م)، 134. وبالنسبة إلى التاريخ، 590 هـ، الوارد هنا يقوم ابن الدواداري بالاقتباس من ابن الساعي (متوفى 674 هـ / 1276م) وابن واصل، غير أن من المستحيل الحسم حول أي من هذين المؤلفين إذا كان أحدهما قد أورد الرقم 120 ألفاً. من كتاب ابن الساعي، **الجامع المختصر**، لم يبق إلاّ الجزء الذي يغطي السنوات من 595 إلى 606 هـ / 1198 ـ 1209 م؛ أما كتاب ابن واصل المذكور فليس **مفرج الكروب** مما يجعله بالضرورة كتابه الأخير **تاريخ صالحي** (حوالى 636 هـ / 1239م)، الموجود فقط في مخطوطة استانبولية ليست في متناول يدي (ليس لابن واصل تاريخ بهذا الاسم. وأحسب أن المؤلف واهمٌ بشأن مخطوطة اسطنبول. المراجع).

(57) Taj، ملف 119 ب.

هذه الوحدة، مؤلفة من المتطوعين؛ ففي تواريخ سابقة، شهدت الجيوش الغزنوية العاملة على الجبهة الهندية، تورماً ملحوظاً، جراء التحاق الآلاف بها، سعياً وراء المشاركة في القتال الناشب، بوصفهم (**غُزاةً مجاهدين**)[58]. ومثل هذه الأفواج من المهاجرين، كانت مؤلفة من الأتراك والطاجيك، كما كان سكان العالم الفارسي وأهالي ما وراء النهر من غير الأتراك، يُعْرَفُون على حد سواء. وقد كان من شأن المجموعة الثانية، الطاجيك، أن تضم ليس فقط البيرقراطيين والجنود، بل والأشراف من سلالة النبي (**السادات** جمع **سيد**)، والصالحين (**الشيوخ**) والفقهاء (**العلماء**، أولئك المتبحرين في الشريعة، والعلوم القرآنية)، مثل الأخوين الفقيهين (دانشمامند) من فرغانه، وأولئك الذين قاتلوا تحت قيادة محمد بن بختيار، المذكور من قِبَل الجوزجاني، وقد قابل أحدهم في لخناوتي سنة 641 هـ / 1243 م. وكان أحد مصادر التحشيد، المتوفرة بصورة مؤكدة لمعز الدِّين، متمثلاً بالخَلْج. ونحن نعلم أن هؤلاء، لم يكونوا من الفرسان الخفاف بالضرورة؛ فالقوة الصغيرة التي اقتحم بها محمد بن بختيار مدينة بيهار، كانت تتألّف من مئتين من الفرسان، المدججين بالأسلحة الثقيلة (بار غوستوان). أما عصابات الخَلْج، التي تزاحمت للالتحاق بصفوفه، بعد انقضاء سنوات قليلة على الإطاحة ببرثفيراجا، فإن من الواضح بجلاء، أنها جاءت «من جهة هندوستان» (أي من دواب وأَوَذ)، مما يشير، على الأقل، إلى أنها لم تكن حديثة العهد في الهند[59].

الحرب المقدسة، والفتح، والكفار

في غضون ما يزيد قليلاً على العقد من الزمن، كانت الجيوش الغورية قد حققت تقدماً مدهشاً؛ بات المسلمون مسيطرين على سلسلة من القلاع

---

(58) انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 114؛ وينك، **الهند**، II، 91 ـ 92 هـ. 57.

(59) TN، I، 423 (تر. 551 ـ 552). وعند هذا المعنى المحدود لكلمة «هندوستان» انظر ص 86 من هذا الكتاب.

والحصون، التي تحكّموا من خلالها، إلى حدود أكثر أو أقل، بسهل الغانج الشمالي. غير أن من المهم، من ناحية أخرى، أن نعترف بحدود النجاح الإسلامي. فالانتصار لم ينطو بالضرورة على استبدال الحكام الهندوس. وقد جرى، كما سبق لنا أن رأينا، تنصيب ابن برثفيراجا خلفاً لأبيه حاكماً لآجمر، كما أن ابن غوفنداراجا حكم دلهي فترة وجيزة، وقد كان، كلاهما، تابعين للسلطان. وفي أعقاب الانتصار على جاياتشاندرا، يقال إن آيبك نصّب «ملكاً (رانا) على كل جهة»[60]. أما وضع السلطان الغوري، فقد كان وضعَ ملك أعلى يرأس عدداً من الأمراء التابعين، ـ عدداً من **الرايات** أو **الرانات** ـ الذين كانوا يأتون، حسب تعبير حسن نظامي، «ليتمسحوا بأعتاب بلاط آيبك العظيم»[61].

لم تكن بعض الانتصارات الإسلامية، إلاّ انتصارات مؤقتة بطبيعتها. فاستباحة آيبك لمدينة تاهروالا في 593 هـ / 1197م، مثلاً، لم تُفْضِ ـ رغم إطرائها من قبل الجوزجاني بوصفها «فتح گوجرات» ـ بمقدار ما نستطيع أن نقول، إلى الاستيلاء على أية أرض. كما أن نتائج إغارته على مالوا في 596 هـ / 1200م، كانت وهميةً بالمثل دون شك[62]. ففي الأجزاء الشرقية لما يعرف الآن باسم أوتار براوسن، كانت مملكة غاهاضوالا ما تزال تصول وتجول[63]. أضف إلى ذلك، أن من الواضح، أن بعضاً من المواقع الحصينة التي احتلها آيبك عادت بالتأكيد إلى أيدي الأمراء الهندوس، على الرغم من أن مصادرنا،

---

(60) Taj، ملف 137 أ.

(61) المصدر السابق، ملف 150 أ.

(62) گوجرات: المصدر السابق، ملف 173 أ، وTN، ا، 417 (تر. 516). مالوا: SA، 24، وTN، ا، 407 (تر. 491): في ا، 417 (تر. 516 ـ 517)، يشير الجوزجاني إلى فتح هندوستان حتى حدود أوجّاين شرقاً (ترد في طبعة حبيبي على شكل CYN [چ ي ن] خطأ)، أي مالوا.

(63) منقوشة ماتشليشهر النحاسية، مؤرخة فيكراماساموات 1253 / 1197: ب. براساد، منقوشات سنسكريتية، 58 ـ 70 (رقم: II، 6). نيوغي، **تاريخ أسرة غاهاداوالا الحاكمة**، 113 وبعدها.

تمتنع عن إخبارنا عن نكسات المسلمين، ربما بعد وفاته، لأن إلتُتْمش اضطر للاستيلاء عليها ثانية. أما في الأماكن الأبعد شرقاً، فإن جهود محمد بن بختيار، لم تؤمن إلاّ الجزء الشمالي ـ الغربي من البنغال، حيث باتت السلطة الإسلامية، متركزة في بلدة غَور، التي أعيدت تسميتها، وأُطلق عليها اسم لاخناوتي: أما البنغال الشرقي، ذلك الإقليم المعروف لدى المسلمين باسم «بانغ»، فقد بقي بأيدي سلالة سينا الحاكمة[64].

حتى في المناطق الخاضعة، إلى هذا الحد أو ذاك، لحكم المسلمين المباشر، بقي مدى تحكمهم مفتوحاً للنقاش، ومن الضروري أن نحرر قابلية التصديق من براثن مبالغات مصادرنا المفرطة، حيث نجد مزاعم فخر مدبّر الحماسية المتطرفة من قبيل: «ما لبثت مدن الكُفْر أن أصبحت مدناً للإسلام. فبدلاً من الأنصاب، باتت تعبد الخالق الأعلى. أما معابد الأصنام، فقد تحولت إلى مساجد، ومدارس، وتكايا (**خانات**). تشهد كل سنة انتقال بضعة آلاف من الرجال والنساء الكفار إلى الإسلام...»[65] من جهة، غير أننا قد نكون، من الجهة المقابلة، أكثر ميلاً لقبول تصريحات حَسَن نظامي، التي تقول بأن آيبك بادر إلى «استئصال الوثنية»، و«تدمير المعابد» في كوهرام، وبأن هياكل الأصنام في ميرات وبَنَارِس (التي كان فيها ألف معبد)، وكالنجار تم تحويلها إلى مساجد[66]. لم تكن مثل هذه التكتيكات الجذرية العميقة، قابلة للتصور بالنسبة إلى المراكز الحضرية المختلفة. ففي بعض الحالات نرى أيضاً، أن الأطلال المعمارية الباقية، تؤكد صحة مزاعم حَسَن نظامي القائلة، بأن الحجارة المأخوذة من المعابد الهندوسية المدمرة، استُخدمت في تشييد المساجد، كما

(64) TN، ا، 426 ـ 427 (تر. 558). اسم «بنغالا» ليس موجوداً قبل برني: أحمد حسن داني، «شمس الدين الياس شاه ـ ي بنغالاه» في هاري رام غوبتا وآخرين (محررين)، **مقالات مهداة إلى جادونات سانكار**، ذكرى السيدجادونات سانكار، الجزء II (هوشيابور، 1958م)، 50 ـ 58.

(65) SA، 26.

(66) Taj، ملف 53 أ، 74 ب، 134 ب، 185 أ.

في دلهي ومسجد آرهاي دين كه جهومبرا بآجمر[67]. غير أن تأكيدات أخرى تستثير قدراً أكبر من الشك، مثل القول بأن آيبك حرر منطقة **(ديار)** كول كلها، لا المدينة فقط، من الأصنام، ومن عبادة الأصنام[68]. أضف إلى ذلك، أن المعاملة التي لقيتها المعابد الهندوسية، على أيدي فاتحي القرن الثامن المسلمين للسند، كانت متباينة وفقاً للظروف[69]، وقد يحق لنا أن نفترض، أن ذلك كان صحيحاً أيضاً أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. فالمدن التي استسلمت ـ كما فعلت غواليور في 597 هـ / 1200 ـ 1201م، مثلاً ـ ربما تمكنت من الحصول على صفقة أفضل بالنسبة إلى معابدها، مقارنة بالأماكن التي أُخذت عنوة. وبصرف النظر، عما كان **الكتبة (المثقفون)** المسلمون يريدون إقناع الناس به، وإقحامه في رؤوسهم، فإن السمة المميزة لتلك السنين، لم تكن متمثلة بنزعة العداء، الذي لا يعرف معنى المساومة للوثنية والأصنام.

ساهمت لغة مصادرنا في تشويه طبيعة هذه المعركة، وما تبعتها من الحملات اللاحقة، حتى باتت مصبوغة بلون صراع مستوحى من الدين ـ وهو تطور ما لبث أن استمد زخماً إضافياً، من المواقف الطائفية الأحدث[70]. فمعز الدِّين، بنظر الجوزجاني، يبقى على الدوام «السلطان المجاهد» **(سلطان غازي)**، كما يطلق الكتاب المسلمون، اسم «جيش الإسلام» على قواته. ولدى سرده لقصة الانتصارات الغورية على كَفَرة الهند، فإن الجوزجاني يشبهها بانتصارات معاصر معز الدِّين، صلاح الدين، على الفرنجة المسيحيين في سورية وفلسطين[71]. ومع

---

(67) المصدر السابق، ملف 48 أ، 114. انظر روبرت هيلنبراند، «الرمزية السياسية في هندسة عمارة المساجد الهندية الإسلامية الأولى: مثال آجمير»، **إيران** 26 (1988م)، 105 ـ 117.

(68) Taj، ملف 138 أ.

(69) فريدمان، «مساهمة»، 328 ـ 329؛ المصدر السابق، «معبد مُلْتان: ملاحظة حول المواقف الإسلامية المبكرة من عبادة الأوثان»، IOS 2 (1972م)، 176 ـ 182.

(70) للاطلاع على معالجة حصيفة لهذه الأطروحة، انظر كارل و. أرنست، **جنة خالدة. الصوفية، التاريخ والسياسة في أحد المراكز الصوفية بجنوب آسيا** (آلباني، نيويورك، 1992)، 18 ـ 29 وأماكن أخرى.

(71) TN، I، 290 (تر. 214).

ذلك فإن من المهم، ألاَّ نبالغ بمدى أهمية الجهاد (الحرب المقدسة) في الحملات الغورية، بالنسبة إلى دوافع السلطان على الأقل. من المؤكد أن الغنائم اللازمة، لتسديد فواتير الصراع مع الخوارزم شاه، كانت أحد الدوافع الرئيسية؛ وتوزع مواقع لقى القطع النقدية التي صكها الفاتحون في الهند، ذو مغزى، إذ يبين أن جزءاً كبيراً منها، ما لبث أن عاد إلى الوطن[72]. إن المؤلفين المسلمين، يبالغون في الحديث عن الأشياء، والمصوغات الذهبية المأخوذة من آجمر، والتي شكلت جزءاً من خراج التشاوهان، تم إرسالها إلى غياث الدين محمد بن سام، واستُخدمت في تزيين قصر فيروزكوه الملكي، والجامع الكبير في هراة[73]. لا شك أن هجومه الناجح على دَيبُل من جهة، وحملته غير الموفقة على ناهروالا من جهة ثانية، يمثلان مسعيين بذلهما معز الدِّين، لإعادة ملء خزانته، عن طريق نهب أقاليم كان أمراؤها يتمتعون بمداخيل فاحشة، كانت تؤخذ من عوائد التجارة؛ وليس ثمة أيُّ قَدْر من الشك حول أن حملة دَيبُل، التي تمخضت عن كميات كبرى من الغنائم[74]، ساهمت في تمويل المجهودات الحربية اللاحقة، التي بُذلت ضد الغزنويين. وقد كان الجوزجاني سيسمع لاحقاً من فم أمين صندوق معز الدِّين، أرقاماً خارقة للعادة عن وزن المجوهرات المنهوبة من الهند، والمخزونة في غزنة لدى وفاة السلطان[75].

وكذلك فإن الصراع الطويل الذي طبع تقدم النفوذ الإسلامي، لم يكن بالضرورة، صراعاً مقتصراً فقط على انشغال المسلمين بالقتال، ضد القوات الهندوسية. ففي إغارته الأخيرة على أخيه في الدِّين، خسرو ملك، كان معز الدِّين قد تعاون مع أمير جامو الهندوسي، في حين أن السلطان الغزنوي كان

---

(72) دِبَل، **العيش بدون فضة**، 195، 203 ـ 206.

(73) TN، ا، 375 (تر. 404). SA، 22 ـ Taj23.، ملف 80 ب.

(74) TN، ا، 397 (تر. 451 ـ 453).

(75) المصدر السابق، ا، 404 (تر. 487 ـ 488).

بدوره، قد تحالف مع أهل البنجاب الكَفَرة من الخوخار[76]. ونحن لا نعلم متى قرر معز الدِّين وجنرالاته، أن يحذوا حذو الغزنويين، ويستخدموا فصائل من القوات الهندوسية. من المؤكد أن جيش آيبك، كان لدى حصاره لميرات، يضم جنوداً هندوسيين في صفوفه؛ وحين تابع مسيرته متقدماً باتجاه لاهور سنة 602 هـ / 1206م، كانت «القوات الهندستانية» (**حشمي هندوستان**) المرافقة له تضم، كما يقال، عدداً من «**الرانات والثاكورات**»، أي الزعامات الهندوسية التي كانت تتولى قيادة فصائلها الخاصة، في خدمة أمير الحرب المسلم[77].

غير أن سلطنة دلهي كانت، رغم جملة هذه المواصفات والمؤهلات، عريقة وراسخة في تربة التراث الطويل، للنشاط العسكري الإسلامي في شبه القارة، ومن الممكن إيجاد الأعذار لحكامها، الذين اعتبروا أنفسهم، الجيل الأحدث في سلسلة مجاهدي الإسلام. ومن المؤكد أن محمود الغزنوي، قد احتل مكان الصدارة بين هؤلاء السلاطين. وليس صدفة، أن يكون مؤلف أواسط القرن الرابع عشر، البَرَني، قد قدَّم في كتابه الذي حمل عنوان **فتاوى جهانْدار**، مرآةً للأمراء، ما اعتُبر وصية محمود الموجهة إلى الأجيال القادمة كلها؛ أو يكون معاصره عصامي قد بادر بالفعل، حاذياً في ملحمته **فتوح السلاطين**، حذو الفردوسي في ملحمة **الشاهنامه** (المهداة إلى محمود)، إلى اختيار الشروع بالعمل، انطلاقاً من حملات محمود الخاصة، معتبراً إياه صاحب الفضل في ترسيخ دعائم الإسلام في شبه القارة؛ أو يكون شمس السراج عفيف، لدى وصفه لإنجازات السلطان فيروزشاه، على صعيد تحطيم الأصنام في جاجنغر (أوريسا) سنة 762 هـ / 1361م، قد شبّه هذا السلطان

(76) المصدر السابق، ١، 398 (تر. 454 ـ 455). بوزوورث، **الغزنويون المتأخرون**، 129 ـ 130.

(77) ميرات: Taj، ملف 74 أ. لاهور: SA، 33. وعن الجنود الهنود في الجيوش الغزنوية، انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 110؛ أيضاً قصائد شعر منسوبة إلى الغوري علاء الدين حسين، واردة في TN، ١، 346 (تر. 357).

بمحمود[78]. علينا أن نعترف بأن الأمير الغزنوي كان فريداً لا مثيل له. فقد كتب الجوزجاني يقول: «لقد أنعم العليُّ القدير القدرة على ذلك الحاكم، بالعديد من الخصال الحميدة والعلامات العجيبة والكرامات الخارقة، التي لم يُتَح لها قط أن اجتمعت، عدداً ورَوْعة، لدى أي سلطان آخر من بعده»[79]. غير أن هذا لم يجعل محموداً أقل جدارة بالتقليد في أي من الأحوال؛ فسلاطين دلهي لم يكن لديهم أي سَلَفٍ إيديولوجي أكثر تميزاً وألقاً[80].

(78) FS، 28 ـ 29، 30، 609 (تر. 66 ـ 67، 907). شمسي سراجي عفيف، **تاريخ ـ ي فيروز ـ شاهي**، تحقيق مولوي ولايات حسين (كالكوتا، 1888 ـ 1891)، 170.

(79) TN، ا، 230 (تر. 83 معدل)؛ قارن أيضاً، ا، 229 (تر. 77 ـ 80).

(80) نظامي، **بعض وجوه...**، 107 ـ 109، وعن **تاريخ... ومؤرخيها**، 107 ـ 109؛ سي. إ. بوزوورث «محمود الغزنوي في أعين المعاصرين وفي الآداب الفارسية اللاحقة»، **إيران** 4 (1966م)، 89 ـ 90، أعيدت طباعة المادة في كتابه **التاريخ الوسيط**. عزيز أحمد، **دراسات**، 79.

obeikandl.com

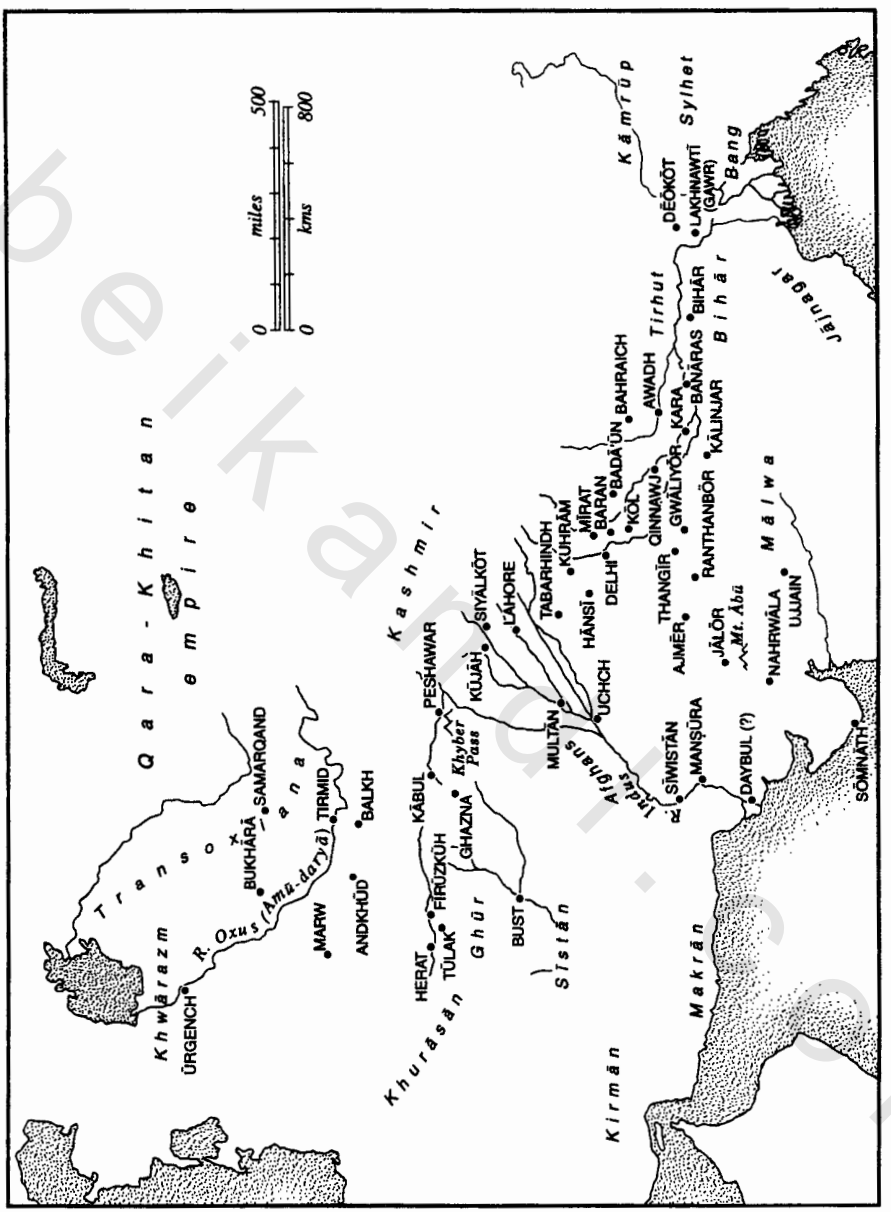

العالم الإسلامي الشرقي في 1206م

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

من إقليم غوري إلى سلطنة «دلهي»

الحكم الغوري

جاء الفاتحون ومعهم المؤسسات، التي دَرَجوا عليها في البلاد الغورية. لعل أبرز هذه المؤسسات هي **الإقطاع** (التي يتكرر الوقوع في خطأ اعتبارها نظيرةً لـ «المزرعة الخاصة» (الـFief، أو إقطاع التمليك الغربي)، ذلك التخصيص، القابل للنقل، للمورد بدلاً من الراتب مقابل الخدمة (العسكرية عادة)، الذي مع حلول سنة 1200م، كان قد عاش تاريخاً طويلاً في الأقاليم الإسلامية الشرقية، بعد أن اعتمده الغزنويون، وبلغ أرقى أشكال التعبير عنه في ظل حكم السلاجقة؛ وما أن قام الغوريون بجلب هذه المؤسسة إلى الهند، حتى باتت تشكل إحدى المؤسسات المميزة لسلطنة دلهي المبكرة. ثمة تطورات مختلفة جرت في إيران القرن الثاني عشر لطمس طابع نظام الإقطاع، ولإذابته في بوتقة نوع من الحكم الإداري[1].

(1) انظر كلود كاهن، «تطور الإقطاع بين القرنين [الميلاديين] التاسع والثالث عشر»، **حوليات، الاقتصادات، المجتمعات، الحضارات** 8 (1953)، 25 ـ 52، طُبعت ثانية في كتابه **«الشعوب الإسلامية في التاريخ الوسيط** (دمشق، 1977م)، 231 ـ 269؛ المؤلف نفسه، «إقطاع»، Enc. Isl²؛ آ. ك. س. لامبتون، «تأملات حول **الإقطاع**». في ج. مقدسي (محرراً)، **دراسات عربية وإسلامية تكريماً لـ آ. ر. جيب** (لايدن، 1965م)، 358 ـ 376؛ المصدر نفسه، **التغيير والاستمرارية في إيران العصر الوسيط** (لندن، 1988م)، 99 ـ 113. ثمة عَرْضٌ محكم في د. أو. مورغان، **إيران العصر الوسيط 1040 ـ 1797م** (لندن 1988م)، 37 ـ 40.

obeikandl.com

ذلك هو السبب الكامن في بقاء مصادرنا، بعيدةً عن التوفيق على صعيد المفردات، والمصطلحات التي تستخدمها للدلالة على المنح، والهبات التي يتكرم بها معز الدِّين على أتباعه. صحيح أن الجوزجاني يعتبر مَنْحَ آيبك مقاطعة في كوهرام للمرة الأولى إقطاعاً، إلاَّ أن فخر مدبر يتحدث عن الأمر على أنه «القيادة» (**سِبَهسالار**) هناك، ويقول حسن نظامي إنه مُنح ولاية (آيالات) كوهرام وسامانا[2]. ومع ذلك فإننا نظلُّ متأكدين من أن نظام الإقطاع، كان منتشراً في شمال الهند، لدى إيجاد سلطنة دلهي المستقلة. لقد أصبح إلتُتْمش صاحب إقطاع (مُقْطَعاً) باران في ظل آيبك؛ كما نجد عدداً من الإقطاعات في أوَذ قبل سنة 1200م، وفي البنغال الغربي، بعد تعرضه للفتح من قِبَل محمد بن بختيار. وكذلك فإن العبارة كانت مستخدمة، أيضاً للدلالة على حيازات الجنود العاديين، فابن الأثير يتحدث عن أمثال هؤلاء، ممن حصلوا على إقطاعات من آيبك سنة 602 هـ / 1206 م[3].

بمقدار ما نستطيع أن نعرف من المادة الهزيلة المذكورة في مصادرنا، فإن التسلسل الهرمي للرسميين الغوريين في فيروزكوه وغزنة، لم يختلف اختلافاً ملحوظاً، في خطوطه العريضة، عن ذلك الذي كان معتمداً، من قبل الأسر الحاكمة الإسلامية الشرقية الأخرى. كان **الوزير**، كما هي حاله في الأماكن الأخرى، يرأس الإدارة المدنية في غزنة؛ فضلاً عن أننا نقرأ عن كل من أمين الصندوق (**الخازن**)، ومراقب الأخلاق العامة في الأسواق (المحتسب). وكذلك فإن تعيين **القضاة** المسؤولين عن تطبيق الشريعة، الفقه الإسلامي، كان بيد السلطان. كانت للجيش محكمته الشرعية الخاصة، المسَيَّرة من قبل قاضي العسكر، رغم إمكان الدمج بين الوظيفتين[4]. من الممكن رسم خط فاصل

---

(2) Tāj، ملف 51 ب. TN، ا، 417 (تر. 515).

(3) IA، XII، 140 / 214. البنغال: TN، ا، 422، 423، 432، 433 (تر. 549 ـ 550) 572، 574، 575؛ المصدر السابق، ا، 443، وا، 19 (تر. 604، 745).

(4) المصدر السابق، ا، 367، 389، 405 (تر. 389، 430، 489).

شديد الوضوح، بين ما هو مدني وما هو عسكري. فمؤيد الملك السَجْزي، الذي كان وزيراً لمعز الدِّين أولاً، ويلدز من بعده في غزنة، تولى أيضاً منصب قيادة الجيش من حين لآخر، مثله مثل وزراء أوائل سلاطين دلهي؛ كما أننا نجد فصيلاً من الفرسان من تولَك في خدمة معز الدِّين، بقيادة قاضيه ضياء الدين[5]، أحد أقرباء الجوزجاني. فالخط الفاصل بين «رجال السيف»، و«رجال القلم» (أرباب تيغ قلم)، حسب التعبير الشائع في مصادرنا[6]، أو بين الجيش التركي، والجهاز البيروقراطي ((الطاجيك)) الفارسي، كان شبه مطموس، على الصعيد العملي في بعض الأحيان.

تبقى أكثر المناصب التي نقرأ عنها، مناصب عسكرية أساساً، مثل منصب قائد حرس السلطان، أو جلاديه (الساري جاندار)، وحامل الدرع (الساري سِلاحدار)، ومفتش الجيش (العارض)، الذي يبدو أنه كان يتولى مهام وزير الحرب، وياور الجيش (أمير حاجب)، المكلف غالباً بالقيادة الميدانية، وضابط العسكر (أمير داد)، الذي كان في غزنة، إذا صدقنا ابن الأثير، يتولى قيادة القلعة، وناظر اصطبلات السلطان (أمير آخور)، وهو منصب شغله قطب الدِّين آيبك، قبل توليته على الهند، وناظر الصيد (أمير شيكار)، وهو منصب ينطوي على بعض الأهمية في نظام كان فيه فن المطاردة، والقنص تسلية العاهل الرئيسية من جهة، وشكلاً أثيراً من أشكال التدريب العسكري للقوات من جهة ثانية[7].

---

(5) المصدر السابق، ا، 380 ـ 381، 419 (تر. 415، 534)، عن مؤيد الملك؛ ا، 398 ـ 399، 400 (تر. 457 ـ 458، 464)، عن قاضي تولاق. وعن وزير إلْتُمِش، جنيدي، انظر ص: 35 في هذا الكتاب.

(6) Tāj ملف 106 ب، 135 ب، 218 أ؛ وقارن مع AH، 138.

(7) عن هذه المناصب انظر عموماً هيربرت هورست: **إدارة الدولة لدى السلاجقة والخوارزمشاه (بالألمانية)** فيسبادن، 1964م)، في أماكن كثيرة. **أميري داد** في غزنه: IA، XII، 143 / 217، 145 / 221. آيبك **أميري آخور**: TN، ا، 303، 416 (تر. 248، 514). عن ولع السلطان الغوري غياث الدين محمد بن سام بالقَنْص، انظر المصدر السابق، ا، 364 ـ 365 (تر. 385ـ 387).

تبقى معلوماتنا عن إدارة فتوحات معز الدِّين، في شمال الهند مجتزأة ومتقطعة. من الواضح أن آيبك، كان لديه جهازه المماثل، لنظيره عند السلطان في غزنة، بما فيه **الساري جاندار وأمير شيكار**[8]؛ كما كان ثمة **عارض** في دلهي، لا نعرف عنه إلاَّ أنه رفض محمد بن بختيار، بوصفه غير جدير بالخدمة فدفع به، في غفلة منه، نحو منصب أكثر إبهاراً[9]. ويبدو أن ضابط العسكر (الأمير داد) كان، في مراكز معينة، متمتعاً بمكانة محورية؛ ولربما كان، كنظيره في غزنة، مسؤولاً عن قيادة القلعة. ولعل أسطع الأمثلة، هما ضابط مُلْتان، الذي قُتل غدراً في بداية حركة التمرد، التي وقعت سنة 601 هـ / 1204م، وعلي إسماعيل في دلهي، الذي كان وراء الانقلاب، الذي أوصل إلتُتْمش إلى السلطة في 607 هـ / 1210 ـ 1211 م[10].

ظهور سلطة إسلامية مستقلة في الهند

شكَّلت الأحداث التي أعقبت وفاة معز الدِّين، انفصالاً عن التطورات السابقة. حتى تلك اللحظة، لم تكن دلهي سوى إحدى القواعد الإسلامية المتقدمة، وبقيت لاهور، عاصمة إقليم معز الدِّين الهندي تماماً، كحالها بالنسبة إلى المناطق الغزنوية في الهند. كانت لاهور هذه، بنظر فخر مدبّر «مركز الإسلام في الهند» (**مركزي إسلامي هند**)؛ في حين كان حَسَن نظامي، لدى وصف كيفية تولية ابن إلتُتْمش البِكْر على المدينة سنة 614 هـ / 1217م، ما يزال قادراً على أن يلاحظ، ربما بشيء من الكآبة والحزن، كيف أن لاهور كانت «على الدوام مكان إقامة ملوك مشهورين، ومقر حكام أقوياء»[11]. فخلال عدد قليل من العقود، بعد إمساك إلتُتْمش بزمام السلطة في دلهي،

---

(8) المصدر السابق، ا، 443 (تر. 603).

(9) المصدر السابق، ا، 422 (تر. 549).

(10) Tāj ملف 188 أ، 189 أ. TN، ا، 444 (تر. 605).

(11) SA، Tāj30 .، ملف 259 أ؛ انظر أيضاً ملف 211 أ، **مستقر ـ ي سرير ـ ي سلاطين**.

وإيجاد السلطنة المستقلة، أدى التزايد المطرد للضغط المغولي، إلى جعل دلهي تبدو مقراً أكثر ملاءمة، لإقامة الحكام بالمقارنة مع لاهور، وهو أمر ما لبث المغول أنفسهم أن أكّدوه، حين قاموا بالإغارة على لاهور ونهبها سنة 639 هـ / 1241 م. ومع ذلك، فإن صيرورة دلهي عاصمة للهند الإسلامية، وعاصمة العواهل المستقلين، بقيت نوعاً من المصادفة التاريخية إلى حدود معينة، على الرغم من أن المصادر الرئيسية، لا تبدي أي قدر من الحرص على الاعتراف بذلك.

نظراً لصعوده اللاحق، من السهل نسيان أن قطب الدين آيبك لم يكن، لدى تنصيبه سنة 588 هـ / 1192م على كوهْرام، إلاّ واحداً من صغار مماليك معز الدِّين، خلافاً مثلاً، لحال تاج الدين يلدز الذي كان على ما يبدو، بين أبرزهم وأعلاهم مرتبة، ويقال إنه كان قائداً لهم (سَرْوَر)[12]. تبقى مرتبة آيبك المحدّدة بدقة في الفتوحات الغورية غامضة. فنحن نجده مشغولاً بتعيين الأمراء في مواقع حساسة، حيث يعين مملوكه الخاص إلتُتْمش، والياً على غواليور أولاً، وكل من باران وبداؤون بعد ذلك، كما ينصّب آيبك تمغاج على تبرهند، فضلاً عن تعيين ضُبّاط آخرين من الأتراك، مثل حَسَن أرنب على كالينجار، وحسام الدين أوغلبيك على كول[13]. أمّا القرصان الخَلْجي محمد بن بختيار فكان خادماً لآيبك في بداؤون، وحصل منه على نعمة الاحتفاظ، بجوقة (**نوبة**)

---

(12) TN، I، 411 (تر. 498)؛ قارن أيضاً IA، XII، 141 / 215. رواية لاحقة جعلته ابْنَ يلدز معز الدين المتَبَنَّى: TFS، 550. الاسمان كلاهما تركي؛ **يلدز أو يلدوز** التي تعني «نجماً» انظر السير جيرار كلوسون، **قاموس أصول الكلمات التركية فيما قبل القرن الثالث عشر** (أوكسفورد، 1972) 922 ـ 923؛ أما عن «**أي**» (قمر) و«**بغ**» (بك) (أمير) (سيد) فانظر جان سوفاجيه، «أسماء المماليك وألقابهم» JA 298 (1950)، 51 ـ 58 (هـ: 37).

(13) TN I. 443 (تر. 603 ـ 604). Tāj، ملف 138 أ، عن قُطْلُغ بك، و185 أ عن حسني أرنب. العنصر الثاني في الاسم الأخير الذي يُقْرأ على شكل «آرنال» عادة هو ر ن ب بوضوح في أفضل المخطوطات؛ انظر أيضاً هوديڤالا، **دراسات**، II، 53 ـ 54. اسم قُطْلُغ بك هو تو. **أوغول** (ابن)، (ولد) (كلاوسون، **قاموس أصول الكلمات**. . . ، 83 ـ 84)، + بَغْ (أمير).

موسيقية خارج مكان إقامته، جنباً إلى جنب مع طَبْلَة نَقْر وراية، إضافة إلى شهادة تؤكد، بل وتوسّع، حسب ما قاله حسن نظامي، المنطقة الخاضعة لسيطرته[14]. ومثل هذه الاهتمامات تشير إلى أنه كان يعترف، بسلطة آيبك بوصفه ممثلاً للسلطان.

ومع ذلك ثمة قادةٌ آخرون في الهند، كانوا مستقلين عن آيبك. علينا أن نتذكر، أن المراجع لا تحدثنا إلاّ عن العمليات، التي قادها معز الدِّين وآيبك بوصفه معاونه، إضافةً إلى نشاطات قوات الخَلْج في بيهار، والبنغال (كما لدى الجوزجاني وابن الأثير). أما عن الحملات الأخرى، التي تمت بقيادة ضباط غوريين آخرين، والتي جرت في تلك السنوات، فلا نعرف عنها إلاّ القليل. فبهاء الدِّين طُغرُل، وهو أحد كبار غلمان السلطان، كان قد حصل من معز الدِّين شخصياً على التفويض بالقيادة في ثنغير، وباحتلال قلعة غواليور الضخمة مما جعله شديد السخط على تسليم غواليور لآيبك، سنة 597 هـ / 1200 ـ 1201 م. إن نقوشه تشير أنه أعلن نفسه سلطاناً عند أحد المنعطفات، بعد تعرض معز الدِّين للاغتيال[15]. ونحن لا نعلم طبيعة علاقة آيبك بعز الدِّين علي في نغوار، أو بناصر الدِّين آتيمُر في أوتشش[16]. كما أن أحداً لا ينبئنا عما إذا كان نفوذه فيما قبل 602 هـ / 1206م، امتد إلى لاهور التي كانت تشكل، على ما يبدو، قيادة مشتركة مع مُلْتان[17]. من الممكن فعلاً، أنه كات متمتعاً بالسلطة

---

(14) Tāj، ملف TN186 .، ا، 423 ـ 427 (تر. 551 ـ 554، 560).

(15) مهردان وناتالي هـ شوكوهي، «هندسة عمارة بهاء الدين طغرل في إقليم بايانا، راجستان»، **مقارنه 4** (1987م)، 114 ـ 132 (خصوصاً 115)؛ انظر أيضاً مهرداد شوكوهي، **راجستان ا** (لندن، 1986م) 51 ـ 53؛ TN، ا، 421 ـ 422 (تر. 544 ـ 547)، عن حياته العملية السابقة. الاسم هو تو. **طغرل**، «طير كاسر»: كلاوسون، **قاموس**. . .، 472؛ TMENP، III، 346 ـ 348 (رقم: 1345).

(16) TN، ا 419 (تر. 531 ـ 532)، عن أيتَمُر: **آي** «قمر»، **وتَمُر** «حديد» انظر سوفاجية، «أسماء وألقاب. .» رقم 42. الإشارة إلى علي ناغاوري محذوفة من نص حبيبي (ا، 422)، غير أن جهازه يمكن مقارنته في ترجمة رافيرتي، 549.

(17) IA، XII، 136 / 209، 137 / 210؛ وقارن TN، ا، 398 (تر. 456). لا أستطيع أن أتفق مع إ. حبيب «تشكُّل»، 6، حول أن آيبك كان مسؤولاً عن لاهور قبل 1206 م.

والنفوذ في تلك البقاع، التي سبق لها أن شكلت جزءاً من الدولة الغزنوية، أيام فتوحاتها سنة 582 هـ / 1186 م.

بعبارة أخرى، لا تأتي الأدلة داعمةً لاعتقاد المؤرخين المُحدثين، بأن آيبك تُرك نائباً للسلطان في الأقاليم الهندية، عقب انتصار تَرَائن: صحيح أن ابن الأثير يطلق عليه هذه التسمية كما نعلم، غير أن ذلك لا يكون إلاّ في سياق الأحداث التي أعقبت اغتيال السلطان في الهند[18]. أمّا قبل ذلك، فإن المؤلف ذاته لا يعتبره إلاّ قائداً لقوات السلطان في الهند[19]. حتى في شهادة مدّاحه فخر مدبّر، (الذي كتب بعيد حصول آيبك على الشرف الملكي في لاهور)، فإن ترقيته إلى منصب نائب للسلطان، مسؤول عن كل الإقليم الممتد، «من بوّابات بيشاور إلى أقصى البقاع الهندية»، لم تتم إلاّ قبل بضعة أسابيع من مقتل معزّ الدِّين[20].

ومهما كان وضعه لدى تعرض السلطان للاغتيال، فإن آيبك استطاع أن ينتقل من دلهي إلى لاهور وأن يحتل مقره، بوصفه الحاكم هناك في الثامن عشر من ذي القعدة سنة 602 هـ / السادس والعشرين من حزيران / يونيو سنة 1206م. ويزعم الجوزجاني في أحد المواقع، أنه لم يفعل ما فعله، إلاّ بعد وصول شهادة صادرة عن السلطان الجديد، غياث الدِّين محمود بن محمد ابن شقيق معزّ الدِّين[21]. غير أن ذلك غير وارد تاريخياً. أمّا الاحتمال الأقوى، فهو أن آيبك قد تشجع على فعل ما فعله، جراء امتلاكه المفاجئ، لقوة بشرية ذات شأن، لأن وزير معزّ الدِّين، بادر في أعقاب عملية الاغتيال، إلى إعادة أولئك

(18) IA، XII، 164 / 248. حبيب الله، **أساس**، 63، يخطىء إذ يعتبر دلهي «عاصمة مملكة معز الدين الهندية».

(19) IA، XII، 136 / 209 **مقدّم عساكر الهند**.

(20) SA، 28.

(21) TN، I، 417 (تر. 521 ـ 525).

الحاصلين على إقطاعات من آيبك، والموجودين حالياً في جيش العاهل الراحل إلى الهند[22]. غير أن آيبك، على النقيض مما فعله يلدز في غزنة، حيث رفض الاعتراف بحقوق السلطان الغوري الجديد، حافظ على الخطبة باسم غياث الدِّين محمد، وصك نقوداً تحمل هذا الاسم، مما أدى إلى مكافأته سنة 605 هـ / 1208 ـ 1209م، بالمظلة الطقسية المعروفة باسم **(تشاتر)**، وبلقب السلطان كما زعم الزاعمون[23]. إن حسن نظامي يطلق عليه اسم السلطان، على الرغم من أن قطعاً نقدية تحمل اسمه متمتعاً بهذا اللقب، لم تصلنا قط[24].

نجح آيبك أيضاً، في ضمان الاعتراف بسلطته في البنغال، بعد تعرض محمد بن بختيار للاغتيال على يد ضابط من الخَلْج، يدعى علي مردان حوالى سنة 602 هـ / 1205ـ 1206 م. بادر أولاً إلى إرسال جيش من أوَذ، بقيادة قيمز رومي الذي تمكن من إلحاق الهزيمة بالحاكم الخَلْجي الجديد، محمد شيران وقتله، ثم قام بتنصيب خَلْجي آخر من معاوني محمد بن بختيار، يدعى حسام الدِّين عوض، حاكماً لديوكوت التي كانت، إحدى المدن الرئيسية الخاضعة للمسلمين. وفيما بعد، أنعم آيبك بعباءة شرف على علي مردان، الذي كان قد لاذ بلاهور، وأوفده شرقاً تابعاً له. ولدى وصوله إلى ديوكوت، جرى استقبال علي مردان من قبل عوض بخضوع، وما لبث علي هذا، أن ثبَّت أقدامه حاكماً، لمجمل المناطق الإسلامية كلها في البنغال[25]. وهكذا فإن آيبك، ظل خلال الجزء الأكبر من حكمه، ممثَّلاً في الشرق من قبل من عيّنه هو بالذات، وقد برز بوصفه الحاكم الأعلى في الهند الإسلامية.

---

(22) IA، XII، 140 / 214.

(23) TN، ا، IA373 .، XII، 165 / 249.

(24) Tāj، ملف 211 أ. ب. جاكسون، «قطب الدين آيباك» Enc.Isl².

(25) TN، ا، 432 ـ 433 (تر. 572 ـ 576، 577 ـ 578). اسم قائد آيبك هو تو **قيماز**، «ذلك الذي لا يدير ظهره»: سوفاجيه، «أسماء و. . .»، رقم: 150. وعن ديوكوت في 25° 11 ن. 88° 31 إ. انظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 209، وا، 57.

تمثل أخطر منافسي آيبك، بتاج الدين يلدز، الذي اشتبك معه في الصراع على غزنة، مبادراً، بادئ ذي بدء، إلى حفز أحد ضباط يلدز، على احتلال المكان سنة 603 هـ / 1207م، وناجحاً شخصياً في احتلال غزنة، لفترة وجيزة بعد سنتين. يشير وصف الجوزجاني لهذا الصراع، على أنه متجذر في الخلاف حول لاهور، إذا ادّعى يلدز لنفسه، حق حكم المناطق الشرقية من دولة معزّ الدِّين[26]. ويبدو أن التنافس بين الرجلين، هو الذي أبقى آيبك في لاهور خلال فترة حكمه، التي امتدت أربع سنوات، إما متأهباً لصد أي غزو قادم من البنجاب، أو متحيناً فرصة أخرى تمكّنه من احتلال غزنة. إن ندرة المؤشرات الدالة على وجود عمليات عسكرية، ضد دول هندوسية مستقلة خلال هذه الفترة، تشكل نقيضاً لافتاً للنظر، للحقبة التي كان فيها قائداً عسكرياً، تابعاً لمعزّ الدِّين ويعمل باسمه[27].

حين قضى آيبك في حادثة لعب بولو (**تشاوغان**) سنة 607 هـ / 1210 ـ 1211م، تمت دعوة مملوكه إلتُتْمش من بداؤون إلى دلهي، من قبل فريق في المدينة، تزعمه ضابط العسكر (**الأمير داد**) علي إسماعيل، فَنَصَّبَ المملوك نفسه حاكماً. ثمة قدر من الغموض يحيط بمنافسه آرام شاه، الذي يعتبره البعض ابناً لآيبك[28]. أمّا قيام إلتُتْمش باغتصاب السلطة في دلهي، فقد كان رد فعله عنيفاً على ما يبدو. أمّا قائمة مؤيديه، فقد شملت بعض الأمراء المعزيين، أي ضباط معزّ الدِّين السابقين، الذين غادروا دلهي للالتحاق بمعارضي إلتُتْمش الذي كان متمتعاً بالمقابل، بتأييد الأمراء القطبيين، خدم آيبك تحديداً. فَحسن نظامي الذي يتجاهل آرام شاه، ويعتبر الأمر كله مجرد انتفاضة، قامت بها ضد

---

(26) TN، ا، 417 (تر. 526)؛ ا، 412، 413 ـ 414، 417 (تر. 503، 506 ـ 508)، حول الصراع اللاحق على غزنة. وعن الحدث السابق، في 603 هـ / 1206 ـ 1207م، انظر IA، XII، 165 ـ 166 / 249 ـ 250. انظر، عموماً، جاكسون، «سقوط الأسرة الغورية الحاكمة».

(27) ب. هالاي، «سلطنة دلهي»، Enc.Isl, III, 269a جاكسون، «قطب الدين آيبك».

(28) المصدر السابق.

ولي نعمته إلتُتْمش، جماعةٌ من الأتراك العصاة، يضع **الساري جاندار** بركي* على رأس الحركة. لقد تقدم أولئك من لاهور إلى دلهي، حيث التقى بهم إلتُتْمش، وهزمهم في موقعة باغ جود (جنة الملح). يقال إن آرام شاه قد «استُشهد»؛ غير أن أحداً لم ينبئنا عما إذا كان سقط في أثناء الاشتباك، أم جرى إعدامه بعد الأسر[29].

في البداية، لم يكن شمس الدين إلتُتْمش[30]، إلاّ واحداً من عدد من الحكام المسلمين في شبه القارة، فضلاً عن أن موقعه كان شديد الهشاشة، حتى بعد الإطاحة بآرام شاه. أمّا في القرن التالي، فقد جاء من يتذكر، أنه اضطر لانتزاع مملكته الجديدة، من براثن أمراء كانوا يتمتعون بإقطاعات في «هندوستان»، حصلوا عليها من معزّ الدِّين[31]. فالجوزجاني يحدثنا عن حملات جرّدها إلتُتْمش، لإخضاع «الأقاليم البعيدة التي كانت تابعة لدلهي» **(أطراف ممالك مضافات حضرت دهلي)**، مشدِّداً على إبراز ذكر كل من بداؤون، وأوَذ وبَنَارِس، وسِوالِك بصورة استثنائية. وفي مكان آخر من كلامه عن فتوحات إلتُتْمش، يلمّح بإيجاز إلى احتلال بَنَارِس، وهرب قيمز الذي ربما كان الضابط السابق، لدى آيبك الذي مر ذكره معنا[32].

لم يكن إلتُتْمش قادراً على امتلاك أي قدر من الولاء، في الأماكن الأكثر

---

(29) المصدر السابق، ا، 418، يورد عبارة **آرام شاهرا قضاي ـ ي آجال دار راصد** فقط؛ B1 مخطوطة، ملف 168 ب، **آرام شاهرا**. . . شهيد كردند (تر. رافيرتي 530 أيضاً). حركة «التمرد» موصوفة في NT، ا، 444 (وعن الترجمة «التي شوهدارافيرتي، انظر ع. حبيب «تشكُّل»، 9 وهـ: 50)، وفي Tāj مف 219 ب ـ 224 أ. دَرَج المؤلفون الحديثون على جعل اسم **سارا ـ ي جاندار** «تركيّاً»، غير أن المخطوطة تورد كلمتي ي ر ك ي وت ي ر ك ي. ربما كان الاسم ذا علاقة بـ تو. **ببرك**، «ثابت»، «راسخ»؛ كلاوسون، **قاموس**. . . ، 361 ـ 362.

(30) قام سيمون ديغبي بتثبيت الصيغة الصحيحة لاسمه، «إلتُتْمِش أم إلْتُتْمِش؟ إعادة تدقيق اسم سلطان دلهي»، **إيران** 8 (1970م)، 57 ـ 64.

(31) TFS، 550.

(32) فتوحات: TN، ا، 444 ـ 445 (تر. 607 ـ 608). قيماز: ا، 452.

عمقاً من الساحة. فلدى ورود أنباء موت آيبك سارع عامله في البنغال، علي مردان إلى تولي منصب السيادة، متخذاً لنفسه لقب السلطان علاء الدِّين[33]. وفي السند بادر مملوك سابق لمعزّ الدِّين، متمتع بإقطاع أوتشش منذ سنة 601 هـ / 1204م، إلى إعلان استقلاله. وفي المُلتان بالسند، عمد مملوك يدعى ناصر الدين قوباتشا إلى وضع اليد على المدينة. كانت لاهور موضوع نزاع بين قوباتشا ويلدز[34]. تمكن إلتُتْمش من تأمين موقعه في البداية، عبر الاعتراف بسيادة يلدز[34]، حاصلاً بالمقابل على رمزي السلطة الملكية، المتمثلين بتشاتر **ودورباش** أو صولجان احتفالي. فالنقش الأول الذي يأتي على ذكره في جمادي الأولى من سنة 608 هـ / تشرين الأول/ أكتوبر 1211م، لا يتحدث عنه بوصفه سلطاناً، بل كملك فقط إذ يقول «الملك المعظم»[35]. لا يسعنا إلاّ أن نُصاب بالدهشة، مرة أخرى، إزاء الغياب النسبي للحملات ضد القوى الهندوسية. فخلال السنوات الست عشرة الأولى من حكمه، لم يعرف عن إلتُتْمش أنه جرد إلاّ حملة واحدة، وقد كانت ضد حاكم جالور التشاواني، وصفها حسن نظامي، ولكنها غير مؤرخة؛ ربما حدثت بُعَيْد إخماد محاولة آرام شاه، الرامية إلى السيطرة على دلهي. أمّا إرجاء أية عمليات كبيرة أخرى إلى حين شَنّ الهجمات على رنثانبور (623 هـ / 1226م)، وماندور (624 هـ / 1227م)، فقد كان يعود بوضوح إلى مشاغل ملحة، في أماكن أخرى.

جاءت فرصة إلتُتْمش الأولى سنة 612 هـ / 1215 ـ 1216م، حين تمكن

---

(33) المصدر السابق، ا، 434 (تر. 578). م. نظام الدين، «قطعة نقدية بارزة لعلي ماردان خلجي ـ حاكم إسلامي وسيط للبنغال»، JNSI, 49 (1987م)، 50 ـ 55.

(34) TN، ا، 418، 419 (تر. 530، 532)؛ وعن يلدز في لاهور، انظر ا، 444 (تر. 607). يعود تاريخ تعيين قوباتشا والياً على أوتشش إلى تاريخ موت مُقْطَعها أيتَمُر، في معركة آن خود. اسمه مشتق من تو. **قوبا** «شاحب» «أصفر»: كلاوسون، **قاموس**. . . ، 581.

(35) م. م. شعيب «نقوش من بالوال»، EIM (1911 ـ 1912)، 2 ـ 3؛ RCEA، X القاهرة، 1939م)، 72 ـ 73 (رقم: 3703). TN، ا، 444 (تر. 607).

الخوارزم شاه من طرد يلدز من غزنة، فلاذ الأخير بالبنجاب. وبعد انتزاع لاهور من قوباتشا اندفع إلى إقليم دلهي ساعياً إلى إثبات، أنه صاحب حقوق على تابعه إلتُتْمش، رافعاً مطالب لا يمكن لأي حاكم سيد أن يتنازل، كما يقول حسن نظامي، إلى مستوى الرد عليها. وما لبث إلتُتْمش أن لاقاه في الثالث من شوال 612 هـ / الخامس والعشرين من كانون الثاني / يناير 1216م، في ساحة قتال تارائين التاريخية القريبة من سامانا: تعرض يلدز للهزيمة، ووقع في الأسر وتم سجنه في بداؤون حيث أُعدم فيما بعد[36]. غير أن استئصال شأفة يلدز، لم يفض مباشرة، وإن وفّر الاستقلال لحاكم دلهي، عن أية زيادة ذات شأن في مساحة ولايته. كان قوباتشا، الذي باتت إمبراطوريته ممتدة من بحر العرب، ودلتا السند إلى نانداتا، وبيشاور في الشمال البعيد، قد أعاد احتلال لاهور. لقد نجح إلتُتْمش في احتلال عاصمة آيبك القديمة، أواخر سنة 613 هـ / شتاء 1216 ـ 1217م، وقدمها هدية لنجله البكر ناصر الدِّين محمود؛ ولكنها ظلت [المدينة] تنتقل من يد إلى أخرىٰ منذ ذلك الحين، فيما بقي الحاكمان يتصارعان على امتلاك كل من تبرهند، وكهرام، وسارساتي في البنجاب الشرقي[37]. أمّا عدم افتقار قوباتشا إلى الأنصار في منطقة دلهي، فواضح من الكلام الدائر، عن بهاء الدِّين علي بن أحمد الجامجي في قاموس عوفي للأعلام، الذي يحمل عنوان **لُباب الألباب**. والجامجي هذا الذي كان إلتُتْمش قد أمَّره على بهراتش، ما لبث أن أعلن ولاءه لقوباتشا، وقام في 617 هـ / 1120م، بعرض ولائه، وبالتعبير عن استعداده للخضوع في رسالة بعث

---

(36) IA، XII، 203 / 311 ـ TN312 .، ا، 413، 445 (تر. 505، 607). Tāj ملف 238 ب ـ 247 ب، مع التاريخ الدقيق.

(37) TN، ا، 419، 444 (تر. 534، 607). Tāj ملف 253 أ ـ 259 ب، عن احتلال إلتُتْمش الأول للاهور. إلاّ أنها كانت بيد ابن قوباتشا لدى تقدم الخوارزميين، نانداتا: نسوي، **سيرة السلطان جلال الدين**، تحقيق أو. هوداس (باريس، 1891)، 86، وتر. ز. م. بونييانوف، (إلى الروسية) (باكو، 1973م)، 131. بيشاور: TJG، ا، 61 (تر. بويل، 328).

بها إلى أوتشش، ولدى الكتابة في تلك اللحظة، ما كان عوفي مطلعاً على العاقبة (مثلنا نحن للأسف)، على الرغم من أنه يعبر عن الأمل، في أن يتمكن سيده سريعاً، من الإمساك بزمام السيطرة على هندوستان كلها[38]. ويشير الحادث إلى أن قوباتشا، ربما كان يشكل تهديداً كبيراً لحاكم دلهي، عشية الاجتياح الخوارزمي.

ظلَّ آيبك وإلتتمش بوصفهما مغتصبين للسلطة، بحاجة إلى المشروعية، وقد حصلا عليها على أحد المستويات، من مدّاحيهما. فالمراجع الخاصة بتلك الحقبة، باستثناء مؤلفات ابن الأثير، خارجة من قلب الهند. وتبدأ أيضاً من الفترة التي أعقبت موت معزّ الدِّين، فضلاً عن أن رواياتها، تكاد أن توحي بوجود نوع من الاستمرارية، بين السيدين الجديدين، والأسرة الحاكمة الغورية. وهكذا فإن فخر مدبّر ـ وقد كتب، كما يذكر القارئ، في بلاط آيبك بُعَيْد سنة 602 هـ / 1206م ـ يقدم آيبك متولياً شؤون الحكم في لاهور في تلك السنة، بفضل المرتبة التي يشغلها، نائباً لمعزّ الدِّين (قائم مقام ولي عهد) في جميع الأقاليم الهندية الخاضعة لسيطرته[39]. أمّا الجوزجاني الذي ألف كتابه الذي يحمل عنوان، **طبقات ناصري** في دلهي بعد أن باتت السلطنة موجودة منذ خمسة عقود من الزمن، فقد سعى بوضوح إلى تزيين وتمويه صراعات إلتُتْمش مع القادة الغوريين السابقين الآخرين، وحاول تصويره مع أسرته الحاكمة، كما لو كان خَلَفاً حقيقياً ووريثاً شرعياً لمعزّ الدِّين في الهند. وبالتالي فإن سلطان دلهي الحالي ناصر الدِّين محمود شاه بن إلتُتْمش، يغدو في مقدمة فصله عن الغوريين، «وريث تلك السلطنة، والخَلَف المعين أصولاً (قائم مأمور) لتولي

(38) عوفي، **لباب الألباب**. تحقيق إ. ج. براون وم. م. قزويني (لايدن ولندن، 1903 ـ 1906م جزءان)، 1، 115. خلاصة حياة جاماجي العملية في نظام الدين، **مقدمة**، مقدمة، 13 ـ 14، ليس صحيحة.

(39) SA، 28؛ قارن أيضاً 33، **في ولي عهد**.

شؤون المملكة»[40]. وحقيقة أن هذا ليس مجازاً كلامياً مجرداً تتضح مما يقوله الجوزجاني لاحقاً. لقد كان رد معزّ الدِّين على رجلٍ في البلاط عبَّر عن الحزن والأسى، لافتقار السلطان إلى ولد يرث ملكه على النحو التالي:

> «لغيري من السلاطين ولد أو اثنان. أمّا أنا فعندي بضعة آلاف من الأبناء ـ من الغلمان الأتراك ـ الذين سيرثون مملكتي؛ فمن بعدي سوف يحافظون على الخُطْبة في إمبراطوريتي باسمي». وقد صَدَقَتْ نبوءة العاهل الغازي. فمنذ أيامه وحتى لحظة كتابة هذه السطور حرص (أولئك الغلمان)، وما يزالون، على الحفاظ على إمبراطورية هندوستان كلها...»[41].

وعلى الرغم من أن بعض المعلقين الحديثين، تبنوا هذا المنظور في رؤية الأحداث[42]، فإنه في حقيقة الأمر، مثير للشك وتفوح منه رائحة التسويغ الملفَّق لاحقاً؛ فمن يرث الآخر في الشريعة الإسلامية السيد للعبد، وليس العبد للسيد[43]. غير أن من الواضح، أن سيادة أوائل سلاطين دلهي كانت، بنظر بعض المثقفين المسلمين، بحاجة إلى مباركة معزّ الدِّين وتصديقه.

---

(40) TN، ا، 323 (تر. 310 معدل). بيتر هاردي، «القوة والعنف في كتابه التاريخ والحكم الهندي ـ الفارسي في جنوب آسيا العصر الوسيط»، في ملتون إسرائيل ون. ك. واغل (محررين)، **المجتمع والثقافة الإسلاميان. مقالات تكريماً لعزيز أحمد** (دلهي، 1983)، 180 ـ 181.

(41) TN، ا، 410 ـ 411 (تر. 497 ـ 498 معدل)؛ قارن ا، 415 (تر. 508 ـ 512)، حيث السلاطين المغزيون أي آيبك ويلدز ومعاصروهما يُعْتَبَرون ورثة السلطان الراحل وا، 393 (تر. 438)، حيث يقال إن معز الدين ائتمن يلدزاً على غزنه.

(42) عزيز أحمد، **التاريخ السياسي**، 99؛ انظر أيضاً 6، 84، 97، 118، 146، 149 (رغم أنه في 13 يكون مستعداً للنظر في احتمال كون ممتلكات معز الدين مغتصبة).

(43) باتريشيا كرون، **القانون الروماني والإقليمي والإسلامي** (كامبردج، 1987م)، 36 ـ 38. ب. ج. فوران، «علاقة المملوك والمولى بالسيد أو ولي النعمة في الإسلام الوسيط»، **أنترناشيونال جورنال أوف ميدل إيست ستديز** 2 (1971م)، 61.

الغزوات الخوارزمية والمغولية

في سنوات إلتُتْمش الأولى، لم يكن ثمة ما يضمن حماية الأقاليم الغورية السابقة، في السند والبنجاب من تقاسم مصير المناطق، الواقعة خلف الأندوس، فالذوبان في بوتقة الإمبراطورية الخوارزمية. ففي أعقاب استيلائه على غزنة، بادر الخوارزم شاه علاء الدِّين محمد، إلى استحداث إقطاعة واسعة، ممتدة إلى الأندوس لابنه جلال الدِّين مِنْغبارني. وذات مرة تمكنت قواته من انتزاع بيشاور من يد قوبتشا[44]. قد نجد لأي مراقب عابر عذراً، إذا ما افترض أن القادة العسكريين الغوريين السابقين، كانوا محكومين بالمثل بالتعرض للنسيان السياسي. فمن حُسْن حظ سلطنة دلهي الناشئة، كما من حسن حظ جملة القوى الأخرى، التي ورثت العباءة الغورية في شمال الهند، أن الخوارزميين حين ظهروا على المسرح السياسي في البنجاب، لم يكونوا غزاة فاتحين، مدعومين بموارد إمبراطورية آسيا الوسطى الواسعة، بل هاربين مشردين. وفي أوج قوّته تصادم الخوارزم شاه مع جيرانه الأقوياء الجبابرة، المغول تحت قيادة جنكيزخان، الذي تمخضت حملته الكبرى نحو الغرب، خلال الفترة الممتدة من 615 هـ / 1218م، إلى 622 هـ / 1225م، عن تدمير الكيان السياسي الخوارزمي، إضافة إلى تمزيق إيران الشرقية أشلاء. مات محمد حزناً وأسى على شاطئ بحر قزوين في 618 هـ / 1221م[45]. ويبدو أن أناساً دأبوا، في المراحل الأولى من الأزمة، على عرض الهند بوصفها ملاذاً آمناً للأسرة الحاكمة، ربما لأن حكامها لم يكونوا جديرين بالمقاومة، بنظر أولئك الناس[46]. وبالتالي فقد كان من دخل الهند، في أعقاب هزيمة ساحقة

---

(44) ب. جاكسون، «جلال الدين والمغول والفتح الخوارزمي للبنجاب والسند»، **إيران** 28 (1990م)، 48.

(45) بارتولد، **تركستان**، 393 ـ 439، 446 وبعدها. ج. آ. بويل، «التاريخ السياسي والعائلي للإيلخانيين»، في بويل (محرراً)، **تاريخ إيران ـ كامبردج**، ٧، 303 ـ 317.

(46) انظر، مثلاً، النصيحة التي تلقاها جلال الدين في الهند من أحد معاونيه، كما أوردها **نسوي**، 91 (تر. بونيياتوف، 136).

على يد جنكيزخان، على ضفاف الأندوس في رجب 618 هـ / تشرين الثاني نوفمبر 1221م، واحترف الغزو الذي كان سيدوم حوالى ثلاث سنوات في شمال الهند، هو ابن الشاه وخليفته الفعلي، جلال الدين.

مما يدعو للأسف أن الجوزجاني، لا يكاد يقول شيئاً ذا بال عن الغزو الخوارزمي للبنجاب، ربما لأن الحدث لم يعكس أي فضل لإلتُتْمش، الذي أخفق في التعاون مع أخ مسلم، ضد المغول الوثنيين. وكذلك فإن منابع معلومات ابن الأثير عن الهند، تتعرض فجأة للجفاف بعد سقوط يلدز. أما حياة المنفى، التي يعيشها جلال الدِّين في البنجاب والسند، فيتم تجاوزها بسطرين اثنين فقط؛ فيبقى الرجل غائباً عن الأنظار، إلى أن يخرج من قلب صحراء مكران سنة 620 هـ / 1223 م[48]. وبالتالي فنحن محظوظون لأن كلاً من النَّسَوي، كاتب سيرة حياة الأمير في 639 هـ / 1242م، والكاتب اللاحق الجويني، الذي يعود تاريخه عن المغول إلى حوالى سنة 658 هـ / 1260م، يقدمان فَيْضاً (وإن كان متناقضاً أحياناً) من التفاصيل، التي تمكِّننا من إعادة هيكلة الأحداث، وتركيبها بصورة تجريبية ومؤقتة[49]. ما لبث جلال الدين، أن حصل على الدعم من المهاجرين الجدد القادمين من إيران، فبادر إلى شن الحرب ضد قوباتشا، الذي تعرض للهزيمة في مكان قريب من أوتشش، وأُجبر على أن يصبح تابعاً للخوارزميين؛ أمّا ابنه الذي كان قد ثار عليه في لاهور، فقد أذعن بالمثل وأصبح مولى لجلال الدين هناك. وفيما بعد أقدم جلال الدِّين، حين رفض قوباتشا مساعدته ضد المغول الذين كانوا يطاردونه، على نهب وإتلاف منطقة أوتشش، قبل التوغل جنوباً إلى مناطق الوادي الأسفل للأندوس، حيث حصل على ولاء سيويستان (سهوان الحالية)، واحتل الدَيْبُل، وأطلق حملة سلب ونهب، باتجاه

---

(47) TJG، II، 106 (تر. بويل، IA48(376)، XII، 276 / 425 ـ 426.

(49) عما يتبع، انظر جاكسون، «جلال الدين»، حيث يناقش أيضاً المصادر، بما فيها قطعة كبيرة مجهولة المؤلف (نادراً ما استعملت قبل الآن)، مخطوطة بودليان، ث. هايد 31. سيرة حياة موجزة لجلال الدين في ج. آ. بويل، «جلال الدين خوارزم شاه». Enc. Isl².

نهروالا في گوجرات. وعند هذا المنعطف، وردَتْه تقارير تتحدث عن أن رعايا أخيه الباقي على قيد الحياة في إيران، كانوا ينتظرون عودته بشوق كبير، فاختار أن يعود إلى إيران الغربية، عبر صحراء مكران أواخر سنة 620 هـ / 1223م، حالماً بإعادة بناء إمبراطورية والده. غير أنه ما لبث أن قُتل في أذربيجان، لدى فراره مرة أخرى من المغول سنة 628 هـ / 1231 م.

تحتَّم انجرار سلطان دلهي، إلى غمرة الصراعات الدائرة بين جيرانه، وبين الخوارزميين. فحين وصل جلال الدِّين، في إحدى المراحل، إلى مسافة بضعة أيام عن دلهي، طالباً ملجأ وعارضاً تحالفاً ضد المغول، أَقْدَم إلتُتْمش - حرصاً منه بطبيعة الحال، على عدم تعريض استقلاله الحديث للخطر، عن طريق تمكين الخوارزم شاه، من تثبيت أقدامه في مكان قريب - على الإيعاز بقتل المبعوث، وعلى تقديم إجابة مراوغة. وبعد ذلك قام إلتُتْمش بإرسال قوات، لمساعدة قوباتشا قبل معركة أوتشش، وما لبث، لاحقاً، أن تحرك ضد جلال الدِّين شخصياً: وفي تلك الأثناء، تصادمت طلائع القوات من الطرفين، غير أن السلطانين تبادلا الرسائل الودية، وانسحبا من المعركة. يبقى سؤال ما إذا كان إلتُتْمش على الأقل جاداً مدعاةً للشك. ولعل أحد الأسباب الكامنة وراء رحيل الخوارزم شاه عن الهند، برأي النسوي، كان متمثلاً بالأنباء التي تحدثت عن أن تحالفاً ضده كان قد تشكل من كل من إلتُتْمش، وقوباتشا مع عدد من الزعماء الهندوس (من **الرايات والتاككيرات**)، الذين كانوا قد نجحوا في احتلال ضفاف نهر جاجنير، (ربما نهر سوتلج) من أجل قطع طريق الانسحاب عليه.

أما المغول الذين طاردوا الخوارزم شاه إلى داخل الهند، فلا يبدو أنهم قاموا باجتياح أراضي إلتُتْمش[50]. فجنكيزخان، الذي راودته فكرة العودة إلى

(50) العمليات المغولية في الهند بين سنتي 618 - 621 هـ / 1222 - 1224م يستعرضها جاكسون في «جلال الدين»، 47 - 48، 50؛ انظر أيضاً بول باتشنيفسكي، **جنكيزخان: حياته وتراثه**، تر. ت. ن. =

منغوليا عبر طريق أكثر مباشرة، ماراً بسفوح الهيمالايا، أوفد مبعوثين إلى السلطان، راجياً الإذن بعبور المناطق الخاضعة له. لا نعلم شيئاً عن مصير هذه البعثة ـ لأن جنكيزخان تخلى ببساطة، عن خطته في مواجهة النُّذُر غير المبشرة بالخير. غير أن الجويني يزعم، أن جنكيزخان قطع عدداً غير قليل من الأشواط، قبل أن يقرر العودة القهقهرى، لأن السبل كانت مقطوعة، وعندئذ فقط انسحب عبر بيشاور[51]. قام قائده دوربي، بنهب نانداانا التي كانت تحت حكم أحد معاوني جلال الدِّين، ثم بادر في شتاء 621 هـ / 1224م، إلى فرض الحصار على مُلْتان، التي قاد فيها قوباتشا نفسه مقاومة عنيفة. غير أن هذا الأخير ما لبث، بعد جهد دام، برأي الجوزجاني، أربعين يوماً (أو ثلاثة أشهر إذا قبلنا بشهادة مرجع آخر)، أن تخلى عن المحاولة، نظراً لحلول فصل الأجواء الحارة. أمّا جحافل المغول، فقد نهبت وخرّبت إقليمي مُلْتان، ولاهور في أثناء انسحابها. وكان لا بد من انقضاء ما لا يقل عن عقدين من الزمن، قبل أن تتمكن هذه الجحافل من دخول سلطنة دلهي.

لم يكن رحيل جلال الدين عن الهند، ليعني نهاية الاحتلال الخوارزمي. فمعاونه جاهان بهلوان أوزبَغْ ـ بك بات مفوضاً بفتوحات الخوارزم شاه الهندية، في حين تم منح تلك الأجزاء، التي لم تتعرض بعد للنهب من قبل المغول من مدينتي غور، وغزنة لسيف الدين حسن قرلق، الملقب بوفا مِلك[52]. غير أن النفوذ الخوارزمي، المتبقي في المناطق الواقعة إلى الغرب من الإندوس، بدأ يتداعى ويتلاشى، لأن الضغوط المغولية بقيت مستمرة، بفعل القوات التي

= هاينينغ (أوكسفورد، 1991م)، 134. عن اسم الجنرال («تورتي» عند رافيرتي)، انظر ج. آ. بويل، «القادة المغول في أفغانستان والهند وفقاً لكتاب **طبقات ـ ي ناصر ـ ي** للجوزجاني، IS 2 (1963م)، 238 ـ 239.

(51) TN، II، 126 ـ 127، 146 (تر. 1045 ـ 1047، 1081 ـ 1084). TJG، I، 109 ـ 110 (تر. بويل، 137 ـ 139).

(52) نسوي، 92 (تر. بونيياتوف، 136). سيفي، **تاريخ ـ نامه ـ ي هرات** (حوالى 1322م)، تحقيق م. ز. الصديقي (كالكوتا، 1944)، 198، يقول إن حكم «ملك وفاء» كان مذكوراً لاحقاً في منطقة ماستونغ.

تركها جنكيزخان وراءه. ويبدو أن غور، ما لبثت أن سقطت أخيراً في 623 هـ / 1226م، وفي السنة نفسها اضطر قوباتشا لصد عصابة من عشائر الخَلْج، التي كانت في خدمة الخوارزم شاه من قبْل، والتي تمركزت في السند الأسفل ـ ربما تحت القيادة الاسمية لحسن قرلُق[53].

قيام إلتُتْمش باجتياح الهند الإسلامية

تشير الاحتمالات كلها، إلى أن إمبراطورية قوباتشا في وادي الأندوس، كانت قد تعرضت لقدر خطير من الضعف قبل هذا التدخل الغازي، لأنها كانت قد حملت أعباء كل من هجمات جلال الدِّين من جهة، وأعمال المغول التخريبية المدمرة من جهة ثانية. ومع ذلك فإنها كانت، هذه المرة، مرشَّحةً لتلقّي ضربة الرحمة القاضية، الآتية لا من الزاوية الشمالية ـ الغربية بل من دلهي. فكل من حسن نظامي، متحدثاً في سياق حملة قوات دلهي ضد لاهور في 613 هـ / 1216 ـ 1217م، وعوفي، عارضاً عملية الإطاحة بقوباتشا بعد اثني عشر سنة، يلمّحان إلى جملة من «الضمانات» و«الوعود» و«المعاهدات»، التي أهملها قوباتشا مستخفاً بها[54]. وهذا يوحي، بأن التحالف مع إلتُتْمش كان له ثمنه. من الممكن أن يكون قوباتشا، سعياً منه لتأمين المساعدة من دلهي ضد الخوارزميين ـ وربما ضد يلدز أيضاً في تاريخ سابق ـ إمّا قد ألمح إلى نوع من الاعتراف بسيادة إلتُتْمش، أو قطع وعداً بالتخلي عن بعض الأراضي لصالح دلهي، وأن يكون إخفاقه في الوفاء بالتزاماته، قد شكل سبباً للحرب. ومن المحتمل كثيراً، أن يكون هناك نوع من الارتباط مع حَمْلة تشنها قوات إلتُتْمش، يشير إليها الجوزجاني إشارة غامضة، قبل بضع سنوات من الاجتياح النهائي للسند، وتتمخض، على ما

(53) TN، ا، 420 (تر. 539 ـ 541).

(54) Tāj، ملف 251 ب. JH، ا، 10 وBL مخطوطة، تسلسل 2676، ملف 232 أ.

يبدو، عن أسر قوباتشا واحتلال مقاطعة غانجروت (أو وانجروت) في إقليم مُلْتان[55].

ومهما يكن من أمر، فإن قوباتشا كان أخيراً، مع حلول سنة 625 هـ / 1228م، قد فقد المقاطعات المتنازع عليها، مثل تبرهند وكوهرام وسارساتي، التي كانت في ذلك الوقت بأيدي ضباط عينهم خَصْمُه. وكذلك فإن لاهور كانت قد خرجت من يده، لأن مُقْطَع إلتُتْمش هناك، ناصر الدِّين أيتمُر البهائي، كان الآن متولياً قيادة عملية استسلام مُلْتان[56]. ثمة جيش آخر ما لبث أن ظهر أمام أوتشش، حيث سرعان ما التحق به إلتُتْمش شخصياً: غير أن المدينة استسلمت أواخر جمادى الأولى 625 هـ أيار / مايو 1228 م. وفي هذه الأثناء لاذ قوباتشا بالفرار، إلى جزيرة بهكّر الحصينة، مطارداً من قبل قوة يقودها وزير إلتُتْمش، نظام الملك جنيدي، ثم بادر ليلة التاسع عشر من جمادي الثانية / السادس والعشرين من أيار / مايو، إلى إلقاء نفسه في الإندوس، لكي لا يقع حياً في الأسر. أمّا من الدَيبُل فقد تلقى إلتُتْمش، ولاء أميرها تشانيسر مما أدى إلى الاعتراف بسيادته وصولاً إلى بحر العرب[57].

---

(55) TN، II، 4 (تر. 723). مع العام المستحيل 628 هـ ـ ربما خطأ بدلاً من 816 أو 823، نظراً لتشابه **ثمان** و**ثلاث** بالكتابة العربية. ترد في النص المطبوع عبارة ون ج ر وت، واعتبر رافيرتي المكان هو بجنوت (فيجنوت)، على أطراف صحراء بيكانر وبعيداً جنوباً عن أوتشتش؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 197 أ، ومخطوطة IOL 3745، ملف 268 ب، توردان ك ن ج روت. غانجروت مذكورة في القرن الرابع عشر كبلدة (قصَبة) في إقليم مُلْتان: IM، 77، 93. وعن إشارة موجزة إلى هزيمة قوباتشا وأسْره (وبالتالي ليس، بوضوح، حملة 625 هـ / 1228م)، انظر TN، I، 452 ومخطوطة BL ملف 180 أ. ووفقاً لإشارة تنطوي دون شك على نوع من المفارقة التاريخية من جانب نسوي، 90 (تر. 134)، فإن سنان الدين تشانيسار، حاكم دايبل السومري، كان تابعاً لإلتُتْمِش لدى تعرضها للاحتلال من قبل قوات جلال الدين؛ وعن اسمه انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 214 ـ 215.

(56) TN، I، 446، وII، 4، 7، 9 (تر. 613، 723، 728، 731). وعن أيتَمُر قارن تهجئة ي تم ر في JH، I، 13؛ أيضاً ص: 27، هـ: 16 من هذا الكتاب.

(57) عن الهجوم على قوباتشا، انظر حبيب الله، **أسس**، 95 ـ 96. وسنة 624 هـ لدى الجوزجاني تاريخاً لهذه الأحداث ليس إلاّ 625 هـ، كما هو واضح من النص ومن JH: انظر هو ديڤالا، **دراسات**، I، 205 ـ Tāj206 . (في ED، II، 242)، الذي يضعها في 624 هـ، مخطئ بالتالي. وشهد الجوزجاني =

تمخض اجتياح السند وفتحه عن إطلاق يد إلتُتْمش، ليصبح قادراً على التحرك بحرِّيَّة، ضد ورثة جلال الدِّين في الجهات الشمالية الغربية من البلاد. ففي سنة 627 هـ / 1229 ـ 1230م، انقضَّت قوات دلهي على أوزبغ ـ بك، الذي فر إلى سيده في العراق، مما أدى إلى استسلام حسن قرلُق، بين مجموعة من القادة المحليين الآخرين، للسلطان[58]. إن مساحة المناطق التي كانت خاضعة لهؤلاء القادة، ليست معروفةً بدقة. غير أن الأدلة النمّية (المسكوكات) تشير إلى أن أوزبغ ـ بك، حكم لبعض الوقت في بنبان التي خَلَفَه عليها قرلُق. ومن المؤكد أن أمارته كانت أيضاً، تضم كلاً من ناندانا وكوجاه (گوجرات)، وسودرا وسيالكوت، الواقعة جميعاً في البقعة التي عُرفت على أنها، كانت مسرحاً لعمليات جلال الدِّين، والتي أوردها الجوزجاني في قائمة فتوحات إلتُتْمش[59]. وفيما بعد نجد قرلُق حاكماً في غرنة وبنبان وكُرّمان. فالنسوي يتحدث عن سلطان دلهي، عشية انقضاضه على أوزبغ ـ بك، بوصفه سيداً للمنطقة «الممتدة حتى مشارف بوابات كشمير»[60]، موحياً بأن الحدود كانت واصلة إلى الجهيلام. أمّا حملة إلتُتْمش الفاشلة الأخيرة، التي عاد منها محتضراً في 633 هـ / 1235 ـ 1236م، فقد كانت موجهة إلى بنبان، وربما كانت، حسب أقوى الاحتمالات، هادفة إلى خلع قرلُق الذي كان مؤخراً قد والى المغول[61].

= لسقوط أوتشش يتأرجح بين جمادى الأولى وجمادى الثانية، غير أنني اعتمدت تاريخ 27 جمادى الأولى / الرابع من أيار / مايو 1228م، لأن إلتُتْمِش وصل إلى مشارف المدينة في الأول من ربيع الأول ودام الحصار شهرين و27 يوماً: TN، ١، 420، 446 (تر. 544، 612)؛ JH، ١، 10. عوفي، المصدر نفسه، 10 ـ 22، يقدم رواية أكثر تفصيلاً لقصة الحملة. عن تشانيسات انظر هـ. 55 أعلاه.

(58) نسوي، 92، 217 (تر. 136، 267). وعما يتبع، انظر جاكسون. «جلال الدين»، 51.

(59) TN، ١، 452، تصحيحاً عن مخطوطة BL، ملف 180 أ (ك و ج ر ا ت)، ومخطوطة IOL، ملف 243 أ (ك ج ر ا ت). بالطبع لم يدم الاحتلال المغولي لناندانا طويلاً.

(60) نسوي، 217، **إلى ما يلي درب كشمير** (تر. 267).

(61) TN، ١، 449 (تر. 623؛ وقارن أيضاً ١، 454 ـ 455 (تر. 631). وعن حكم حسن قرلق في =

على الرغم من أن إلتُتْمش، بدا شديد الاهتمام بالتخوم الغربية، فإنه لم ينس البنغال. فالحكم المتعطش للدماء لعلي مردان، الذي ظهرت عليه علامات جنون متزايدة، انتهى باغتياله حوالى سنة 609 هـ / 1212 ـ 1213 م. وما لبث خلفه الأكثر اتصافاً بالصفات الإنسانية، حسام الدِّين عوض، الذي اتخذ لنفسه لقب السلطان غياث الدين، أن خسر بيهار أمام قوات دلهي[62]. ثمة قدر من الالتباس حول تاريخ الكيان السياسي اللخناوتي في تلك السنوات، لأننا من سنة 616 هـ / 1219م فصاعداً نجدنا مع سلطان يحمل اسم معزّ الدِّين علي عوض، الذي كان، كما هو واضح، ابن غياث الدين، والذي كان يحكم إمّا بالاشتراك مع أبيه، أو خلفاً له[63]. ومن المؤسف أن الجوزجاني، الذي لم يدخل الهند، على أية حال، إلاّ بعد بضع سنوات، ولا يصح بالتالي اعتباره شاهداً معاصراً، لا يأتي على ذكره. وحسب رأي ذلك المؤلف، فإن غياث الدين هو الذي جنّب البنغال سنة 622 هـ / 1225م، هجوماً بقيادة إلتُتْمش شخصياً، بعرض استعداده لتقديم الخراج والاعتراف بالتبعية. غير أنه ما لبث أن تنكر للاتفاقية، وعاد إلى احتلال بيهار مرة أخرى. وعلى الأثر تقدم ابن إلتُتْمش البكر ووريثه، ناصر الدِّين محمود، الذي سبق له أن كان حاكماً للاهور، كما مر معنا، والذي كان صاحب إقطاع أوَدْ، على رأس جيش إلى قلب البنغال. وقد تمكن،

= غزنة وخزّمان وبينبان انظر المصدر نفسه II، 162 (تر. 1128 ـ 1129)؛ إ. هـ. صديقي، مملكة القرلغ في شمال ـ غرب الهند خلال القرن الثالث عشر»، IC 54 (1980م)، 75 ـ 91.

(62) TN، I، 434 ـ 435، 437 ـ 438 (تر. 578 ـ 580، 590 ـ 591).

(63) منقوشة سنسكريتي، فيكراما سامفات 1277، جاياستابا. 15، الخميس (13 حزيران / يونيو 1219م) من منطقة الغايا في بيهار، تشير إلى سلطان يحمل اسم «حوجادينا»: ARIE (1962 ـ 1963م) 24، 80 (رقم: 261). وعن منقوشة لعلي شيري عواد مؤرخة في 618 هـ / 1221م، انظر ز. آ. ديساي، «منقوشة تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر من البنغال الغربي»، EIAPS (1975م)، 6 ـ 12. من الواضح أنهما يشيران إلى الشخص نفسه لأن هناك قطعاً نقدية عائدة إلى سنة 620 ـ 621 هـ / 1223 ـ 1224م باسم معز الدين علي ـ ي عواد: CCIM، II، 145 ـ 146 (أرقام: 3، 5). نيكولاس ولوويك «نمط الفارس البنغالي ومسألة القضايا التذكارية» JNSI 35 (1973م)، 205 ـ 208، جادل، هو على صواب، دفاعاً عن اسم علي هنا، رغم أنه افترض، خطأ، أنه كان يمثل «علي ـ ي ماردان».

بالإفادة من غياب عوض، الذي كان في غزوة نهب في كامروب (أسّام)، سنة 624 هـ / 1227م، من احتلال لخناوتي، ومن إلحاق الهزيمة بعوض، الذي عاد من الغزو، وإعدامه. بادر إلتُتْمش إلى إرسال رايةً وعلامةً (تشتر) لابنه، الذي تصرف كنائب للسلطان، خلال فترة امتدت أقل من سنتين، إذ توفي في الأشهر الأولى من سنة 626 هـ / شتاء سنة 1228 ـ 1229 م. وبعد ذلك قام اختيار الدِّين دولت شاه، المعروف أيضاً باسم بِلْغَى مَلِك، الذي كان على ما يبدو، ضابطاً سابقاً في جيش سلطان دلهي، باغتصاب السلطة في الإقليم، إلى أن بادر إلتُتْمش إلى غزو البنغال، والإطاحة به في 628 هـ / 1230 ـ 1231 م[64]. وعلى امتداد ما لا يقل عن السنوات الاثنتي عشرة التالية، كانت تلك الأقاليم البنغالية الخاضعة للمسلمين ستبقى تابعةً لدلهي.

مع إعادة احتلال لخناوتي، أصبح سلطان دلهي، الحاكم الإسلامي الوحيد في الهند. فقد مكنته فتوحاته، من إصدار قطع نقدية جديدة، مستندة إلى **التنغا** المصكوكة من الفضة الخالصة، التي ما لبثت مع مرور الزمن، أن حلت محل **الدهليوالات**، الشبيهة بالقطع النقدية البلّونية، التي درج حكام الهندوس في دلهي على صكها فيما مضى[65]. أضف إلى ذلك أنه كان، قد حقق هدفاً، لا يضاهيه هدف آخر من حيث الأهمية، بالنسبة إلى أكثر الحكام المسلمين، ألا وهو اعتراف الخليفة العباسي في بغداد. من المسلَّم به الآن أن إلتُتْمش، كان الحاكم المسلم الهندي الوحيد الذي حظي بالاعتراف، وأن

---

(64) على قطعه النقدية يدعى علاء الدنيا والدين دولت شاه بن مودود: CMSD، 21 (هـ: 53 آ). ومخطوطة برلين لـ TN، ملف 99 ب، تؤكد أن دولت شاه وبِلْغَى ملك كانا شخصاً واحداً. لعل الإشارة الأوفى إلى حملة 628 هـ / 1230 ـ 1231 هي في JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 260. وعن أحداث البنغال، انظر حبيب الله، **أساس**، 97 ـ 100، الذي لم يكن، على أية حال، مطلعاً على البينات الواردة في الهامش السابق.

(65) سيمون ديغبي، «نظام النقد»، في ت. رايتشاودهوري وع. حبيب (محررين) **تاريخ الهند الاقتصادي، كامبردج**، ١ (كامبردج، 1982م)، 95 ـ 96؛ ديل، **العيش بدون فضة**، 179 ـ 180، 199 ـ 203، 213 ـ 219.

الألقاب التي كان حكام لخناوتي يحملونها، اعتُمدت من جانب واحد؛ وبالفعل فإن اختيار عوض للقب **ناصر أمير المؤمنين** ربما كان أحد الأسباب، التي دفعت إلتُتْمش إلى اتخاذ اللقب نفسه لقباً له[66]. وعلى الرغم من الغموض، الذي يلف هوية ذلك الذي أطلق المفاوضات بين دلهي وبغداد، والمنعطف الذي تمت فيه، فإن المعلومات المتوافرة لدينا تشير بأن الخليفة ربما كان هو المبادر. سبق لنا أن رأينا كيف حاول الناصر، أن يوغر صدور السلاطين الغوريين على عدوه الخوارزم شاه؛ وبعد حوالى اثنين من العقود، ربما بدا إلتُتْمش، بين آخرين، خليقاً بالرعاية، كمنافس محتمل على الجناح الجنوبي للخوارزم شاه.

فيما يخص اللمحات، التي تلقي الضوء على الاتصالات الدبلوماسية الأولى مع «ملك الهند»، نحن مدينون للمؤرخين العرب، الذين كانوا يكتبون في الغرب. بادر الخليفة في 617 هـ / 1220 ـ 1221م، إلى إيفاد الشيخ رضي الدين أبي الفضائل، الحسن بن محمد الصغاني (المتوفى سنة 650 هـ / 1252 ـ 1253م)، الذي لم يعد إلى بغداد حتى سنة 624 هـ / 1227م، خلال فترة حكم المستنصر ابن الناصر (623 هـ / 1226م ـ 640 هـ 1242م)، سفيراً له. وما لبث الخليفة الجديد أن أعاده إلى دلهي، وهذه البعثة الثانية، التي يحدثنا عنها الجوزجاني، الذي يشير في استعراضه الموجز للعباسيين، إلى إرسال **(عهد)** تفويض وراية **(لواء)** إلى إلتُتْمش في 625 هـ / 1228م، نفس السنة التي شهدت وصوله إلى البلاط، ويقول إنه حضر الوليمة الاحتفالية. وفي مكان آخر يقدم وصفاً أشمل للسفارة، التي وصلت في ربيع أول 626 هـ شباط / فبراير 1229م، جالبة لإلتُتْمش خلعة تشريف، وعهد يؤكد سلطانه على المناطق التي كان قد

(66) آ. هـ. داني، «هل حصل غياث الدين عواد خلجي البنغالي على أي اعتراف من الخليفة؟»، JPHS 3 (1955م)، 105 ـ 117؛ روما نيوغي، «قطعة نقدية نادرة من البنغال واستعراض لحياة عواد العملية» JNSI 40 (1978 ـ 1979م)، 42 ـ 52.

فتحها[67]. وكذلك فإن المستنصر أنعم على السلطان ـ كما يتعين علينا أن نفترض ـ بلقبي **يمين خليفة الله** و**ناصر أمير المؤمنين**، اللذين دأب عدد من الكتاب على توظيفهما في تبجيله وإعلاء شأنه[68]. وبالنسبة إلى عوفي فقد كان صار **خليفة أمير المؤمنين**[69]. وهكذا فإن المغتصب إلتُتْمش كان قد نال شرفاً، كما لو كان ابن أسرة أمير مسلم ملتزم، تمتع حكمه بأسمى آيات التقديس والمباركة الممكنة. أما أنه لم يكن أقل من الغوريين تعطشاً لمثل هذه الألقاب الشرفية، فيتضح من اعتماده سنة 630 هـ / 1233م، في أعقاب احتلال غواليور، **للنوبة** الخماسية، التي هي إحدى أمارات السلطة السيادية الكاملة[70].

أسباب انتصار إلتُتْمش

أوصلَنا مسحُنا للأحداث، إلى منعطف نجحت فيه سلطنة دلهي في احتضان، مساحة أوسع من أي وقت مضى، قبل العقد الأخير من القرن الثالث عشر. لم يكن ثمة أي شيء محتوم في العملية. فالجزء الأكبر منها لم يكن إلاّ نتاج ظروف ملائمة وسعيدة غير خاضعة لتحكم إلتُتْمش. لم يكن بقاء السلطنة على قيد الحياة، مضموناً بأي حالٍ من الأحوال. فلولا العاهل المغولي لتعرضت دلهي والسند، والبنجاب للابتلاع من قبل إمبراطورية الخوارزم شاه

(67) TN، ا، 129، 447، 454 (تر. 616، 629). Tāj، في ED، II، JH243 .، مخطوطة BL مسلسل 4392، ملف 128 أ. عن دور صغاني الذي لا يرد له ذكر في المراجع الهندية، انظر الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق هـ. ريتّر وآخرين (دمشق، 1931م ـ)، XII، 241؛ **الحوادث الجامعة** (أوائل القرن الرابع عشر، منسوب خطأ لابن الغُوَطي)، تحقيق مصطفى جواد (بغداد 1932م) 262.

(68) TN، ا، 440، 450 (تر. 597، 624). Tāj، ملف 217 ب، JH، ا، 5. جاجَرْمي، مقدمة ترجمته لكتاب الغزالي: **إحياء علوم الدين**، مخطوطة BL، مسلسل 8194، ملف 3 أ (حيث **معين** بدلاً من **يمين**). ترجمة لم يُعْرَف صاحبها **سر المختومة** للرازي، مخطوطة BN، ملحق فارسي 384، ملف 2 أ.

(69) JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 68 أ، 247 ب.

(70) TN، ا، 449 (تر. 620 ـ 621). مما يلفت النظر أن السلطان الغوري غياث الدين محمد بن سام كان بالمثل قد اعتمد **نوبة** خماسية بعد وصول خِلَع الشرف من الخليفة: المصدر نفسه، ا، 361 (تر. 383). وعن **النوبة** انظر هوديغالا، **دراسات**، ا، 216 ـ 217.

محمد. وحين قام جنكيزخان بتدمير تلك الإمبراطورية فقد ساهم، دون قصد منه، في ضمان سير الهند المسلمة في طريقها الخاصة. ولعل إلتُتْمش، حين اعتبر إمارته حاملة لواء الإسلام الوحيدة في شبه القارة، كان يتبع سياسة مدروسة. وسامحاً لجيرانه، بإضعاف بعضهم بعضاً ومتدخلاً ـ كما فعل في دعمه لقوباتشا ضد جلال الدِّين ـ عند الضرورة القصوى فقط، استطاع، آخر المطاف، أن يستأصل جميع أولئك المنافسين واحداً بعد الآخر.

من الطبيعي أن هذا لا ينبئنا، عما مكّن إلتُتْمش من إلحاق الهزيمة بمنافسيه المختلفين. لا يمكن للأمر إلاّ أن يكون تجريبياً، ولا بد من إسناده، في جانب كبير منه، إلى جملة التطورات الجارية على الجبهة الغربية للسلطنة، حيث المعلومات المتوفرة لدينا، أشمل من تلك المتعلقة بالبنغال، وإن لم تكن كثيرة. ففي سنة 612 هـ / 1215م، إذا صدقنا كلام ابن الأثير، كان قوباتشا قد تصدى لجيش يلدز الغازي، بخمسة عشر ألف رجل؛ كما كان في وقوفه في وجه جلال الدين بعد سبع سنوات، قد جند قوة لا تزيد بالتأكيد عن عشرين ألفاً، بل وقد تكون نصف ذلك العدد[71]. إن هذه الأرقام تتناقض تناقضاً حاداً، مع الرقم (المبالغ فيه دون شك)، مئةً وثلاثين ألفاً، لوصف الجيش الذي قيل إن إلتُتْمش، جهَّزه لحملته الخاصة ضد الخوارزميين[72]. تبقى مثل هذه الإحصائيات، مؤشرات مضلِّلة، للدلالة على حجم الجيوش القروسطية، وربما كانت غير صالحة للاستعمال في التحليل الأخير. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نُسْقِط من حسابنا، إمكانية أن حاكم دلهي، كان على رأس مؤسسة عسكرية أكبر بكثير من نظيرتها لدى جاره ومنافسه، الذي كان قد اضطر لإنفاق مبالغ

(71) IA، XII، 203 / 311، عن المعركة مع يلدز. نسوي، 88 (تر. 133)، عن الخوارزميين؛ مع 10,000؛ TJG، II، 146 (تر. بويل 414)، يرد رقم 20,000 غير أن هذا ربما يشمل التعزيزات التي أرسلها إلتُتمِش.

(72) نسوي، 90 (تر. 134): 30,000 فارس و100,000 مشاة.

ذات شأن من خزينته، في أثناء الحصار المغولي لمُلْتان[73]. ليس مصادفة أن يكون إلتُتْمش، قد سعى إلى إخضاع قوباتشا في أعقاب، ثلاث حملات ناجحة جداً مباشرة: هي الحملة ضد عوض في البنغال سنة 622 هـ / 1225م، التي تمخضت عن المبلغ الكبير المتمثل بثمانين **لاكاً** (ثمانية ملايين) من**الدراهم** (ربما الفضية على شكل خراج)[74]، وحملات سنتي 623 و624 هـ / 1226 و1227م التي أفضت، إلى الاستيلاء على قلعتي رانتانبور وماندور الهندوسيتين. ومن المؤكد أن من شأن المكافأة، التي حصل عليها إلتُتْمش جراء مثل هذه الانتصارات، أن تكون قد ضاعفت من قدرته على تجنيد جيوش أقوى وأكبر.

أما عن حقيقة توافر منبع جاهز، للدعم العسكري في متناول يد الحاكم، الذي تمكّنه مصادره من دفع الثمن المطلوب، فليس ثمة إلاّ القليل من الشك. فقد سبق لنا أن رأينا قبل الآن، في حقبة معز الدِّين، أن جنوداً مرتزقة ومغامرين مثل محمد بن بختيار، عرضوا خدماتهم لمن يدفع أكثر، ثم أطلقوا مبادرات تخصهم. وعلى الرغم من أن فخر مدبِّر يبالغ، دون شك، بمدى الازدهار المادي الذي كان ينتظر أولئك، الذين يهاجرون إلى الهند المسلمة[75]، فإن من المحتمل أن المنطقة، كانت قد بدأت تبدو مثل إلدورادو (وادي الذهب). أمّا اقتحام المغول للأقاليم الإسلامية الشرقية بعد سنة 617 هـ / 1220م، فيجب أن يكون قد أحدث زيادةً كبيرةً في تعداد المغامرين ـ من الأتراك والطاجيك على حد سواء ـ التواقين للانقضاض على أي مشروع مطروح. يمكننا أن نتصور خزاناً احتياطياً حقيقياً، زاخراً بمقاتلين وموظفين غير ملتزمين، هائمين على وجوههم في بقاع الهند الشمالية الشرقية، في عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادي. لقد تمكن الكثير من «رجالات خراسان وغور وغزنة» من تأمين

(73) TN، ا، 420 (تر. 537 ـ 538).

(74) المصدر السابق، ا، 438 445 (تر. 593، 610).

(75) SA، 20.

ملاذ، بادئ ذي بدء، في بلاط قوباتشا كما يقول الجوزجاني، الذي وصل هو نفسه سنة 624 هـ / 1227م إلى أوتشش، حيث تولى منصب **قاضي العسكر**، لدى ابن قوباتشا[76]. وفي السنة السابقة كان ملوك غور، قد تخلوا أخيراً عن وطنهم للمغول، وولّوا أدبارهم هاربين للالتحاق بركب قوباتشا[77]. غير أن آخرين من بين هؤلاء القادة المرتزقة المتميزين، بمن فيهم ناصر الدِّين أبو بكر ابن سوري، أحد القلائل الناجين من الأسرة الحاكمة الغورية، والذي أصبح أحد ملوك إلتُتْمش حتى توفي في دلهي سنة 620 هـ / 1223م، توجهوا نحو دلهي[78].

ثمة أيضاً عدد غير قليل، ممن تبدلت ولاءاتهم. لقد كان زمناً زاخراً، بأشكال شديدة التقلب من الإخلاص والوفاء. ففي أثناء مفاوضات جلال الدين مع إلتُتْمش، بادر اثنان من مبعوثيه أرهقتهما جملة الصعوبات التي كان عليهما أن يتحملاها، إلى التخلي عن سيدهم، والدخول في خدمة سلطان دلهي[79]. يبدو أن قوباتشا كان متميزاً بتكرر تعرضه لعمليات الانتقال هذه. ففي بدايات المجابهة مع جلال الدِّين، أقْدَم اثنان من مماليكه ـ هما نصرت الدين محمد بن حسين بن خرميل، وتاج الدين نِيَلْتَغين (حاكم سيستان فيما بعد) ـ على التخلي عنه والانتقال إلى صف الخوارزميين[80]. صحيح أن أحداً

---

(76) TN، ا، 420 (تر. 541 ـ 542)، مع الشهر جمادى الأول / أيار / مايو لوصوله، في حين يقال في ا، 446 (تر. 611 ـ 612) إن التاريخ هو شهر رجب / حزيران / يونيو ـ تموز / يوليو؛ وعن هجرته من غور، انظر أيضاً II، 185 ـ 185 (تر. 1203 ـ 1204). وعن المهاجرين المرموقين الآتين من خراسان انظر ا، 419 (تر. 534).

(77) المصدر السابق، ا، 420 (تر. 539 ـ 541): بعد سنة ونصف من حصار المغول لمُلْتان أي أوائل 623 هـ / 1226 م.

(78) المصدر السابق، ا، 340 (تر. 345)؛ يرد اسمه في قائمة مماليك إلتُتْمِش في ا، 451 (تر. 626). كان ينتمي إلى فرع حكم إمارة مادين الصغيرة.

(79) نسوي، 91 (تر. 135).

(80) نصرت الدين: المصدر السابق، 88، 140، 141 (تر. 132، 186، 188). لتغين: TN، ا، 284، =

لا يطْلعنا على مصائر الملوك الغوريين، الذين احتشدوا في بلاط قوبتشا سنة 623 هـ / 1226م، غير أننا نجد قطب الدِّين حسن بن علي، الذي ربما كان واحداً منهم[81]، في بلاط إلتُتْمش في وقت لاحق. بل وتم تعيين وزير قوبتشا، عين المُلك حسين الأشعري في غضون فترة قصيرة من الزمن، في منصب مماثل، في بلاط ابن إلتُتْمش ركن الدِّين فيروز، مُقْطَع بداؤون في ذلك الوقت[82].

من المحتمل بقوة أن سلطان دلهي، بات مع الزمن قادراً على توفير آفاق أفضل للمغامرين، من العسكريين، وذوي الاهتمامات الثقافية والإدارية على حد سواء، بالمقارنة مع جيرانه. ومن الواضح أن موقع السلطنة الجغرافي، كان منطوياً على قدر غير قليل من الجاذبية، بالنسبة إلى المهاجرين، لأنه كان يوفر إمكانية القيام بإغارات مجزية على المناطق الهندوسية، مثل إقليمي رنثانبور وماندور، التي كانت توفر الغنائم للمرتزقة، فضلاً عن الحاجة إلى الموظفين ذوي الخبرة، هذه الحاجة التي كانت تشكل فرص عمل، بالنسبة إلى المتعلمين وأرباب القلم. من المؤكد أن الجوزجاني كان ينطلق من حسابات مماثلة، حين غادر أوتشش في صَفَر 625 هـ كانون الثاني / يناير 1228م، للالتحاق بركب قوات دلهي بقيادة كزليك خان خارج الأسوار، قبل استسلام القلعة بثلاثة أشهر، وكان حريصاً على المسارعة إلى خدمة إلتُتْمش في نفس اليوم، الذي وصل فيه الأخير على رأس الجيش الرئيسي بُعَيْد ذلك[83]. يبدو أن عوفي كان

= (تر. 200)؛ وعن حياته العملية اللاحقة انظر سي. إ. بوزوورث، **تاريخ الصفّاريين بسجستان وملوك غروز (247 / 861 إلى 949 / 1542 ـ 1543)** (كوستاميسا، كاليفورنيا، 1994)، 407 ـ 410.

(81) TN، II، 135، 140 ـ 141 (تر. 1061، 1070 ـ 1071): انطلق قطب الدين إلى «هندوستان» في 620 هـ / 1223م مع ملوك آخرين، وإن تعرض رفاقه للذبح من قبل المغول على الطريق. إن كلمة الـ «حسين» في النص المطبوع، ترد في مخطوطة BL على شكل «حسن» (ملفات 183 أ، 185 ب، 193 أ، 220 أ، 240).

(82) TN، I، 454 (تر. 631).

(83) المصدر نفسه، I، 447، وII، 3 (تر. 615، 722 ـ 723). عن لقب كزلك خان (**تو . كزلك** «سكين صغير»، انظر كلاوسون، **قاموس . . .**، 760؛ TMENP، IV 3 ـ 4 (رقم: 1714).

هو الآخر على درجة كافية من الاستعداد، للتخلي عن ولي نعمته قوبتشا. ثمة مثقف (عالم بلغة ذلك العصر)، وصل شخصياً إلى دلهي في 620 هـ / 1223م، يتحدث عن الهرب من المغول إلى بلاد إلتُتْمش، من قبل «مسلمي خراسان وما وراء النهر وغور وغزنة، وجميع مسلمي الشرق (**بل كافايي مسلماني مشرق**)»[84]. وفي هذا السياق فإن مديح الجوزجاني للسلطان ـ قائلاً إنه كان دائم الكرم والسخاء في الهدايا التي قدمها إلى (**الدهاقنة**)، مُلاّك الأراضي والغرباء الآتين من المدن الكبرىٰ (**غربائي أمصار**)، وقد حوّل عاصمته إلى ملاذ آمن، لأولئك الهاربين من الطوفان المغولي[85] ـ ليس كلاماً غير ذي معنى. وقد بادر مؤلفو القرن التالي، ولا سيما العصامي، الذي يتحدث عن وصول «الأسياد» من البلاد العربية، و«العلماء» من بخارى، إلى ترديد أصداء حكمه[86]. ولعل إلتُتْمش هو عاهل دلهي الوحيد، الذي اشتهر بأنه سعى بصورة مدروسة إلى اجتذاب المهاجرين الأعلام بهذه الطريقة، إذا استثنينا محمد بن تُغْلُق في القرن الرابع عشر الميلادي. ثمة احتمال مراوغ في أن يكون، قد استفاد من ظاهرة الهجرة المنتشرة على نطاق واسع، بين صفوف أولئك الذين لم يكونوا قد حصلوا على الملجأ في الهند إلاّ مؤخراً، والذين رأوا أن قوبتشا لم يكن المرجع والرجل الأقدر على ضمان أمنهم، بل وازدهارهم، المستقبلي، في الحقيقة.

المهاجرون النبلاء في ظل إلتُتْمش

في ختام فصله المكرس لإلتُتْمش، يقدم الجوزجاني قائمةً بأسماء نبلائه،

---

(84) جاجرمي، مخطوطة BL مسلسل 8194، ملف 3 ب. انظر أيضاً الترجمة الفارسية لكتاب البيروني **الصيدنة في الطب**، مخطوطة BL، مسلسل 8149، ملف 4 أ؛ نظير أحمد، «كتاب الصيدنة للبيروني وترجمته الفارسية»، **إندو ـ إيرانيكا** 14، الجزء الثالث (1961م)، 17.

(85) TN، ا، 440 ـ 441 (تر. 598 ـ 599).

(86) FS، 114 ـ 115 (تر. 226 ـ 227). TFS، 27.

من الغوريين والأتراك والطاجيك. ليست الأكثرية الساحقة بالنسبة إلينا، إلاّ أسماء مجردة، إذ ليسوا مذكورين في أماكن أخرى من **طبقات ناصري**، أو في أي مرجع آخر. غير أننا لا نلبث، أن نلتقي ببعضهم في متن الفصل، وبآخرين، ممن كانوا مماليك السلطان، وغلمانه في سِيَرٍ تخصهم في **الطبقة** الثانية والعشرين، والذين سنعود إليهم بعد قليل. ثمة قليلون يجسدون أمراء، حدَّدهم حسن نظامي بوصفهم، دعموا إلتُتْمش في الصراع ضد حزب آرام شاه أو قاموا بُعَيْد ذلك بمرافقته في حملته الجالروية، مثل عز الدين بختيار المخلدة ذكراه، على أحد أقدم شواهد القبور المكتشفة، في منطقة السلطنة حتى الآن، وناصر الدين مردان شاه، وافتخار الدين محمد عمر، الذي يعتبره الجوزجاني كبير أمراء **(ملك الأمراء)**، وقائداً في قارا[87]. بل ونستطيع أن نتحرى قدراً معيناً من الاستمرارية، مع حقبة الفتوحات الغورية. ربما كان ركن الدين حمزة، الذي يذكره المؤلفان كلاهما، بوصفه أحد أمراء إلتُتْمش، هو نفسه الشخصية التي تحمل الاسم ذاته، وكانت ناشطة في خدمة معز الدِّين، وجرى تكليفه بمهمة سفارة لدى برثفيراجا الثالث سنة 587 هـ / 1191 م[88]. والمؤكد أكثر أن كلاً من عز الدِّين علي، صاحب إقطاعية نغوار ذات يوم، وحسام الدين أوغول بك في أوَد كانا يتوليان المناصب منذ عهد حكم معز الدِّين[89].

---

(87) Tāj، ملف 221 ب، 229 أ. ترد قائمة الجوزجاني للملوك في TN، ا، 452. عن عز الدين بختيار (متوفى 616 هـ / 1219م)، انظر اقتدار حسين صديقي، «معلومات تاريخية في دواوين الشعر الفارسي في القرن الثالث عشر»، **دراسات في الإسلام** 19 (1982م) 57 ـ 58.

(88) لا يظهر ركن الدين في قائمة الملوك كما أوردها نص حبيبي لـ TN، ولكن قارن مخطوطة IOL، ملف 242 ب وترجمة رافيرتي، Tāj626 . ملف 77 ب، 229 أ؛ وعن بيرثفيراجا، انظر ملف 38 أ.

(89) عن علي وأوغول بك في عهد معز الدين، عن علي بين ملوك إلتُتْمِش، TN، ا، 452؛ وعن أوغول بك المصدر السابق، ا، 451 ملاحظة، وقارن مخطوطة BL، ملف 179 أ (تر. 627)؛ أيضاً JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب ـ 264 أ (نظام الدين، **مقدمة**، رقم: 1729). مع حلول سنة 620 هـ / 1223م كانت نغوار بيد كريم الدين حمزة غير المعروف في أي مكان آخر: TN، ا، 284 (تر. 200، أما في مخطوطة BL ملف 179 ب فيرد الاسم على شكل نجيب الدين).

يبقى ما جرى، لمعظم النبلاء القدامى غامضاً. فكما رأينا، كان الأمراء القطبيون، قد دعموا إلتُتْمش في البداية. وتضم قائمة الجوزجاني، أميرين يحملان لقب «قطبي»، ربما كانا اثنين من غلمان آيبك السابقين. أما الأمراء المعزيون، فقد التفوا حول آرام شاه، مما جعل المعزيين الذين يذكرهم فخر مدبّر، من أعضاء حاشية آيبك في لاهور سنة 602 هـ / 1206م، يختفون عن الأنظار بعد ذلك التاريخ[90]. وبالتالي فإن من الممكن أن يكون إلتُتْمش، قد اضطر لتشكيل، طبقة جديدة من كبار الضباط على الأثر. ومن شأن أعيان المهاجرين، أن يكونوا قد وفروا له ما مكنه من فعل ذلك. كان بعضهم من النبلاء الأتراك الأحرار. فحسن نظامي يلمّح إلى أن إلتُتْمش، في التصدي لهجوم بيركي، أفاد من دعم سيف الدِّين فيروز، المتماهي مع أحد أبناء عمومة نيلتغين، يدعوه الجوزجاني فيروزي إلتُتْمش، وفيروز بن سالار، وقد كان على ما يبدو، أمير حرب ذا جذور تعود إلى اتحاد قانغلي في السهوب، الممتدة إلى الشمال من خوارزم[91]. أمّا علاء الدِّين جاني، الذي يمجده الجوزجاني، واصفاً إياه بـ «أمير تركستان»، فقد حصل على إقطاعية لخناوتي، في أعقاب حملة إلتُتْمش المظفرة سنة 628 هـ / 1230 ـ 1231م، ويتم العثور عليه لاحقاً في لاهور[92]. وما لبث الملك الغوري قطب الدِّين حسن، أن أصبح مدبِّراً لشؤون منزل (**وكيلي دار**) إلتُتْمش؛ في حين تولى عز الدِّين محمد سلاري، الذي ربما كان غورياً أيضاً، منصب **الباربك** (أي الأمير الحاجب)[93]. لقد رأينا كيف أن

---

(90) SA، 25، 73. هم **السبهسلارات** حسام الدولة والدين أحمد (ي ـ ؟) علي صالح، مبارز الدولة والدين طغرل تكين علي (ـ ي؟) حسن، وأسد الدولة والدين علي (ـ ي؟) محمد أبو الحسن. والأخيران يلقبان بـ **أولوغ** («عظيم») **دادبك** (أي **أميري داد**) حاجب.

(91) Tāj، ملف 221 ب. عن فيروز انظر أيضاً TN، ١، 284، 299، 452 (تر. 199، 235، 625). شقيقة أبيه كانت زوج الخوارزم شاه إلى ـ آرسلان وبالتالي جدة عدو السلاطين الغوريين، علاء الدين محمد. ونسوي، 36 (تر. 81) يؤكد العلاقة. TN، ١، 298 (تر. 235)، ويقدم رواية محرَّفة عن قصة هذه العائلة.

(92) المصدر السابق، ١، 448، 452، 455، وII، 9 (تر. 618، 626، 634، 731، 732).

(93) TFS، 39. عن سالاري، انظر TN، 1 446 (تر. 613)، وJH، ١، 12؛ أيضاً حبيب، «تشكُّل»، 13.

أعداداً من البيروقراطيين، ومحترفي الجندية لاذوا بالهند هرباً من الاجتياح المغولي، وأن بين أصحاب المناصب لدى وفاة إلتُتْمش، رجالاً ذوي ألقاب من خراسان مثل شفورقاني وطاياقاني[94]؛ وإن لم يكن معروفاً ما إذا كانوا جيلاً أول من المهاجرين. ثمة غموض مماثل يلف أسلاف وزير إلتُتْمش، مؤيد الملك (نظام الملك فيما بعد) قوام الدولة والدِّين محمد بن فخر الملك شرف أبي سعد جنيدي، و**عارض** (حاجب) السلطان، عماد الملك شرف الدولة والدين أبو بكر، الذي لا نعرف عنه سوى أنه كان شهير النسب ولم يكن تركياً[95]. ومع ذلك ليس ثمة أي حاكم مسلم، كان مستعداً لأن يشعر بالارتياح، إزاء الاعتماد الكلي على أناس أحرار، دون غيرهم مهما كانت أصولهم ومواهبهم. لقد ظل إلتُتْمش، مثله مثل معز الدِّين، حريصاً على بناء جيش من المماليك الأتراك (**الباندغان**، مفرده **باندا**، بالفارسية)، المعروفين باسم الشمسيين، الذين كان ولاؤهم متركزاً عليه وحده. أما في ظل خلفائه، فما لبث هؤلاء أن باتوا يضطلعون، بأدوار بارزة في حكم السلطنة وإدارتها.

(94) TN، ا، 456، وا، 30 (تر. 635، 761).

(95) عن اسم الوزير ولقبه الكاملين، انظر JH، مخطوطة BL، مسلسل 4392، ملف 128 أ؛ جاجرمي، مخطوطة BL، مسلسل 8194، ملف 3 أ. فيما بعد سمع برني أن الجنيدي كان ذا أصل عامي، حفيداً لأحد النسّاجين (جولاها): TFS، 39. عماد الملك: مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب ـ 264 أ.

obeikandl.com

الفصل الثالث

سلاطين ومصادر

مات شمس الدين إلتُتْمش، يوم العشرين من شعبان 633 هـ / التاسع والعشرين من نيسان / ابريل 1236م، بعد أن نجح، على النقيض من آيبك، في التأسيس لأسرة حاكمة، ظلت في السلطة إلى أن تمكن مملوك إلتُتْمش بالذات، بلبان[1]، الذي كان يشغل منصب **(النائب)** لناصر الدين محمود شاه بن إلتُتْمش، من اغتصاب العرش سنة 664 هـ / 1266م، ليحكم بوصفه السلطان غياث الدين. لم تدم أسرة بلبان الحاكمة هي الأخرى طويلاً. فبعد العهدين الوجيزين لحفيده معز الدين كَيقُباد، وابن الأخير الطفل شمس الدين كيومرث، قام الضابط الخَلْجي جلال الدين فيروز، أول سلاطين الخلجيين، بالإجهاز عليها سنة 689 هـ / 1290 م. تبقى تسميات «ملوك المماليك» و«الأسر الحاكمة المملوكية» المستخدمة تقليدياً، للدلالة على سلاطين دلهي في القرن الثالث عشر الميلادي، تسميات مغلوطة. فقط إلتُتْمش وبلبان كانا من الغلمان؛ أما معظم الحكام، ومن خلفوهم من أبناء وأحفاد، فلم يكونوا مماليك في أي وقت من الأوقات. وبالتالي فإن هاتين الأسرتين الحاكمتين، سيجري التعامل معهما في هذا الكتاب، طلباً لقدر أكبر من الدقة، باعتبارهما «أسرة الشمسيين» و«أسرة الغياثيين».

(1) عن **بلبان** «الباشق»، انظر سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 61.

الجوزجاني والشمسيون

لا يعاني مؤرخ سلطنة دلهي، في القرن الثالث عشر الميلادي، من أية زحمة مفرطة في المصادر المكتوبة. فباستثناء الروايات المتحدثة عن جملة العمليات الخوارزمية والمغولية في الهند، التي يوردها الجويني والنسوي، لم ينج من الضياع أي مصدر خارجي، من الفترة الممتدة بين ابن الأثير، ونهاية القرن الثالث عشر، يتناول الأحداث المعاصرة الجارية في شبه القارة. قد يكون أحد الأسباب الوجيهة كامناً، في غياب الصلة مع الخلافة. فنحن لا نعلم عن ورود، ذكر عهدي خليفتي إلتُتْمش الأولين في الكتاب المفقود، للمؤرخ البغدادي المعروف، باسم ابن الساعي (المتوفى سنة 674 هـ / 1276م)، إلاّ من خلال فقرة مقتبسة، يوردها مؤرخ يعود إلى منتصف القرن الرابع عشر، لدى كتابته عن سورية المملوكية[2]. ربما كان ابن الساعي قد استقى معلوماته من مبعوث الخليفة، الصغاني، الذي غادر الهند متوجهاً إلى بغداد سنة 637 هـ / 1239م بعد إقامة دامت إحدى عشرة سنة[3]. ونحن لا نعلم ما إذا كان ثمة تبادل للسفراء بين الخلفاء العباسيين، وبين من ورثوا الحكم عن إلتُتْمش. استمر حكام دلهي يستخدمون، عنوان (**ناصر أمير المؤمنين**) على قِطَعِهم النَّقْدية، إلى أن أجهز المغول سنة 656 هـ / 1258م على الخلافة البغدادية، بل وإلى ما بعد ذلك التاريخ[4]. ومن غير المحتمل، أن يكون ذلك مستنداً إلى أية مباركة رسمية؛ فلو كان ناصر الدين محمود شاه، ولي نعمة الجوزجاني، حاصلاً على

---

(2) (المفضل) ابن أبي الفضائل (حوالى 1350م)، **النهج السديد**، طبعة جزئية وترجمة سميرة كورتانتامر، مصر والشام بين سنتي 1317 و1341م، IU 23 (فرايبورغ Br. I، 1973م) النص العربي 28 ـ 29 (الترجمة الألمانية 107). ثمة فقرة مماثلة في يوميات بغداد القرن الرابع عشر، **الحوادث الجامعة**، 104. عن ابن الساعي، انظر ص: 18، هـ: 56 من هذا الكتاب.

(3) الصفدي، **وافي**، XII، 241.

(4) تم إسقاط اسم الخليفة عن القطع النقدية العائدة للسلطان الخلجي ركن الدين إبراهيم (695 هـ / 1296م) للمرة الأولى: إدوارد توماس، **يوميات ملوك الباثان في دلهي** (دلهي، 1871م)، 255.

تثبيت لقبه من قِبَل بغداد، لبادر الأخير إلى إخبارنا بكل تأكيد. ومما يدل على عُزْلة السلطنة في تلك الفترة، أن مؤرخي مصر المملوكية، الذين كانوا يوردون قائمة أسماء الحكام الأجانب، في مطلع أي سجل تاريخي بصورة دورية، لم يأتوا على ذكر اسم سلطان دلهي بشكل صحيح، إلاّ مرة واحدة (سنة 662 هـ / 1264م) في سياق الفترة الممتدة، من 635 هـ / 1236م فصاعداً[5]. ولم يعد أولئك المؤرخون إلى إيراد اسم السلطان، بصورة منتظمة في قوائم الحكام المعاصرين، حتى سنة 700 هـ / 1300 ـ 1301م، أي إلى ما بعد نجاح اجتياح گوجرات من قبل قوات علاء الدين خَلْجي، في فتح قناة اتصال جديدة مع الإمبراطورية المملوكية[6].

على الرغم من إمكانية الإطلال على عدد من التلميحات إلى الشخصيات الرئيسية، والأحداث التاريخية من خلال مؤلفات شعراء فرس، مثل سراجي وعميد سُنّامي، ممن مجّدوا بلاط السلطان، أو بلاطات جيرانه المسلمين في الهند، أواسط القرن[7]، فإننا معتمدون بصورة شبه كلية على مرجع سَرْدي وحيد، هو الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب الجوزجاني، المعروف باسم **طبقات ناصري**، فيما يخص حقبة ذُرِّيَّة إلتُتْمش، وصولاً إلى سنة 658 هـ / 1260 م. ومن بين جميع مؤرخي السلطنة، كان الجوزجاني متمتعاً بأفضل مَرْصدٍ يمكّنه من متابعة الأحداث، لأنه شغل في ثلاث مناسبات أحد أعلى المناصب المدنية، ألا وهو، منصب (**قاضي قضاة**) الإمبراطورية. غير أن

---

(5) ابن الدواداري، VIII، 102. ابن أبي الفضائل، **النهج السديد**، طبعة جزئية وتر. إ. بلوشيه، «مفضل ابن أبي الفضائل. تاريخ السلاطين والمماليك»، باترولوجيا أورينتالّس 12 ـ 20 (1919 ـ 1929)، 123.

(6) اليونيني (متوفى 726 هـ / 1326م، **الذيل على مرآة الزمان**، مخطوطة TSM III أحمد 2907 / إ. 3، ملف 196 أ (700؛ مع اسم مغلوط)، 210 ب (701)؛ III أحمد 2907 / إ. ع ملف 25 ب، 36 أ، 43 ب، 157 ب، 179 أ، 212 ب (بدرجات متفاوتة من الخطأ وعدم الدقة). ابن أبي الفضائل، تحقيق بلوشين، 534 ـ 535، 556، يبدأ أيضاً بإعطاء اسم سلطان دلهي (خطأ) في 700.

(7) صدّيقي، «معلومات تاريخية»، TFS، 113، يأتي على ذكر خواجا شمسي معين، الذي كتب مجلدات في مديح قطب الدين حسن غوري، غير أن عمله لم ينج من الضياع.

الطبقات، رغم غناها النسبي بالبيانات عن تلك الفترة، ليست عملاً تسهل الإفادة منه. بعض الأحداث، يعاد سردها بعبارات شديدة الانحراف، بما يؤدي إلى أن تفقد مغزاها بصورة شبه كاملة. كما أن تنظيم المواد، نجده هو الآخر شديد الاضطراب والفوضى؛ فالحدث نفسه، قد يوصف مرتين في مناسبتين مختلفتين ـ في العهد المعني في الطبقة الحادية والعشرين من جهة، كما في واحدة أو أكثر من سير المماليك الشمسيين، التي تؤلف الطبقة الثانية والعشرين من جهة ثانية على حد سواء ـ ولكن بتفاصيل متباينة، بل وحتى متناقضة فعلاً. وهكذا يبدو أن المؤرخ، لم يكن يرمي إلاّ إلى تمويه الأحداث، وتغليفها بالضباب، بدلاً من تسليط الأضواء عليها وإبرازها. ومما يجعل الأمر مثيراً لقَدْرٍ أكبر من الأسف، أننا لا نتوفر على أية مصادر بديلة. لقد دأب جميع المؤلفين اللاحقين، الذين يغطون هذه السنوات على سَبْر أغوار كتاب الجوزجاني، ولم تتمكن سوى قلّة نادرة ـ مثل عصامي أو سرهندي، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي ـ من تقديم أية معلومات إضافية، بقيت مرجعيتها مثل جدارتها بالثقة، بعيدةً عن اليقين.

يتجلى هذا النزوع إلى التعتيم، والتشويش في معالجة الجوزجاني لخلافة إلتُتْمش. كانت التوقعات، تشير بقوة إلى أن نجل السلطان البِكْر، ناصر الدين محمود شاه، الذي قضى نحبه في لخناوتي سنة 626 هـ / 1229م، سيخلفه. وفي أعقاب حملة غواليور سنة 630 هـ / 1233م، كان ركن الدين فيروزشاه، بوصفه ابناً ثانياً، قد عُيِّن مُقطَعاً للاهور، وهو منصب سبق لناصر الدِّين محمود أن شغله. جاء فيروز شاه، مرافقاً لإلتُتْمش، العائد إلى دلهي قبيل وفاة السلطان، كما لو كان يتم إعداده للعرش، ويؤكد الجوزجاني أن عيون الشعب، كانت على الأمير[8]. وثمة عمل جرى تأليفه في سنوات إلتُتْمش الأخيرة، يبدو

(8) TN، ا، 454 ـ 455 (تر. 630، 631).

مؤيداً لهذا الرأي، لأنه مكرس للسلطان وفيروز شاه بصورة مشتركة، وكأن الثاني هو الوريث الشرعي[9]. بادر فيروز شاه إلى ارتقاء العرش، أصولاً، في غضون بضعة أيام من وفاة أبيه. غير أن الجوزجاني يزعم، في إحدى المناسبات، أن إلتُتْمش كان، غداة حملة غواليور، قد مال إلى منح الخلافة لابنته البِكْر، رضيَّة، التي ربما كانت مولودته الأولى، كما كانت أمها زوجه الأولى، وأوعز بتنظيم فَرَمان لصالحها. ومما يقال إنه تنبأ بأن أحداً من أبنائه، لن يكون جديراً بالحكم، رداً على اعتراض بعض المسؤولين[10]. إلاَّ أن ما يستحق الانتباه، هو أن الجوزجاني، كان في غواليور في تلك الأثناء، ولم يعد إلى دلهي حتى سنة 635 هـ / 1238م، (أي خلال حكم رضية:[11] من غير الوارد أنه كان موجوداً، وهو لا يزعم في الحقيقة، أنه رأى الفرمان أو الشهادة. ثمة احتمال قوي في ظل هذه الظروف، أن تكون القصة ملفَّقة، وتداولها وروّجها، أولئك الذين نَصَّبوها على العرش: ما لبث قبرها أن غدا، مزاراً ومحجاً للناس[12]، كما يقول الرحالة المغربي ابن بطوطة، في القرن الرابع عشر الميلادي، وممّا تجدر ملاحظته، أن بلبان نفسه كان، كما سنرى، مديناً لها بترقيته الأولى. وبالتالي فإن الحكاية ربما استطاعت، نظراً لقيامها بتشويه سمعة أبناء إلتُتْمش الذكور (بمن فيهم السلطان الجالس على العرش، ناصر الدِّين محمود شاه بالطبع)، أن تكتسب مغزى جديداً، لدى قيام الجوزجاني بالكتابة، حين كانت عملية استبدال الأسرة الحاكمة الشمسية، قد أصبحت ربما بادية في الأفق.

يمكن إلقاء نظرة سريعة على وجهات نظر الجوزجاني، حول خلفاء

---

(9) مجهول، تر. راضي، **سر المختومة**، مخطوطة BN، ملحق، فارسي 384، ملف 2 أ.

(10) TN، I، 458 (تر. 638 ـ 639). نظامي (في HN، 230 ـ 231) يعتقد أن إلتُتْمِش كان قد عين رضيّة أساساً، غير أنه ما لبث أن غير رأيه وفضَّلَ فيروزشاه عليها.

(11) TN، I، 448 ـ 449، 460 (تر. 620، 643 ـ 644).

(12) III. IB. 169 (تر. حبيب، 632).

إلتُتْمش الأربعة، عبر الاطلاع على **الطبقات**. لم يكن فيروز شاه (633 هـ / 1236م)، إلاّ فتى طائشاً غارقاً في اللهو، ترك زمام الحكم بيد أمه، شاه تركن النشيطة المحبة للانتقام. كانت فترة حكمه الوجيزة، مشغولة بثورة أشعلتها، جماعة من كبار أمراء إلتُتْمش، بمن فيهم الوزير الجنيدي، الذي ربما كان داعماً، لشقيق فيروز شاه، غياث الدِّين محمود، مرشحاً لعرش السلطنة[14]. وما لبثت الثورة أن أُخمدت من قِبَل رضيّة، التي كانت قد نُصِّبَت بدلاً منه. ومن الواضح أنه يراد منا، أن نعقد مقارنة، مع كل من شقيق فيروز شاه الأكبر، ذلك «الحكيم والحصيف» (**فرزانة وعاقل بيخرد**)، ناصر الدِّين محمود شاه، الذي يمكن اعتبار رحيله المبكر، قبل أوانه، ضربةً موجعةً للسلطنة[15]، من جهة، ومع خلفه من جهة ثانية. أمّا رضية (634 ـ 637 هـ / 1236 ـ 1240م)، فيجري تقديمها على أنها متمتعة، بجميع المواصفات الممتازة لأي حاكم ناجح، عدا واحدة فقط، ألا وهي، أنها لم تكن رجلاً؛ إنها السلطانة الشمسية الوحيدة، التي ينعتها الجوزجاني قائلاً: إنها قائدة حربية (**لشغركاش**)[16]. وكثيرة هي الروايات، التي تتحدث عن رضيّة المرتدية ملابس الرجال، التي درجت على الظهور أمام الملأ ممتطيةً فيلاً[17]. وبصرف النظر عما رآه رجال الدين «العلماء»، في هذا كله، فإن من الواضح بجلاء، أن مؤيدي رضية، كانوا يريدونها زعيمة قوية، وأن عيبها كان كامناً، في مبالغتها المتنامية في تأكيدها لذاتها. في البدء كانت مسكوكاتها النقدية، التي حملت اسم أبيها مصحوباً

(13) كما يشير نظامي، في HN، 230 ـ 231، هـ: 84؛ قارن أيضاً كتابه **عن تاريخ . . . ومؤرخيها . . .**، 84، من المؤسف أن نظامي في مكان آخر (HN، 253، 256) يصاب بتشوه الرؤية حين يسلِّم بشهادة عصامي التي تقول إن محمود شاه لم يكن ابن إلتُتْمِش بل حفيده.

(14) صديقي، «معلومات تاريخية»، 56 ـ 57.

(15) TN، ا، 453، 454 (تر. 628، 630).

(16) المصدر السابق، ا، 457 (تر. 637 ـ 638).

(17) المصدر السابق، ا، 460 (تر. 643). IB، III، 167 (ر. حبيب، 631).

باسمها، تشير إلى أنها لم تكن مطمئنة؛ غير أن اسم إلتُتْمش، ما لبث مع حلول سنة 635 هـ / 1237م تقريباً، أن سقط[18]. ولدى الإطاحة بها لصالح أخيها بهرم شاه، سُجنت في تبرهند وقُتلت سنة 638 هـ / 1240م، في محاولة فاشلة لاستعادة العرش.

وعن معز الدِّين بهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، يقال إنه كان سلطاناً شجاعاً، رغم ولعه بسفك الدماء[19]. وقد تمت الإطاحة به، حين تمرد عدد كبير من قادته، ونجحوا في اقتحام دلهي. كانت شعبية بهرم شاه قد تدنت كثيراً، بين صفوف رجال الدِّين «العلماء»، وكان قد أعدم أَحَدَهُم، ممن شاركوا في مؤامرة فاشلة لإنزاله عن العرش؛ و**شيخ الإسلام**، الذي أوفده للتفاوض مع الأمراء المتمردين، ما لبث أن انتقل إلى الصف المعادي[20]، وفي ضوء هذه الظروف، يصعب علينا فهم انحياز الجوزجاني إلى السلطان؛ غير أن السبب قد لا يكون أكثر تعقيداً من كونه، مديناً لبهرم شاه، بأول تعيين له قاضياً للقضاة[21]. يبدو أن الأحداث، التي تكللت بالإطاحة ببهرم شاه، كانت قد أثارت اشمئزازه، إذ هجر مكتبه، ورحل عن دلهي إلى لخناوتي، التي بقي فيها أكثر من سنتين اثنتين. وبالتالي فقد كان غائباً، خلال السنوات الأولى من حكم ابن فيروز شاه، علاء الدين مسعود شاه (639 ـ 644 هـ / 1242 ـ 1246م)، الذي كان، حسب كلام المتملقين، كريماً، راجح العقل، ومتمتعاً بجميع الصفات الحميدة. غير أن السلطان الجديد، ما لبث بدوره، أن وقع تحت تأثير الوشاة، وأصحاب النوايا الخبيثة، فراح يعدم مماليكه وأمراءه، إلى أن تمت دعوة الابن الأصغر لعمه إلتُتْمش، ناصر الدين محمود شاه، سرّاً، لخلعه عن العرش، والحلول محله.

---

(18) CMSD، 40 (رقم: 161، 161 آ): يظهر أن النقود المسكوكة في لخناوتي كانت تحمل اسم رضيّة فقط حتى النهاية، المصدر نفسه، 41 (رقم 161 ب ـ د).

(19) TN، ا، 462 (تر. 649).

(20) المصدر السابق، ا، 464، 467 (تر. 652، 657، 658 ـ 659).

(21) المصدر السابق، ا، 466 (تر. 657 ـ 658).

لعل هذه الحركة الانقلابية بالذات، هي الأكثر غموضاً بين سلسلة التغييرات المختلفة للسلاطين المذكورة في **الطبقات** ـ وقد لا يكون ذلك مفاجئاً لأن العاهل الذي اعتلى العرش هذه المرة، هو الذي يقوم الجوزجاني بإهدائه تاريخه. لقد كان محمود شاه (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)، الأكثر ضبابية وغموضاً، بين سائر سلاطين القرن الثالث عشر الميلادي جميعاً[23]. تبدو الحقبة خاضعة لهيمنة ولي نعمة الجوزجاني، بهاء الدين بلباني خورد («الأصغر»)، سلطان المستقبل، الملقب بـ أُلُغ خان (الخان العظيم). فبلبان الذي كان السلطان، قد تزوج ابنته، وكان هو يعمل نائباً لهذا السلطان ـ عدا فترة وجيزة دامت حوالى السنة، سنة 647 هـ / 1249م ـ حتى موت محمود شاه، يبدو مضطلعاً بدور الإيرل غودوين، بالنسبة إلى إدوارد الشاه محمود، المعترف. يقول الجوزجاني، إن السلطان كان متمتعاً بـ «أخلاق الأنبياء» (أوصاف أوليا، وأخلاق أنبيا)، ويضيف إلى قائمة فضائله الطويلة، التقوى والإيمان والزهد والعفة (التقوى والديانت والزهادت والصيانت)[24]. وقد رأى البروفسور نظامي، أن الجوزجاني قام بتركيب هذه الصورة، لتسويغ هيمنة بلبان[25]. من المؤكد أن صورة محمود شاه، كانت مطردة وراسخة دون شك. ثمة قصص وحكايات متداولة في القرن التالي، كانت تتحدث عن أنه كان يجد متنفساً، لطاقاته وتقواه في فن الخط؛ فقد كتب نسخاً من القرآن، وكان يشتري طعامه بما يحصل عليه من عمله[26]. بل ونجد نمط حياته القائم على التقشف،

---

(22) المصدر السابق، ا، 468، 471 (تر. 660، 668 ـ 669).

(23) إذا أردت الاطلاع على مسح لتاريخ العهد، فانظر محب الحسن، «محمود الأول، ناصر الدين» Enc. Isl.

(24) TN، ا، 477 (تر. 674).

(25) نظامي، **عن تاريخ... ومؤرخيها**، 82 ـ 83.

(26) TFS، 26، ES، 156 (تر. 280 ـ 282). IB، III، 169 (تر. 632). DR، 50)، حيث يوصف محمود شاه باعتباره «غارقاً في بحر عبادة الله».

لافتاً لنظر مؤرخ آخر من خارج الهند[27]. وبالتالي فإن من الصعب، تجنب الانطباع القائل، بوجود عاهل كان شبه منفصل عن بلاطه ذاته. ثمة فرقاء وأحزاب تتصارع على السلطة في المركز، كما على الإقطاعات المرغوبة أكثر (ربما الأغنى)؛ ثمة قياديون من كبار القوم، يجري تحجيمهم دون رحمة، أو يتم نفيهم إلى الأقاليم؛ وتحت ستار حملات عسكرية، ودسائس تآمرية، لكي تبقى شخصية بلبان، بوصفه نائب السلطان، قريبةً من المركز على الدوام. أما ما كان ناصر الدين محمود شاه يراه في هذا كله ـ أكان، مثلاً، مرحباً بسقوط بلبان سنة 651 هـ / 1253م، أو بإعادته إلى مركزه في السنة التالية، أم مستهجناً لذلك ـ فإننا نستطيع أن نستنبط.

كتب الجوزجاني، قبل صعود بلبان بسنوات قليلة فقط. يحظى بلبان بالسيرة الأطول بما لا يقاس، بين المماليك الشمسيين الخمسة والعشرين، وتبقى تعبيرات الجوزجاني عن العرفان تجاهه، على الهدايا والمعاشات، متكررة مرة بعد أخرى من أول الكتاب إلى آخره[28]. حتى إذا سلمنا بالرواية المنسوبة إلى بلبان، والموجودة في **سرور الصدور** السِّيَرية، الشبيهة بسِيَر الاولياء، التي تقول، بأن الجوزجاني القاضي لم يكن يخافه[29]، فإن الجوزجاني المؤرخ، كان على ما يبدو، يشعر بأنه ممنوع من الكشف عن الظروف، التي أدت إلى إبقاء ولي نعمته في الظل، فضلاً عن أنه لا يستطيع، أو لا يريد أن يعطي، كلاً من أعداء بلبان، وخصومه حقوقهم كاملة: فعلى الرغم من أن كوشلوخان (عز الدِّين بلبان)، هو موضوع إحدى السِّيَر في الطبقة الثانية والعشرين، ويجري إغراقه بالمديح على كرمه، وفضله مع رجال الدِّين «العلماء»، والزهاد المتنسكين[30]، فإن المنافس اللدود الآخر للنائب، قُطْلُغ

(27) ابن أبي الفضائل، تحقيق، كورتانتامر، النص العربي 29 (الترجمة الألمانية 107).

(28) TN، I، 481، II، 2، 52 ـ 53، 61، 62، 69 (تر. 681، 720، 808، 821 ـ 22، 823، 835).

(29) وارد في نظامي، **عن تاريخ... ومؤرخيها**، 93.

(30) TN، II، 36 (تر. 775 ـ 776).

خان، لا يحصل على مثل هذا الإطراء، ولا يُشار إليه إلاّ بصورة عابرة. أضف إلى ذلك، أن قرب الوثنيين المغول، في هذه الفترة، كان يهدد وحدة السلطنة من جهة، ويوفر حافزاً للمنشقين من النبلاء، يدفعهم إلى تحدي حكومة دلهي. ومن جهة ثانية تمت استعادة بلبان للسلطة سنة 652 هـ / 1254م، نتيجة مناورات ودسائس، تآمر فيها بعض حلفائه مع المغول، ولكن رواية الجوزجاني الخاصة للقصة، تبقى متسمة بقَدْر ملحوظ من الخَفَر والخَجَل، ولولا التفاصيل التي أوردها مؤلفون عن الهند، مثل وصّاف ورشيد الدِّين، كانوا يكتبون في الأقاليم، الخاضعة لسلطة الإيلخان المغولي في إيران، لما حصلنا إلاّ على القليل جداً من المعلومات، عن تعقيدات تلك الأحداث.

مصادر ما بعد سنة 658 هـ / 1260 م

بعد سنة 658 هـ / 1260م، يلوذ الجوزجاني بالصمت، وندخل حقبة، تكون فيها المصادر الأولية بالغة الندرة حقاً. بل ونجد أن كتابة رواية مترابطة، عن عهود كل من بلبان 664 ـ 685 هـ / 1266 ـ 1287م)، أو حفيده معز الدين كيُقباد (685 ـ 689 هـ / 1287 ـ 1290م)، أو جلال الدين فيروز شاه خَلْجي (689 ـ 695 هـ / 1290 ـ 1296م)، أصعب من الكتابة عن عهود سلاطين القرن الرابع عشر، بسبب عدم وجود أية مصادر روائية معاصرة[31]. نبقى إلى حد بعيد معتمدين، إما على مؤلفين يغطون فترة ذات شأن، ولكنهم كتبوا في منتصف القرن الرابع عشر، أو على كتاب ألفوا أعمالاً أقصر، لتخليد ذكرى أحداث محددة، أو أشخاص معينين أما الاستثناء فهو نوع من التقليد التاريخي، شاع في إيران مع حلول نهاية القرن. وهو الذي يشكل، أول مَسْح للفترة الممتدة حتى عهد علاء الدين خَلْجي نجا من الضياع، التاريخ الموجز

(31) عن هذه العهود، انظر HN، 277 ـ 325؛ حبيب الله، **أساس**، الفصلان 7 ـ 8، ك. س. لال، **تاريخ الخلجيين، 1290 ـ 1320 م**، طبعة ثالثة (دلهي، 1980)، الفصل 2.

للسلطنة، الذي أدخله وصّاف في كتابه: **تجزية الأمصار** (المصمم ذيلاً لعمل الجويني) في، أو قبيل، سنة 702 هـ / 1303م، وقدَّمه إلى الإيلخان غازان. وما لبث هذا الجزء من عمل وصاف أن جرى نسخه في غضون السنة التالية أو حولها، وإلحاقه بالجزء الهندي من الموسوعة التاريخية الكبرى، باسم **جامع التواريخ**، للوزير الإيلخاني رشيد الدين فضل الله الهمداني[32]. وأضاف رشيد الدين التفصيل الغريب الخاص به؛ مع أن قوله بأن أوتشش ومُلْتان، خاضعتان لحكم ابن السلطان يشير إلى أن معلوماته تعود إلى عهد جلال الدين خَلْجي، أو ربما حتى إلى عهد بلبان[33].

أما الشاعر المعروف يمين الدين أبو الحسن الشهير أكثر، باسم الأمير خسرو دهلوي (651 هـ / 1253م ـ 725 هـ / 1325م)، الذي كان ابن أحد غلمان إلتُتْمش العسكريين، فقدبدأ كتابة **ديوانيه** الأولين، **تحفة الصغار** (حوالى 671 هـ / 1272 ـ 1273م)، و**وسط الحياة** (رغم أن هذا ربما لم يكتمل إلى حوالى سنة 690 هـ / 1291م)، في عهد بلبان. وهذان الكتابان، مع **ديوانه** الثالث، الذي كان بعنوان **غُرَّة الكمال** (693 هـ / 1294م)، تشير بين الحين والآخر، إلى أحداث معاصرة، فضلاً عن أن المقدمة (الديباجة)، التي تتصدر الديوان الأخير، تتضمن سيرة ذاتية وجيزة قيّمة. فخلال حكم كيقباد وجلال الدين خَلْجي ألّف خسرو، اثنتين من قصائده السردية الملحمية، الأولى (**المثنويات**) وهما ملحمتا **قران السعدين**، المتركزة على المصالحة، بين كيقباد وأبيه بُغرا

(32) عن تاريخ تقديم هذا الجزء من عمله إلى الإيلخان، انظر كتاب وصّاف، **تجزية الأمصار وتزجية الأعصار**، طبعة حجرية (بومباي، 1269 هـ / 1853م)، 405. تم تأليف الفصول الهندية في كتاب رشيد الدين خلال سنتي 702 و703 هـ / 1302 ـ 1304 م؛ انظر JT، تحقيق كارل يان، **كتابات رشيد الدين الهندية** (بالألمانية) (ڤيينا، 1980م)، المقدمة، 9.

(33) المصدر السابق، النص الفارسي .Taf 13، النص العربي .Taf 51 (تر. ألمانية: 36). يعلن رشيد الدين أيضاً أن البنغال كان في ظل حكم أحد أبناء عم سلطان دلهي الذي ما لبث أن تخلى عن حكمه: النص الفارسي .Taf 15 ـ 16، النص العربي Taf. 52 (تر. ألمانية 39).

خان سنة 686 هـ / 1287م، و**مفتاح الفتوح**، المخلِّدة لذكرى انتصارات جلال الدين سنة 690 هـ / 1291 م. أما عيب خسرو الرئيسي، المتمثل بالمبالغة في تملُّق السلطان الحاكم، فيتجلى بوضوح في مطلع عمله النثري الوحيد، الذي يحمل عنوان **تاريخ علاء**، أو **خزائن الفتوح** (711 هـ / 1311 ـ 1312م)، حيث تتعمد، رواية مداهنة لقصة اعتلاء علاء الدين خَلْجي ابن أخي جلال الدين العرش سنة 695 هـ / 1296م ـ حَذْفَ كل ما له علاقة باغتيال السلطان السابق. ففي هذا العرض الموجز، ولكن المفيد أحياناً، لتاريخ السلطنة من إلتُتْمش وصاعداً، الذي يفتتح به كتابه **دِوَل راني** أو **عاشقة** (المتركز على قصة حب خضرخان بن علاء الدين، لإحدى الأميرات الهندوسيات)، استطاع أن يكون أكثر صدقاً، لأن علاء الدين وأبناءه، كانوا جميعاً قد ماتوا، عند استكمال القصيدة الملحمية سنة 720 هـ / 1320 م[34].

فيما عدا هذه الأعمال، نجدنا مضطرين للعودة إلى كتاب، **تاريخ فيروز شاهي** لضيائي بَرَني[35] (منجز سنة 758 هـ / 1357م)، وملحمة **فتوح السلاطين** لعصامي (750 هـ / 1349م)، جنباً إلى جنب مع **تاريخ مبارك شاهي**، الذي يعاني من كونه أقرب إلى الحوليات، ليحيى بن أحمد سرهندي، الذي كُتب في وقت متأخر 838 هـ / 1434 م. ليست المراجع المتوافرة لعصامي وسرهندي معروفة؛ وقد يكون الثاني أفاد من التتمة، التي باتت الآن مفقودة (**الملحقات**)، لكتاب **طبقات ناصري**، الذي نسبه محقق القرن السابع عشر فرشتا إلى عين الدين بيجابوري (المتوفى سنة 795 هـ / 1393م)، الذي كان مثله مثل عصامي، أحد رعايا دكّأ المنفصلة[36]. أما عن مصادر بَرَني، فلدينا قَدْر أكبر من

---

(34) عن هذه المؤلفات، انظر وحيد ميرزا، **حياة وأعمال أمير خسرو** (كالكوتا، 1935).

(35) مؤلفون متأخرون يدعونه ضياء الدين برني: عرفان حبيب «نظرة برني لتاريخ سلطنة دلهي»، IHR 7 (1980 ـ 1981م)، 99 هـ. 1؛ محمد بيهامادخاني، **تاريخ ـ ي محمد ـ ي** (القرن الخامس عشر)، مخطوطة BL، مسلسل 137، ملف 409 ب.

(36) فيريشتا، **غولشان ـ ي إبراهيم ـ ي**، طبعة حجرية (بومباي، 1247 هـ / 1831 ـ 1832م، جزءان)، ١، =

المعلومات. فهو يزعم أنه فيما يخص الفترة السابقة، لتولي جلال الدين خَلْجي العرش، يعتمد على الكلام، الذي سمعه من أبيه وعمه، اللذين كانا اثنين من ضباط السلاطين الخلجيين الأولين، ومن جدِّه لأمّه، حسام الدين، الذي كان مدبِّراً لشؤون المنزل (وكيل دار)، لدى **باربك (أمير ـ حاجب)** بلبان، والذي عينه ذلك السلطان لاحقاً حاكماً (شِحْنا) للخناوتي[37]. أحياناً ينسب معلوماته إلى أمير خسرو، كما إلى صديق الأخير وزميله، الشاعر أمير حسن دِهلوي، وهو يزعم أنه كان على علاقة حميمة بهما كليهما[38]. وبين الحين والآخر، يورد أسماء مصادر معلومات آخرين، بمن فيهم أعيان غير معروفين من قبل، ومن بعد كانوا في خدمة بلبان[39]. غير أن تأكيد هذا المؤلف البالغ الرابعة والسبعين من العمر اعتماده، فيما يخص الفترة الممتدة، من حكم جلال الدين خَلْجي وصاعداً، على ما سبق له أن شاهده بنفسه (كان في السادسة لدى اعتلاء جلال الدين للعرش، وفي الثانية عشرة عند موته)، فلا يوحي بأي قَدْرٍ من الثقة[40]. وربما استقى بعضاً من معلوماته أيضاً من رفاق اللهو **(ندماء)**، لدى جلال الدين، بمن فيهم أمير أرسلان كلاهي، الذي يعتبره خبيراً في التاريخ، وفي أشكال سلوك الملوك **(آداب الملوك)**[41]؛ غير أن ذلك ليس مؤكداً بأي شكل من الأشكال. وفي هذه الظروف، فإن من المطمئن أن بَرَني وعصامي

= 5، 131، 165. وعين بيجابوري، انظر آ. ت. م. عبد الجبار، **محبوب ذي المِنن تذكرة أولياء الدكّان** (حيدر آباد، دكّان. 1332 هـ / 1914م)، 538 ـ 541، وقد زعم امتلاكه مخطوطة **الملحقات** التي ما لبثت أن ضاعت.

(37) حسام الدين: TFS، 32، 41، 61، 119؛ وانظر أيضاً 87. والد برني وعمه: المصدر نفسه، 25، 39، 60، 127.

(38) المصدر السابق، 67، 68، 113، 183، 360.

(39) خواجا تاج الدين مكراني: المصدر نفسه، 36. خواجا وهاكي، ابن شقيق وزير بلبان، بصري. المصدر نفسه، 114. القاضي شرف الدين* بارماس (؟): المصدر نفسه، 168 (ورد في النص المطبوع على شكل س ر پ أ ي ن، ولكن قارن مع مخطوطة BL ملف 90 ب).

(40) المصدر نفسه، 175. عن عُمر برني لدى الكتابة، انظر المصدر نفسه، 573.

(41) المصدر نفسه، 199.

اللذين، كتب كل منهما بصورة مستقلة عن الآخر، يتكرر توافقهما في تلخيصهما للأحداث، بما يؤكد أنهما كانا، يستندان إلى ذاكرة شعبية مشتركة. وثمة ظلال لروايات مشابهة، تظهر أيضاً في تاريخ دلهي الوجيز، الذي أقحمه ابن بطوطة في كتاب رحلاته.

وإذا كان الجوزجاني ميالاً إلى إدهاش قارئه، بفيض من التفاصيل المتناقضة أحياناً، فإن المشكلات التي يعاني منها عمل برني، هي مشكلات من نمط آخر. على الرغم من أن كتاب **تاريخي فيروز شاهي**، كان مخصصاً ليكون ذيلاً لكتاب **طبقات** الجوزجاني[42]، فإنه أدنى منه مستوى من بعض النواحي، إذ لا يتضمن إلاَّ القليل نسبياً من التواريخ (وبعضها غير دقيق)، ويقوم أحياناً بوصف الأحداث، بطريقة غامضة وانطباعية. والمؤلف نفسه، يعتبر العمل خلاصة (**ايجاز واختصار**)، وينكر استهداف الكمال[43]. غير أنه يحاول من الجهة الأخرى، القيام بما لم يُقْدِم عليه أي من مصادرنا الأخرى ولو عن بعد، أي بتقديم تفسير لجملة الأحداث والسياسات، مما أدى، بحد ذاته، إلى إثارة مشكلات بالغة الحدة على صعيد التفسير والتأويل[44].

فيما يخص حكم بلبان، يُصعَق القارئ، بقَدْرٍ جدير بالثناء من الاهتمام بالتحليل والتوصيف. فمملوك إلتُتْمش السابق، الذي حل الآن محل أسرة سيده الحاكمة بعد استئصالها، يصوره برني حاكماً متجهماً شرساً، كان عازماً على أن يكون أكثر من مجرد أول بين أنداد (primus inter peres)[45]. سعى بوعي إلى أن ينأى بشخص السلطان، ويبعده خلف ستار كثيف من الأُبَّهة والطقوس،

---

(42) المصدر نفسه، 20 ـ 21.

(43) المصدر نفسه، 361.

(44) انظر، مثلاً، پ. هاردي، **مؤرخو هند العصر الوسيط** (لندن، 1960)، الفصل 2: هاربانس موخيا، **المؤرخون والتاريخ خلال عهد أكْبَر** (نيودلهي، 1976م)، 3 ـ 5، 10 ـ 11، 19 ـ 26؛ عرفان حبيب، «نظرة برني».

(45) TFS، 30، 34 ـ 35.

واستخدم شَبَكة واسعة من الجواسيس، والوُشاة والمخْبرين، لمراقبة نشاطات وتحركات أمرائه، وأجهز على عدد من زملائه السابقين من الطبقة الأرستقراطية. وهذا الهوس بالمظاهر الشكلية (الأتكيت)، كان لا يسمح حتى لندمائه الخاصين، بأن يروه إلا من وراء ستار (ياكتا)[46]. يقال إن بلبان، الذي كان هو نفسه من حديثي النعمة، كان يرفض ترقية ذوي الأصول الوضيعة، ويصر باستمرار على ضرورة حصر المناصب، والمراتب الأرستقراطية بذوي الأصول والجذور النبيلة. أمّا انطباع الصورة الحميمة، التي نادراً جداً ما تكون موجودة في التواريخ القروسطية، فيجري تعزيزه بعدد من الخطب، التي يقال إن السلطان ألقاها، أثناء مناقشاته مع ملوكه [أمرائه] أو أبنائه. قد نشعر، بأننا بتنا ممسكين بمفاتيح كنز حقيقي، عن سياسات بلبان، ونظريته السياسية، وهذا منعكس في التأريخ الحديث. ثمة في الحقيقة من أطرى بلبان، وهلّل له بوصفه «سلطان دلهي الوحيد، ربما، الذي قيل عنه، أنه ناقش وجهات نظره، حول المُلْك بصورة مطوَّلة»[47]. غير أن هناك ما يدعو إلى مقاربة مثل هذا الخطاب غير المباشر بقدر غير قليل من التحفظ. لقد بين الدكتور بيتر هاردي أن الآراء المعبر عنها في هذه الفقرات، هي آراء برني نفسه، وقد وردت أيضاً، ولكن بشكل أكثر بروزاً، ووضوحاً في كتابه **فتاوى جهانداري** (المكتوب خلال عقد الخمسينيات من القرن الرابع عشر)، وهو كراس نصائح للسلاطين، يحتل مكاناً مناسباً له في الموروث الفارسي، المعروف باسم **مرايا الامراء** Fürstenspiegel[48].

---

(46) المصدر السابق، 33، 34 ـ 35، 40.

(47) نظامي، **بعض جوانب**، 280 ثمة وجهات نظر مماثلة في السير وولسلي هيغ، في **تاريخ الهند، كامبردج** III، **الأتراك والأفغان** (كامبردج، 1928م)، 74 ـ 75؛ حبيب الله، **أساس**، 162 ـ 163، 179؛ عزيز أحمد، **التاريخ السياسي**، 259 ـ 263، 267 ـ 271.

(48) پ. هاردي «**الخطاب المباشر** لكتاب **تاريخ ـ ي فيروز شاهي** تأليف برني ـ بين الحقيقة والخيال!» BSOAS 20 (1957م)، 315 ـ 321.

الحقبة الغياثية

تنطوي الظروف المحيطة بمصير ناصر الدين محمود شاه سنة 664 هـ / 1266م[49]، على قَدْرٍ استثنائي خاص من التعقيد. فأول التقارير التي تتحدث عن قيام بلبان، باغتيال محمود شاه يرد، في الحقيقة، في تاريخ وصّاف عن الهند؛ وقد سمع ابن بطوطة قصة مماثلة، بعد ثلاثة أو أربعة عقود، كما أنها موجودة في كتاب **فتوح السلاطين** لعصامي[50]. وبالمقابل فإن برني، لا يشير إلى أي تآمر أو مكيدة، فضلاً عن أن سرهندي، يزعم صراحة أن محمود شاه، مات ميتة طبيعية[51]. وبالتالي فإنه من المحتمل، أن يكون بلبان قد افتُري عليه ظلماً. وعلى الرغم من ذلك، فمن الواجب القول أن أياً من هذه المصادر ـ سواء أكانت تتهم بلبان باعتقال الملك أم لا ـ لا ينئبنا عما آل إليه الأبناء، الذين عُرفوا بأبوة محمود شاه لهم. فالأمير الذي جرى الاحتفال به ـ لدى إنجاب ابنة بلبان له سنة 657 هـ / 1259م ـ بكثير من الإطناب، والمبالغة من قبل الجوزجاني، كان سيجري اعتباره سلطان المستقبل بكل تأكيد[52]. ربما كان النائب قانعاً بخلافة حفيده المستقبلي، غير أن موت الصبي في مرحلة الطفولة،

---

(49) تاريخ 11 جمادى الأولى 664 هـ / 18 شباط / فبراير 1266م وارد في TMS، 39، ومؤيد بعملات محمود شاه العائدة إلى 664 هـ. غير أن من الضروري أن نلاحظ أن سرهندي يقول إن العهد دام 19 سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً: ومن شأن هذا أن يضع موت السلطان في 663 هـ / 1265 م. ومهما يكن فإن سنتي 662 و665 هـ الواردتين بالتتابع في كل من TFS، 25، وFS، 163، 164 (تر. 290، 291)، على خطأ.

(50) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص الفارسي، .Taf، 22، النص العربي .Taf 57، (تر. ألمانية 48). FS، 163 (تر. 289 ـ 290). IB، III، 170، 174 (تر. جيب، 632، 635).

(51) TMS، 39. وعن وجهتي نظر متعارضتين حول وفاة محمود شاه، انظر حبيب الله، **أساس**، 161، حيث يقال إن الاغتيال غير وارد نظراً لوضع بلبان وعلاقاته السابقة بالسلطان؛ وك. آ. نظامي، «**بلبان قاتل الملك**»، في كتابه **دراسات في تاريخ الهند الوسيط** (عليكره، 1956)، 48 ـ 62، وفي HN، 27 ـ 275 له.

(52) TN، ا، 496 (تر. 714). لعدم تسميته، يبقى حفيد بلبان من بين الأبناء الأربعة الوارد ذكرهم في ا، 475، (تر. 672) مجهولاً بالنسبة إلينا. أما إصرار رافيرتي على إقحام عبارة «الراحل، المرحوم» بعد كل اسم فليس مسوّغاً بالبيانات الواردة في أفضل المخطوطات.

ما لبث أن تمخض عن أزمة، حُلَّت عبر استئصال محمود شاه وذريَّته باتحادات أخرى. وهكذا لا يسعنا إلاَّ أن نخمن ونضرب أخماساً بأسداس.

خلافاً لحال إلتُتْمش، كان بلبان ينعم بنجلين راشدين بالغين، هما محمد الذي حكم السِّند، حتى وفاته المبكرة في القتال مع المغول سنة 683 هـ / 1285م، (فعُرف بلقب: الأمير الشهيد) **خاني شهيد**؛ ومحمود الذي حمل لقب بغراخان، والذي عُيِّن حاكماً للخناوتي. غير أنه مثل سيده، ما لبث أن فقد وريثاً واعداً، وخلفه شاب طائش. فحين قضى السلطان العجوزُ نحبَه سنة 685 هـ / 1287م، بادر حزبٌ بزعامة محافظ (**كوتوال**) دلهي المتنفذ، فخر الدين، الذي كان على خلاف مع «الأمير الشهيد»، إلى تجاهل ادعاءات كل من كايخسرو بن محمود، وبغراخان في الشرق، وإلى تنصيب ابن الأخير الطائش كيقباد. أما معارضو هذا الحزب من أمثال الوزير بصري، فقد عانوا من الطرد والنفي[53]. وما لبث كيخسرو أن اغتيل لاحقاً؛ أما بغراخان، الذي اتخذ لنفسه لقب السلطان ناصر الدين، وتقدم غرباً ليتحدى كيقباد، فقد تصالح مع ابنه في لقاء لهما، على ضفاف نهر سرجو (في حديث خلّده خسرو في ملحمة **قِران السعدين**). ومسلِّماً بالأمر الواقع، حصر السلطان طموحاته بإقليم البنغال، الذي بقي سلطنة مستقلة حتى سنة 724 هـ / 1324 م.

احتفل السلطان الشاب، الذي نقل مقر إقامته إلى كيلوخرى، الواقعة على بعد بضعة أميال، بتحرره من القيد، الذي كان يفرضه عليه حُكْم جدِّه، وغرق في بحر اللهو والملذات، تاركاً شؤون الدولة **للدادبك** القوي (أمير داد) نظام الدين. وسارع نظام الدين هذا، وهو رجل مقتدر، ولكنه عديم الضمير، ومجرَّد من المبادئ، إلى استغلال لامبالاة كيقباد، وإهماله لشؤون الدولة،

---

(53) TFS، 122 (وقارن 107). TMS، FS52 .، 184 ـ 186، 196 (تر. 315 ـ 316، 328). ثمة صدى لدور فخر الدين في الحكاية المحَرَّمَة قليلاً التي التقطها IB، III، 175 ـ 176 (تر. حبيب، 635 ـ 636)، حيث يُشار إليه صواباً على أنه **ملك الأمراء**، ولكن على أنه نائب أيضاً، خطأ في المرة الثانية.

للإطاحة بكل من الوزير، وكبار النبلاء لدى السلطان السابق، ثم دفع السلطان، إلى مباركة اغتيال ابن عمه، خسرو، الذي كان قد وقع في الخطيئة التي لا تغتفر، المتمثلة بطلب مساعدة المغول. وما لبث كيقباد، أن تعب من **الدادبك** فأمر بتسميمه[54]. ليس دور نظام الدين سهل التقييم؛ من الجدير بالملاحظة، أن رواية سرهندي، لا تذكره إلاّ بصورة عابرة، ولا تلمِّح إلى نفوذه الكاسح. أما بالنسبة إلى برني، فإن إعدام، أو نفي كبار رجالات عهد بلبان لصالح ابنه كيومرث، أدَّى إلى نسف النظام: ظهرت ثمة منافسة بين الملوك، دون أن يكون أي منهم مالكاً لما يكفي من القوة كي يفوز بالنصر. قام أمير الخَلْج بحشد أنصاره، وبفرض السيطرة على كيومرث، حتى أصبح نائباً؛ بعد فترة وجيزة، ما لبث أن أزاح السلطان الطفل، واستولى على العرش في شهر ربيع الثاني من سنة 689 هـ/ نيسان ـ أيار 1290 م. أما كيقُباد المسكين، فلم يكن قد عاش طويلاً بعد الإطاحة به، إذ قضى نحبه في التاسع عشر من محرم 689 هـ / الأول من شباط/ فبراير 1290 م. وفي رواية أنه مات جوعاً، ونتيجة الإهمال ببساطة؛ غير أن رواية أخرى تقول، إن كيقباد قد تعرَّض للاغتيال، بأمر من جلال الدين على يد ضابط كان قد أعدم أباه. تسير الأحداث في **تاريخي فيروز شاه** بعناد نحو الإطاحة بالغياثيين، وانتقال السلطة إلى الخَلْجيين. يقال، إن بغراخان أبلغ جلساءه، بعد المصالحة، بأنه لن يرى ابنه ثانية قط، وتنبأ بالسقوط الوشيك لأسرة بلبان الحاكمة[55].

تأتي صورة جلال الدين فيروز شاه (689 ـ 695 هـ / 1290 ـ 1296م)، بالنظر إلى هذه النذر والهواجس، أشبه بحالة السقوط المفاجئ. لقد تعيَّن على

---

(54) TFS، 170. تبدو القصة الواردة في FS، 198 ـ 200 (تر. 330 ـ 332)، حيث يقال إن نظام الدين يتجرع السم الذي أعده لكيقُباد، حكاية خيالية. وعن كيخسرو، انظر المصدر نفسه 196 ـ 198 (تر. 328 ـ 330).

(55) TFS، 150، 156.

الملوك، برأي برني، أن يوازنوا بين صفتي الخير والشر، المتناقضتين الضروريتين، إذا أُريد للملكية أن تكون (**خلافة**) لله و(**نيابة**) عنه[56]. من الواضح، بالنسبة إليه، أن جلال الدين، لم يجسد مثل هذا التوازن. فهذا المحارب القديم المجرَّب، الذي كان قد أمضى، قبل اعتلائه العرش، سنوات كثيرة، وهو يحارب المغول على الجبهات الغربية للسلطنة، جرى الحط من قَدْره، والاستخفاف به بوصفه حاكماً تقياً، ليناً ورحيماً ينأى بنفسه عن الصراعات التي من شأنها أن تودي بحياة الجنود المسلمين، ويتجنب إراقة دم خصومه؛ حتى اللصوص والأوغاد (الزعران)، الذين كانوا يُعتقلون في دلهي، كانوا يُشحنون عبرنهر الغانج نحو لخناوتي[57]. لم يتردَّد السلطان في الصفح عن كل من الملك تشهجّو، ابن أخي بلبان، الذي تمرَّد عليه سنة 689 هـ / 1290م من جهة، ومجموعة من النبلاء، كانت قد تورَّطت في مؤامرة مترددة ضده، بعيد ذلك التاريخ من جهة ثانية[58]. وفي الخطب التي يُخرجها برني من أفواه المتآمرين، ثمة انتقاد لجلال الدين، بوصفه غير جدير بالسلطنة والسيادة؛ من المحتمل أن تكون رأفته بأنصار تشهجّو، قد أغاظت أولئك الذين كانوا قد قطعوا صلاتهم بالأسرة الحاكمة البائدة. غير أن رد فعل جلال الدين على الدرويش سيدي مولّه، الذي كان نزله (**خانقاه**)، قد أصبح مركز مؤامرة أرستقراطية أخرى، والذي اعتُبر موته بدفع من السلطان، من قِبل كل من برني وعصامي، نذيراً ينبئ بانهيار النظام، جاء مختلفاً[59]. أما إذا كان سقوط جلال الدين، عقاباً سماوياً على إساءة معاملته لأحد أولياء الله الصالحين، فقد جاء

(56) للاطلاع على خلاصة آراء برني، انظر بيتر هاردي، «الكتابة التاريخية التعليمية عند مسلمي الهند: معالجة ضياء الدين برني لعهد السلطان محمود تُغلُق (1324 ـ 1351 م)»، في يوهانان فريدمان (محرراً)، **الإسلام في آسيا، ١، جنوب آسيا** (القدس، 1984م)، 41 ـ 44.

(57) TFS، 186، 213؛ 189 عن **اللصوص وقطاع الطرق** انظر هوديڤالا، دراسات، ١، 266 ـ 267.

(58) TFS، 190 ـ TMS192 .، 64 ـ 65.

(59) TFS، 208، FS212 .، 217 (تر. 382).

بصورة أكثر مباشرة، جراء ثقته الطفولية الساذجة بابن أخيه المتآمر علاء الدين، الذي اغتاله في لقاء على ضفاف الغانج، في السادس عشر من رمضان 695 هـ / الثامن عشر من تموز 1296م، واستولى على العرش، وتساهله معه. ومع ذلك فإن السلطان العجوز، لم يكن شديد اللامبالاة والإهمال. فبشهادة برني نفسه، تولى جلال الدين قيادة سلسلة من الحملات، ضد الممالك الهندوسية في راجستان، وأوقف غزواً شنه أمير مغولي، اضطر للانسحاب دون قتال. أما **مفتاح الفتوح** لخسرو، الذي كُتب ولما يمض على العهد، سوى اثني عشر شهراً، فيكشف عن حقيقة أن جلال الدين، حتى في غضون تلك الفترة، بادر أيضاً إلى تجريد الحملات في سفوح الهيمالايا، ضد كل من المغول والهندوس، إضافة إلى قيامه بإخماد حركة عصيان كبرى، نظمها أنصار الأسرة الحاكمة الغياثية. يوحي المؤلف بأن السلطان، كان متمتعاً بطاقات لافتة للنظر.

يجدر بنا أن نقارن رأي برني، حول جلال الدين، بنظرته إلى بلبان. ففي السنوات القليلة الأولى من حكمه، قاد الأخير حملة على لاهور، وجبال الملح (كوهي جود)، كما خاض سلسلة من المعارك ضد ميوس (ميوات)، المضطربة القريبة من العاصمة من جهة، وضد كَفَرة كَتهِر الواقعة إلى الشرق من بداؤون من جهة ثانية. غير أنه، بعد ذلك، لا يبدو نازلاً إلى أرض المعركة شخصياً، باستثناء مسيرته الطويلة إلى البنغال، لسحق واليه المتمرّد طُغرل. ومما تجدر ملاحظته، أن مهمته ضد المغول، كانت قد تُركت لأبنائه ولقيادات عسكرية أخرى. ثمة إشارات إلى أن تراخياً واضحاً كهذا، كان يكْمُن وراء حالات الهروب الكثيرة، للالتحاق بطغرل، ليس فقط في البنغال، بل ومن دلهي أيضاً، في أعقاب الهزيمة المبكرة لجنرالات بلبان[60]. من الواضح أن برني، يعتبر تفسير إخفاق بلبان في استئناف الحرب ضد الكفار، أحد واجباته، ويفعل ذلك

(60) TFS، 83، 84.

عن طريق إخراج مسرحية حوار، بين السلطان وبعض إخوته الشمسيين، فلدى مطالبته الملحة، بمباشرة حملات نهب وسلب، في عمق المناطق الهندوسية على غرار ممارسات آيبك وإلتُتْمش، يضطر بلبان لتبرير سياسته، متذرِّعاً بضرورة الحذر، لأن المغول كانوا قد درجوا على عادة شن غارات سنوية على الهند، ولم تعد مغادرة العاصمة، والانطلاق إلى مشروعات بعيدة، كما في الأيام الخوالي، أمراً ممكناً[61]. قد يبدو هذا، من النظرة الأولى، منطوياً على نوع من المنطق القادر على الإقناع، في سياسة السلطان البعيدة نسبياً عن روح المغامرة، بعد سنة 1270م. غير أن قدرتنا على اعتبار الأمر انعكاساً فعلياً لآراء بلبان الخاصة، تبقى ملفوفة بضباب كثيف من الشك. وبالتالي فإن التباين بين بلبان، الحاكم «القوي» الذي أصيبت طاقاته بشيء من الشلل، وجلال الدين، الذي تميَّز بقدر مثير من النشاط رغم ضعفه وهزاله، يطرح علينا نوعاً من المفارقة.

المُلْك والاستقرار والخلافة الوراثية

شهدت حقبة السنوات القمرية الاثنتين والستين، الفاصلة بين تاريخ موت إلتُتْمش، في العشرين من شعبان 633 هـ / التاسع والعشرين من نيسان 1236م، واعتلاء علاء الدين محمد خَلْجي للعرش سنة 695 هـ / 1296م، شاهدة على عهود عشرة سلاطين. كانت عهود خلفاء إلتُتْمش المباشرين: فيروز شاه (633 ـ 634 هـ / 1236م)، ورضية (634 ـ 637 هـ / 1236 ـ 1240م)، وبهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، ومسعود شاه (639 ـ 644 هـ / 1242 ـ 1246م)، سريعة الزوال بصورة استثنائية؛ أما كيقُباد (685 ـ 689 هـ / 1287 ـ 1290م)، وابن الأخير كيومرث (689 هـ / 1290م)، وجلال الدين خَلْجي (689 ـ 695هـ/ 1290 ـ 1296م)، وابنه ركن الدين ابراهيم (695 هـ / 1296م)، فلم ينعم

(61) المصدر نفسه، 50 ـ 51.

أي منهم بالسلطة إلاّ لفترة وجيزة. كانت فترة بلبان نفسه (664 ـ 685 هـ / 1266 ـ 1287م) هي الأطول، لحقتها بصورة قريبة، فترة حكم آخر الشمسيين، ناصر الدين محمود شاه (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)؛ ولدى طرح مجموع هاتين الفترتين من المدة الإجمالية، فإن الزمن الوسطي لكل عهد يبقى أقل من عام قمري واحد. إن الوحيد الذي يُعرف يقيناً، أنه مات ميتة طبيعية بين السلاطين العشرة، هو بلبان. بقي مصير سلفه غامضاً، أما الآخرون، فكانوا ضحايا أعمال عنف، بدفع من، أو في أعقاب اعتلاء، الحاكم الذي حل محلهم، العرش في جميع الحالات، باستثناء واحدة؛ وقد كانت الحالة الاستثنائية، حالة رضية، على أيدي هندوس في أعقاب محاولة فاشلة، للإطاحة بخلفها.

لم يكن ثمة أي نظام للخلافة على ما يبدو، فضلاً عن أن دور التنصيب، كان محدوداً إلى الحدود القصوى: ما من سلطان قبل غياث الدين تُغْلُق شاه (المتوفى سنة 724 هـ / 1324م). خلفه وريثه المعيَّن، مع الاستثناء الممكن لمؤسس السلطنة. وبمقدار ما نعلم، ما من شمسي حصل على فرصة تسمية خَلَف: بل وليس معروفاً حتى ما إذا كانت رضية، أو بهرم شاه، أو مسعود شاه قد خلَّف ذرية أم لا، أو ما إذا كان أحد من أبناء محمود شاه، قد عاش بعده أم لا. هذا ولم تكن العمليات التي انخرط فيها بلبان إعداداً للخلافة، أوفر حظاً من نظيراتها لدى أسلافه الشمسيين، لأن كيقباد، كما رأينا، لم يكن وريثه. وما لبث كيقُباد هذا، وابنه أن تعرَّضا للإطاحة والاستبدال، في غضون سنوات قليلة، على يد جلال الدين الذي، حُرم أبناؤه من وراثة العرش، سنة 695 هـ / 1296م، من قبل ابن أخيه، وقاتله علاء الدين.

وهكذا، فإن تاريخ السلطنة، على امتداد الجزء الأكبر من القرن الثالث عشر، لا يبدو شديد التميز، بتوفر أساسيات الحكم المستقر، وهذا يوحي بأن المبدأ الوراثي تلقَّى ضربات موجعة. ومن غير الممكن القول، بأن الوراثة

كانت غير ذات شأن، على الرغم من إخفاق الخلافة في مراعاة أي نمط منطقي. فالارتباط مع كل من الأسر الحاكمة الحالية، والسابقة على حد سواء، يبدو، على النقيض من ذلك، منطوياً على بعض الأهمية والزخم. ولقد تعرضت محاولة مملوك إلتُتْمش، عز الدين بلبان (كوشلو خان لاحقاً)، الرامية إلى إعلان نفسه سلطاناً، بعد الإطاحة ببهرم شاه في 639 هـ / 1242م، للإحباط بفعل التحرك الفوري من قبل جماعة من زملائه، الذين تجمعوا بوقار حول ضريح سيدهم، وضمنوا بقاء العرش في عائلة إلتُتْمش؛ أما عز الدين فقد اضطر لأن يذعن، فوقع الاختيار على علاء الدين مسعود شاه[62]. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع أُلُغ خان بلبان، إذا كان الولاء لأسرة إلتُتْمش الحاكمة على هذه الدرجة من القوة، أن يبرِّر إزاحته لورثة إلتُتْمش من الطريق؟ ليس لدينا أي جواب مؤكد على هذا السؤال. فما فعله بلبان سنة 664 هـ / 1266م، لم يكن أساساً، إلاَّ ما كان عز الدين قد حاول فعله، غير أنه كان، دون شك، قد أمضى وقتاً أطول، دائباً على تثبيت أقدامه في المركز. ثمة ما يدعو إلى الاقتناع، بأن بلبان كان قد تزوج من إحدى بنات إلتُتْمش (كما سنرى). بل كان يتمتع بحقٍّ حُرم منه عز الدين. كان يُظن ـ أو أراد الجوزجاني، الذي كتب سنة 658 هـ / 1260م، أن يظن الناسُ ـ أن بلبان خرج من سلالة خانات قبيلة إلتُتْمش الحاكمة بالذات، سلالة الأولبرلي[63]. وكما يمكننا أن نتصوَّر، فإن ذلك

---

(62) TN، II، 36 (تر. 780).

(63) المصدر السابق، II، 43، 45، 47 ـ 48 (تر. 791، 796، 799 ـ 800)، وأشعار الجوزجاني في مديح بلبان، داعياً إياه «خان الإلباريين وملك (**شاه**) اليَمَكيين»، في II، 220 ـ 221 (تر. 1295)؛ قارن المعلومات عن والد إلتُتْمِش في I، 441 (تر. 599). پ. ب. غولدن «كومانيكا الثاني» الألبرلي: أفراح وأتراح قبيلة بدوية آسيوية داخلية»، AEMA 6 (1986 [1988]، 27 ـ 28. عن اليَمَك أو الكيمك، وهم أقوام تركية تولت رئاسة اتحاد فضفاض لمجموعة قبائل في إقليم إيرتيش إلى أن تفكك [هذا الاتحاد] تحت ضغط القنجاق، انظر **حدود العالم**، ترجمة مينورسكي، 99 ـ 100، وهوامش 304 ـ 310؛ پ. پليو ول. هامبيس، **تاريخ حملات جنكيزخان**. تشنغ ـ وو تسن تشنغ ـ لو (لايدن، =

شكّل جزءاً من حملة دعائية، وُظفت لخدمة مصالح بلبان، حين دقت ساعة اقتلاع الشمسيين من الجذور، بعد عدد قليل فقط من السنين.

ومع ذلك فإن قدرة الدم الشمسي على إضفاء الشرعية لم تتضاءل، حتى في ظل الأسر الحاكمة اللاحقة. فأمير خسرو، يجعل معز الدين كيقباد، يتباهى أمام أبيه، بانتسابه ليس فقط إلى السلطان بلبان، بل وإلى كل من إلتُتْمش وناصر الدين محمود شاه، (الذي كانت ابنتُه أُمه)[64]. بالطبع، لم يكن السلاطين راغبين في تحمّل تلفيق، مثل هذه الروابط من قِبَل الآخرين. فأحد الأسباب التي دعت جلال الدين خَلْجي، أن يرد بقَدْر مفرط من القسوة، على مؤامرة تنصيب الدرويش سيدي مولِّه، ربما كان كامناً في كون مؤيدي الأخير، قد خطَّطوا لتزويجه من إحدى بنات السلطان ناصر الدين (ليس واضحاً أهو الشمسي محمود شاه، أم الغياثي بوغرا خان)[65]. وحين بادرت جماعة في دلهي، بعد بضع سنوات، خلال غياب جلال الدين خَلْجي، في حملة على رنثانبور سنة 700 هـ / 1301م، إلى الإمساك بفرصتها المناسبة، للقيام بثورة وتنصيب أحد الدراويش سلطاناً، فإن بَرَني يعتبر كون ذلك الشخص، حفيد إلتُتْمش من ناحية الأم أمراً يجدر أخذُه بعين الاعتبار[66]. ومن المؤكد أن أحد هواجس علاء الدين، الكامنة وراء منع مماليكه من الدخول في علاقات قربى (قرابات) دون موافقته، كان متمثلاً في الحيلولة، دون قيامهم بعقد روابط اتحادية مع سلالات ملكية أقدم[67].

ما الذي كان يشكِّل أساس، حق السلطان في الحكم، على الصعيد

= 1951، ج ا فقط)، 95 ـ 96؛ غولدن، «شعوب سهوب روسيا الجنوبية»، في د. سينور (محرراً)، **تاريخ آسيا الداخلية المبكر ـ كامبردج**، (كامبردج، 1990م)، 277 ـ 280. نظامي (HN، 251 ـ 252 هـ. 40) يرفض (محقاً دون شك) نسب بلبان الملكي.

(64) QS، 22، HN118 .، 307.

(65) TFS، 210 ـ 211.

(66) المصدر نفسه، 279.

(67) المصدر نفسه، 286.

القانوني؟ نرى أن مصادر القرن الثالث عشر، تعطي بعض الأهمية، لتنصيب أي حاكم جديد عن طريق **(البيعة)**: إعلان التعهد بالولاء[68]. يرد هذا للمرة الأولى سنة 634 هـ / 1236م، حين قام الأمراء الأتراك، الذين تخلوا عن فيروز شاه، باقتحام العاصمة وبايعوا رضيّة، كما يقول الجوزجاني. وعند خلعها عن العرش سنة 637 هـ / 1240م، أدّى الملوك والأمراء «يمين ولاء عام»، **(بيعة عامة)** لكل من بهرم شاه، والنائب آيتكين، الذي شغل هذا المنصب الذي تم استحداثه، في القصر الملكي (الدولت خان) بدلهي. والجوزجاني الذي توحي صياغته، بأنه ربما كان مشاركاً شخصياً في المراسم، يقول بأن الاحتفال حضره «الملوك والأمراء، ورجال الدين (العلماء)، والأعيان، وكبار القوم، والشخصيات القيادية في العسكر والحضرة (العاصمة) (أكابر لشگر وحضرت)». ولدى ورود أنباء سقوط لاهور بيد المغول سنة 639 هـ / 1241م، حرص بهرم شاه، على جعل «أهالي المدينة» (خَلْقي شَهْر)، يكرِّرون بيعتهم مرة أخرى. وبالتالي فإن القَسَم يجب أن يكون قد أدَّاه كبار مواطني دلهي المسلمين، الذين كانوا كما سنرى، لا يزالون يُعتبرون **خَلْق** («الشعب» بامتياز) بنظر برني، بعد ما يزيد عن قرن من الزمن. وعملية توسيع دائرة الأشخاص المطالَبين بالبيعة، ما لبثت أن شكّلت سابقة، بالنسبة إلى الحاكم التالي، لأن الأمراء بادروا، لدى إجلاس علاء الدين على العرش، كما يقال لنا، إلى «سَوْق الشعب إلى تقديم فروض الولاء بصورة عامة» (خلق را بيعتي سنة دادند)[69].

يقدم الجوزجاني أوفى أشكال الوصف **للبيعة**، بمناسبة اعتلاء ناصر الدين محمود شاه، العرش سنة 644 هـ / 1246م، ويبين أن العملية شهدت في الحقيقة طقسين شاملين، لأعيان دلهي ومواطنيها على التوالي:

«هرع الملوك والأمراء، والصدور والكبار (كُبرا)، والسادة (سادات)،

---

(68) إ. تيان «البيعة»، Enc. Isl^2.

(69) TN، ا، 456، 463، 466، 468، وا، 23 (تر. 636، 649، 656، 661، 750 ـ 751).

و«رجال الدين» (العلماء)، إلى البلاط المجيد، ونالوا شرف تقبيل يد ملك الملوك (شاهنشاه)... وكل، بما يناسب مرتبته (حاله)، قدم التهاني على اعتلاء العرش. وفي يوم الثلاثاء الواقع في الخامس والعشرين [من محرم]، عقد اجتماع عام، في الصالة كُشكي فيروزي في (قصر) الدولت خانه؛ وجرت إدارة أداء عام، لقَسَم الولاء (بيعتي عام) من قبل الشعب (خلق) [اعترافاً] بسيادة ذلك... العاهل والتزاماً بالامتثال لمراسيمه (فرماناته)[70].

وعلى الرغم من أننا لا نملك، إلاَّ قدراً أقل من المعلومات عن مبايعة (بيعت) خلفاء محمود شاه، فإن ما يبدو هو أنها أخذت نمطاً مشابهاً، لأن هناك من أبلغ ابن بطوطة، بأن بيعة كيقباد، تمَّت أول الأمر من جانب ملك الأمراء (الكوتوال فخر الدين)، ثم تبعه الأمراء وكبار الضباط، وفي صباح اليوم التالي، جاء دور «باقي الشعب» (أي أهالي دلهي)[71]. منذ عهد بلبان، على الأقل، كان يُنتظر من أي سلطان جديد، أن يأمر بإطلاق سراح السجناء، وهي ممارسة ظلَّت متبعة، حتى زمن جلوس قطب الدين مبارك شاه، على العرش سنة 716 هـ / 1316 م[72].

يعكس توسيع دائرة **البيعة**، الأهمية المتنامية لقيادات مواطني دلهي المسلمين التي سبق لها أن لعبت دوراً معيَّناً في صعود رضيّة، والتي يجب أن تكون قد وفَّرت لبهرم شاه، قَدْراً غير قليل من الدعم، لتمكينه من مقاومة الحصار، على المدينة، لمدة ثلاثة أشهر تقريباً سنة 639 ـ / 1242 م[73]. كما

---

(70) المصدر نفسه، ١، 477 (تر. 675 ـ 676 معدل).

(71) IB، III، 176 ـ 177 (تر. جيب 636). TMS، 39 ـ 40، 53. عن **مبايعة** جلال الدين في كيلوخري، انظر TFS، 181.

(72) أمير حسن دحلاوي، **عشق ـ نامه** (700 هـ / 1301م)، تر. م. إ. بوراه، «عرض موجز لمنسوبة رومانسية غير منشورة لأمير حسن دحلاوي»، NIA، (1939 ـ 1940م)، 260 TFS، FS382 .، 354 (تر. 551 ـ 552).

(73) TN، ١، 467 (تر. 635 ـ 636، 659). IB، III، 166 ـ 167 (تر. حبيب 631). HN، 241 ـ 242.

أن قدرة هؤلاء على التأثير في الأحداث، لم تتوقف بعد قيام كيقباد، بنقل مقر إقامته إلى كيلوخري، الأقرب إلى عيونه ببضعة أميال، والمشار إليها بوصفها «البلدة الجديدة» (شهرى ناو) سنة 658 هـ / 1260 م[74]. وفي 689 هـ / 1290م، مُنع آل جلال الدين خَلْجي، بسبب قربهم من الأسرة الحاكمة الغياثية مع عدائهم للنظام الجديد من الإقامة، والاستقرار في دلهي لبعض الوقت[75]. أحياناً كانوا، أيضاً، يقعون في صدام مع سلطانهم. ففي أعقاب حركة تمرد فاشلة عام 700 هـ / 1301م، صار علاء الدين يشعر بقدر من الكره لأعيان دلهي. جرى نفي الكثير من كبار القوم، وبات السلطان عازفاً عن دخول المدينة ليقيم، بدلاً منها، في الضواحي (عمرانات)؛ وقد يكون جانب من سبب قيامه لاحقاً، بتحصين سيري وجعلها مقراً، عائداً لهذا[76]. وفيما بعد ثمة تقارير تتحدث عن قدر من الضغائن، بين أهالي دلهي ومحمد بن تُغْلُق.

ما زال مؤرِّخو سلطنة دلهي ينتظرون تقنيات التحليل الأدبي، التي اعتمدتها مارلين روبنسون والدمان في رسالتها حول المؤرِّخ الغزنوي، المعروف باسم **البيهقي**[77]. غير أن من الملاحظ، أنهم يتحرَّكون على مستوى مختلف عن مستويات أولئك، الذين باتوا يستخدمون كتاباتهم. لقد

---

(74) عن كيلوخري، انظر TN، II، 83 (تر. 856 ـ 857)؛ يرد الذكر الأول في I، 456 (تر. 634، 636).

(75) TFS، 172، 173.

(76) المصدر نفسه FS283 .، 277 (تر. 453)، يؤكد سخطه. عن علاء الدين وسيري، انظر لال، **تاريخ الخلجيين**، 326.

(77) م. و. فالدمان، **نحو نظرية لكتابة تاريخية: دراسة ميدانية لفن التأريخ الفارسي ـ الإسلامي** (كولومبوس، أوهايو، 1980م) (قارن أيضاً إ. آ. بولياكوفا، «تطور نوع أدبي في التواريخ الفارسية الوسيطة: انتصار الأتيكيت»، **دراسات إيرانية** 17 (1984م)، 237 ـ 256). غير أن عليك أن تنظر بيتر هاردي، «مقاربات الكتابة التاريخية الهندية ـ الإسلامية ما قبل الحديثة: بعضُ عمليات إعادة النظر في 1990 ـ 1991 م»، في بيتر روب (محرراً) **المجتمع والإيديولوجيا. مقالات في تاريخ آسيا الجنوبية قُدمت إلى البروفسور ك. آ. بالهاتشيت** (أوكسفورد ودلهي، 1993م)، 49 ـ 71.

كانوا (وربما برني خصوصاً) يسعون إلى عكس نظام زمني مثالي، يكون فيه العالم محكوماً بصورة مشتركة من قبل رجال علم، وسلاطين متميزين بالتقوى، نظام يكون فيه التغيير مفهوماً لا من منطلق الأعمال البشرية التي يقوم المؤرِّخون أنفسهم بالحديث عنها، بل على أساس العناية (الإلهية)[78]. من المؤكَّد أن من شأن أحكام أي من جوزجاني أو برني، أن يكشف عن الشخصيات الحقيقية، بمقدار ما كان متوقعاً من أي حاكم. كان نشر العدل بين الرعية، والإشراف على شؤون الدولة شخصياً من الأمور الضرورية؛ كان إغراق المؤسسات الخيرية الإسلامية بالهبات السخية، وتكريم رجال الدين «العلماء»، وغيرهم من أفراد الطبقة الدينية والتعامل معهم باحترام، من الفضائل التي امتُدح عليها حتى الشاه المستبد الظالم تركين[79]، والتي كان بهرم شاه مفتقراً إليها بصورة فاضحة. هذا ولم يكن اللين من الفضائل التي تزيِّن أي سلطان. فسعة صدر فيروزشاه وإنسانيته (حلم ومروّه)، تستثيران قدراً ملحوظاً من الإطراء، غير أن عزوفه عن إلحاق الأذى بأي إنسان آخر، يجري تقديمه بوصفه أحد أسباب سقوطه. كما أن تعامل مسعود شاه بالرأفة مع أعمامه الذين أطلق سراحهم من السجن، ما لبث أن وفَّر للأمراء بديلاً مناسباً عن حكمه هو[80]. كان على العاهل أن يعرف كيف ومتى يتصرَّف بقسوة، ومتى يميل إلى إبداء الشفقة والرأفة، متحاشياً بالتالي الموقفين المتطرفين لكل من بلبان وجلال الدين. كثيراً ما جرى تصوير إدمان السلطان على اللهو سبيلاً إلى الفوضى، واعتبار استهجان ومَقْت الترف والأُبَّهة والمظاهر، كما تجلَّت في بلبان شاه، جديراً بالثناء[81]، مثله مثل الكرم، شرط أن يكون موجَّهاً نحو

(78) بيتر هاردي، «المؤرخون المسلمون لسلطنة دلهي: هل ما يقولونه هو ما يعنون بالفعل؟» JASP 9 (1964م)، الجزء الأول، 59 ـ 63؛ أيضاً مقاله، «القوة والعنف» خصوصاً 196 ـ 204.

(79) TN، ١، 454، (تر. 630 ـ 631).

(80) المصدر نفسه، ١، 454، 457، 470 (تر. 630، 637، 664 ـ 665).

(81) المصدر نفسه، ١، 462 (تر. 649).

المستحقين، من ذوي الشأن (لا نحو المقرَّبين من ذوي النسب الوضيع، كما كانت حال سخاء فيروز شاه ومسعود شاه وكيقباد). ولربما تمكَّنَّا أيضاً من أن نلاحظ أن الكرم، كان حيوياً إضفاؤه على الملوك والأمراء الموروثين عن أسلاف السلطان القائم: فكل من الحقبة الشمسية من جهة، وفترة حكم كيقباد من جهة ثانية، ملأى بالقصص المشحونة بالعبر المنبِّهة، حول مصائر السلاطين الذين استهانوا بهذا المبدأ الأخير.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

الأتراك والطاجيك والخَلْج[1]

الأتراك والمماليك العسكريون

تتضمن الطبقة الثانية والعشرون من عمل الجوزجاني، سِيَر حياة خمسة وعشرين غلاماً أو مملوكاً شمسياً. وعلى الرغم من أن المؤرِّخ لا يُلْصِق صفة العبودية، أو المملوكية بكل حالة، فإن استخدامه لكلمة «تركي»، تعني في مصطَلَحِهِ مملوكاً تركياً، (انظر الملحق رقم: 1). فعدد من هؤلاء الأمراء، كانوا قد مُنحوا، خلال عهد إلتُتْمش، ألقاباً تركية منطوية على عنصر **خان** - وهي ألقاب لم تكن، كما ينبغي أن نلاحظ، ملازمة للأعيان الغوريين، أو الطاجيك، مما يجعلها تمثل ظاهرة جديدة أو بِدْعة[2]. ومع ذلك فإن عدداً لا يستهان به من الخمسة والعشرين، لم يحصلوا على مناصب عالية، إلاَّ بعد وفاة سيدهم ببعض الوقت. ويحظى سلطان المستقبل بلبان، بوصفه وليَّ نعمة الجوزجاني بالذات، ونائب العاهل الحاكم، بالسيرة الأطول. كذلك نجد قائمة الغلمان التي تمثلها السِّيَر بعيدة، بطبيعة الحال، عن أن تكون شاملة؛ فهنا وفي أماكن أخرى من **الطبقات**، ثمة آخرون من مماليك إلتُتْمش، ممن لم

(1) ليس هذا الفصل إلاَّ نسخة موسَّعة جداً لمقالي «المؤسسة **المملوكية** في الهند الإسلامية المبكرة»، JRAS (1990م)، 340 ـ 358.

(2) ع. حبيب، «**تشكل**»، 11 و هـ. 62.

obeikandl.com

يجر تخصيصهم بسِيَر حياة مستقلة، يتم لفت أنظارنا إليهم.

يساعد انحياز الطبقة الثانية والعشرين الصارخة، إلى الضباط المماليك الأتراك، على طَمْس إحدى الحقائق المهمة. إذ لم يتمتَّع الغلمان الأتراك، في أي وقت، باحتكار المراتب، والمناصب التي يبدو أنهم درجوا على شَغْلها في مصر. وثمة فرق آخر ذو أهمية، كان متمثلاً بفُرَص التقدم المتاحة لذراري الغلمان في سلطنة دلهي. ولم تكن تلك هي الحال في مصر، حيث كان أبناء المماليك ـ **أولاد الناس** ـ يتعرَّضون للاستبعاد المتعمَّد من المناصب الأعلى في الدولة[3]. في الهند أيضاً كان الغلمان الأتراك، ملزمين باقتسام السلطة مع جماعات أخرى غير مملوكية، ضمَّت ليس فقط أعياناً من الأتراك، والخَلْج والغوريين والطاجيك، والمغول (بدءاً بعهد بلبان)، بل وعناصر مملوكية أخرى، سوداء إفريقية (**أحباشاً**، من «الحبشة» حرفياً)[4] من جهة، وهندية من جهة ثانية. وعلى الرغم من أن الجوزجاني يأتي على ذكر مُشاة، بايك[5]، هندوس منخرطين في حملات إسلامية، فإننا لا نقرأ عن هؤلاء، بوصفهم مشكِّلين حَرَساً ملكياً، حتى عهد بلبان؛ ولم يضطلعوا بدور أبرز، إلاَّ في الحقبة الخَلْجية. أخيراً صارت الوحدات الأفغانية، جزءاً من المؤسسة العسكرية لدى سلطنة القرن الثالث عشر، رغم أنها لا تظهر في المصادر إلاَّ لماماً[6].

يستحيل التوثيق لتدريب المماليك الأتراك في السلطنة، كما جرى بالنسبة

---

(3) د. أيالون، «دراسات حول بنية الجيش المملوكي ـ II»، BSOAS 15 (1953م)، 456 ـ 458، طُبعت ثانيةً في كتابه **دراسات حول مماليك مصر (1250 ـ 1517م)** (لندن، 1977م)؛ انظر أيضاً مقاله «أولاد الناس»، Enc. Isl.[2].

(4) سي. ف. بكينغهام، «جيش، حبشه III»، Enc. Isl[2].

(5) السير هنري يول وآ. س. بورنل، هوبسون ـ جوبسون: **مسرد الكلمات والتعبيرات الأنجلو ـ هندية العامية** طبعة جديدة، ف. كروك (لندن، 1903)، 748 ـ 749، «Paik, pyke».

(6) TN، II، 80 (تر. 852). TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 52 (مقتطفات تر. في ميرزا، **حياة وأعمال**، 51 ـ 52). QS، 47. TFS. 58.

إلى مصر المملوكية، أو القيام بمَسْح لفصائل المماليك، من ذلك النوع الذي كتبه البروفسور إدموند بوزوورث عن الغزنويين[7]. يمكننا أن نخمِّن، حتى في غياب تلميحات الجوزجاني العابرة، أن الإنجازات ذات القيمة الاستثنائية، كانت محصورةً في مهارتي الفروسية والرماية[8]. غير أن ذلك لا يعني أن مهارات أخرى لم تكن معروفة؛ فقد سبق لأيبك أن تلقَّى من سيِّده تعليماً في مجال تلاوة القرآن، مما جعله يُعرف بلقب **قرآن ـ خوان**[9]. لا تنبئنا المراجع عادةً بالمنعطف، الذي كان يتم فيه عتْق المملوك أو العبد. يزعم الجوزجاني أن كلاً من آيبك ويلدز، طالبا السلطان الغوري الجديد، بالتحرير لدى موت معز الدين. وحسب ما يقوله المؤلِّف نفسه، فإن إلتتمش كان قد حصل من آيبك، على حريته بتوجيه صريح من معز الدين حتى قبل ذلك، وقد سمع ابن بطوطة لاحقاً، قصة تقول بأنه أبرز صك إعتاقه أمام قضاة دلهي، حين أصبح سلطاناً[10]. ونعلم من برني وحده أن بلبان، كان قد أُعتق في موعد سبق اعتلاءه العرش[11]. لقد حمل مماليك السلطان الحاكم لقب «السلطاني»[12]. ومن غير الواضح، ما إذا كان ثمة أية **نقيصة** cursus honorum، قابلة للتعرف عليها في ثنايا هذا اللقب.

تكشف المعلومات، المقدمة إلينا عن المماليك الشمسيين الخمسة والعشرين، عن أصول إثنية (عرقية) وجغرافية مختلفة. واحد منهم فقط كان

---

(7) حَسَنين ربيع، «تدريب الفارس المملوكي»، في باري وياب، **الحرب والتكنولوجيا والمجتمع**، 153 ـ 163. سي. إ. بوزوورث، «التنظيم العسكري الغزنوي»، مجلة الإسلام الألمانية 36 (1960م)، 40 ـ 50. أيضاً في المكان نفسه، **الغزنويون**، 101ـ 106.

(8) TN، I، 416 (تر. 513)، عن آيبك؛ I، 443 (تر. 604 ـ 605)، عن مآثر إلتُتْمِش في المعركة مع الخوخار؛ II، 27 (تر. 756)، عن كِرت خان.

(9) SA، 21.

(10) TN، I، 373، 444 (تر. 398، 605). IB، III، 164 (تر. جيب 629 ـ 630).

(11) TFS، 25، **آزاد شودا** (بالإذن من نظامي، في HN، 281).

(12) HN، 224. عزيز أحمد «النواة التركية المبكرة في الهند»، تُركيكا 9 (1977م)، 101، 102، يفترض خطأ أن الذيل يعني مهاجرين أحراراً.

على ما يبدو هندوسياً، ربما كان شاغلاً لمنصب مدبِّر البيت، المسؤول الأول عن غلمان السلطان، لأن الجوزجاني يقول إنه كان يحمل لقب **مختاري مبارك**، كما كان بمثابة الأب بالنسبة إلى نظرائه الشمسيين[13]. كانت جماعة الغلمان الأتراك، تضم أفراداً من الروم، (يفترض أن يكونوا يونانيين أو صقالبة [سلافاً]، من المناطق البيزنطية)[14]، و«خِطائيين» (من الصين الشمالية)، ممن كانت أصولهم الإثنية قابلة، أو غير قابلة للتمييز عن أصول القَرَه خِطائيين (أي قره خطاي)[15]. كان الكثير من الشمسيين، ينتمون إلى القِبجاق، تلك المجموعة من القبائل، التي كانت تشغل السهوب، الممتدة إلى الشمال من البحرين الأسود وقزوين[16]. أخيراً لا بدَّ من الإتيان، بشكل خاص، على ذكر أولئك المنتمين إلى قوم إلتُتْمش بالذات، وإلى الأولْبَرلي، تلك الجماعة الفرعية المنتسبة إلى القِبجاق، (أو ربما القانغلي الذين كانوا وثيقي القرب منهم). لقد كان سلطان المستقبل بهاء الدين بلبان، المعروف باسم بلباني خورد (الأصغر) واحداً منهم[17].

---

(13) TN، II، 18 ـ 19 (تر. 744 ـ 746). عن وضع **مِهتار ـ ي ساراي ـ ي** في البلاط الغزنوي، انظر بوزوورث، **الغزنويون**، 104.

(14) عز الدين كبير خان آياز (آقاز، «واضح» «بلا ضباب»: سوفاجيه، «الأسماء والألقاب»، رقم 36) بدر الدين سنقر «الطير الحر ـ الصقر»: المصدر نفسه، رقم: 22، وبدر الدين سنقر آخر سيحصل لاحقاً على لقب نُصرت خان: TN، II، 5، 24، 42 (تر. 724، 752، 787).

(15) الخطائيون: سيف الدين آيبك، الملقب **باغتوت** («صَيّاد الفيلة») وسيف الدين إيكيت خان آيبكي خطاي ـ ي، المصدر السابق، II، 9، 28 (تر. 731، 757). القره خطائيون: عز الدين طغرل توغان خان (**توغان**، «صقر»: سوفاجيه، رقم: 140)، اختيار الدين آيتغين قراقوش خان (**آيتغين**، «قمر ـ أمير»: المصدر نفسه، رقم: 41؛ قراقوش «طير أسود»: كلاوسون، **قاموس جذور**. . . 670) واختيار الدين آيتغين آخر (المملوك الأول الذي لن يلبث لاحقاً أن يتولى منصب نائب): TN، II، 13، 19، 22 (تر. 736، 746، 749). عن لقب إيكيت خان انظر ص 73، هـ. 76 من هذا الكتاب.

(16) قمر الدين قيران تَمُر خان؛ تاج الدين سنجر، ملقب بـ **قَبه قولاق**: انظر كلاوسون **قاموس جذور**. . . 580 ـ 581، 621، وجاكسون «**مؤسسة مملوكية**» 342 هـ. 7)؛ تاج الدين سنجر كِرت خان؛ اختيار الدين يوزبغ طغرل خان: عز الدين بلبان (لُقّب لاحقاً كوشلوخان)؛ وسيف الدين آيبك شمس ـ ي عجمي: TN، II، 17، 25، 27، 30، 36، 40 (تر. 742، 754، 756، 775، 788 ـ 789).

(17) لتمييزه عن عز الدين بلبان (انظر الهامشين السابقين واللاحقين). أمّا الآخرون فكانوا أخاه سيف =

على الرغم من أن الشمسيين، ضمُّوا عدداً من الغلمان السابقين لحكام آخرين[18]، فإن أكثرهم تم الحصول عليهم، من تجار الرقيق بصورة مباشرة: فقد سمع ابن بطوطة بعد زمن طويل، أن السلطان إلتُتْمش أوفد تجاراً إلى كل من سمرقند، وبخارى وتِرمِذ لشراء المماليك الأتراك لصالحه[19]. وقد تأرجح تاريخ الشراء عبر فترة غير قصيرة من الزمن، بدءاً بتولي إلتُتْمش منصب مُقْطَع بَرَن[20]. كانت أشكال وصول الشباب الأتراك، الموجهين إلى مصر وسورية إلى أيدي تجار الرقيق متباينة[21]، ويجب قول الشيء ذاته عن الهند الإسلامية. يقال إن إلتُتْمش بالذات، كان قد بيع رقيقاً من قِبَل أشقائه الغيورين، مما مكّن الجوزجاني من تشبيهه بالنبي يوسف (القرآن الكريم، السورة: 12؛ الآيات 7 ـ 20)[22]. أما عن سيف الدين آيبك (دادبغ لاحقاً)، فيقال أن استعباده تم «بسبب فساد علاقات القربى». وثمة اثنان آخران أُشيع عنهما، أنهما من أصول مسلمة، وقد كان استعبادهما، بالتالي، غير شرعي[23]. يقال إن كشلي خان، قد جرى

= الدين آيبك (لُقّب كيشلي خان لاحقاً)؛ وابن عمهما نُصرت الدين سنجر (شيرخان): يقرأ اسم شيرخان في رافيرتي على شكل سنقر؛ غير أن مخطوطة BL، ملف 211 أ، ومخطوطة IOL ملف 291 ب، تقولان س ن ج ر. وعن إلحاق إلتُتْمش وهؤلاء الغلمان بالألبرلي، انظر TN، I، 440، 441 وII، 43، 45، 47 (تر. 598، 599، 791، 796، 800)؛ أيضاً غولدن، «كومانيكا II الأوبرلي». عن علاقة القبجاق ـ قاتغلي، انظر پليو وهامبيس، **تاريخ حملات**.. 95 ـ 115؛ **حدود العالم**، تر. مينورسكي، 304 ـ 310؛ سي. إ. بوزوورث، «كانغلي» Enc. Isl².

(18) عز الدين كبير خان آياز تم شراؤه من عائلة **أميري شيكار** يلدز؛ ناصر الدين أيتَمُر البهائي، أخذ اسمه لأنه كان مملوكاً لبهاء الدين طغرل؛ ونصرت الدين تايسي، وقد سبق له أن كان مملوكاً لمعز الدين نفسه: TN، II، 5، 7، 10 (تر. 724 ـ 725، 727، 732). أمّا معنى اسم تايسي الذي يرد بصورة مطردة على شكل ت ا ي س ي في مخطوطة BL (ملف 182 ب، 199 ب، 200 ب، 202 أ)، فليس معروفاً.

(19) IB، III، 171 (تر. جيب، 633).

(20) TN، II، 4 (تر. 723).

(21) د. آيالون، «مملوك»، Enc. Isl²، VI، 314.

(22) TN، I، 441 (تر. 599 ـ 600)؛ وقارن مع الملاحظات عن يوسف (جوزيف) في I، 439، (تر. 596 ـ 597).

(23) سيف الدين: عبارة محذوفة في طبعة حبيبي، المصدر السابق، II، 41، ولكن قارن مع مخطوطة BL، ملف 211 آ، **باعِنادي أقربا**، الأبوة الإسلامية: TN، II، 24، 33 ـ 34 (تر. 752، 766).

استعباده صغيراً، جراء وقوعه بأيدي المغول[24]. فمنذ عشرينيات القرن الثالث عشر، تمخض تقدم المغول نحو الغرب، عن زيادة حادة في أعداد المماليك الأتراك المعروضين للبيع، خصوصاً من السهوب الممتدة شمالي البحرين الأسود وقزوين. دأب الحكام عديمو الضمير، على الإمساك بأولئك الذين كانوا يلوذون بهم، طلباً للحماية وتحويلهم إلى أسرى معروضين للبيع، كما فعل الزعيم التركي في القرم الذي قام، سنة 640 هـ / 1242 ـ 1243م، ببيع سلطان المستقبل المملوكي بيبرس[25]. وثمة هاربون يائسون لا حول لهم ولا قوة، كانوا يضطرون إلى مقايضة أولادهم بحاجات الحياة الضرورية؛ كما أن الفاتحين أنفسهم، دأبوا على تحويل الغنائم البشرية إلى أصول أكثر سيولة، عن طريق التخلص من أسراهم ذوي الأجساد السليمة في السوق. ومن الممكن أن يكون إلتُتْمش أيضاً قد أفاد من الاضطرابات الداخلية العنيفة، التي أصابت قوم الأولْبرلي المبتلىٰ بالويلات[26].

تبقى إغراءات امتلاك جيش نخبوي، مؤلف من مماليك عسكريين ليسوا من ذوي الارتباطات المحلية، ويكون ولاؤهم الوحيد للسيد الذي اشتراهم ورعاهم، وأعالهم، ودرَّبهم (وأعتقهم أحياناً) قويةً وظاهرة. ثمة عدد من المؤلفين، بمن فيهم الأديب المعروف الجاحظ في القرن التاسع، وابن حصّول في القرن الحادي عشر، والوزير السلجوقي نظام الملك (متوفى سنة 485 هـ / 1092م)، دأبوا على إطراء الغلمان الأتراك[27]. وفي مطلع القرن الثالث عشر،

---

(24) المصدر نفسه، II، 45 (تر. 796).

(25) بيتر ثورو، **أَسَدُ مصر: السلطان بيبرس الأول والشرق الأدنى في القرن الثالث عشر**، تر. ب. م. هولت (لندن، 1992)، 28. اليونيني، **الذيل على مرآة الزمان** (حيدر آباد، AP، 1374 ـ 1381 هـ) 1954 ـ 1961م، 4 أجزاء)، III، 240.

(26) TN، II، 45 (تر. 796). غولدن «كومانيكا II. الألبرلي»، 28؛ وتوماس ت. آلسن، «مدخل إلى الحملات الغربية: العمليات العسكرية المغولية في منطقة الفولغا ـ الأورال، 1217 ـ 1237 م» AEMA 3 (1983م)، 5 ـ 24 (خصوصاً 16).

(27) سي. ت. هارلي ووكر «رسالة الجاحظ البصري إلى الفتح ابن خاقان عن مآثر الترك وجند الخلافة =

كان فخر مدبِّر (المعروف بأنه كان يكتب لعاهل، كان هو نفسه مملوكاً أو غلاماً) الاسم الأخير في لائحة المؤلفين الذين احترفوا ذلك. يقول:

> ليس هناك أقوام من الكفار، يجري دخولهم في الإسلام، ولا يبقون متطلعين نحو الوطن، والأم والأب والأقارب: صحيح أن كثيراً من هؤلاء، يحسُنُ إسلامهم ويستمر، غير أن بعضهم سرعان ما يرتدون، وينتكسون عائدين إلى مجاهل الوثنية. أما الاستثناء، فنجده عند الجنس التركي، عند الأتراك الذين يبادرون، لحظة إدخالهم في الإسلام، إلى التعلق، بصِدقٍ وثبات، بالدين الجديد، تعلقاً شديداً ينسيهم الوطن، أو المنطقة أو الأقارب أو الأهل... إن التركي شبيه باللؤلؤة القابعة داخل المحارة في عمق البحر؛ تلك اللؤلؤة التي لا قيمة لها، ولا وزن طوال مدة بقائها داخل قوقعتها؛ غير أنها لا تلبث، لحظة خروجها من المحارة ومن البحر، أن تكتسب قيمة وتغدو ثمينة، تزين تيجان الملوك، وتتصدر أعناق العرائس وآذانهن[28].

غير أن هذا لا يعني أن المعاصرين، كانوا غافلين عن عيوب الأتراك. ففي إحدى نوادر عوفي، يتعمد إلتُتْمش اختيار أحد الطاجيك، لتقصي مصالح

= عموماً» JRAS (1915م) 631 ـ 397 (خصوصاً 662 وبعدها، 682، 685). ابن حسول، **رسالة**، تحقيق عباس عزاوي وتر. شرف الدين يلتقايا «أحد مؤلفات ابن حسول عن الأتراك»، نشرة 4 (1940م)، النص العربي 40 ـ 43، تر. تركية 259 ـ 261 (أنا مدين بهذه الإشارة للطف الدكتورة كارول هيلنبراند). ثمة فقرات من هذا المقطع الأخير مترجمة في مقال د. آيالون، «مماليك السلاجقة: قوة الإسلام العسكرية عند مفترق الطرق»، JRAS، السلسلة 3، 6 (1996م)، 314 ـ 315. تابع في المصدر نفسه، 316 ـ 319؛ وللمزيد من الإشارات، المصدر ذاته، «أبعاد ظاهرة المماليك، I. أهمية المؤسسة المملوكية»، **مجلة إسلام**، 53 (1976م)، 212 ـ 216، طُبعت ثانية في كتابه **المجتمع العسكري المملوكي**؛ آندري وينك، «الهند وآسيا الوسطى: مجيء الأتراك في القرن الحادي عشر»، في آ. و. فان دن هويك وآخرين (محررين)، **الطقوس، الدولة والتاريخ في جنوب آسيا**. مقالات تكريماً ل ج. سي. هيسترمان (لايدن، 1992)، 764 ـ 765.

(28) SA، 35 ـ 37.

أحد الضباط المالية، وهي مهمة حساسة لا يُعهد بها إلى تركي، لأن «**تهوره**»، يكون من شأنه أن يجعله غير مؤهل[29]. ليست مسألة مدى عمق غَرْس الإسلام، في قلوب أبناء ذلك الجيل الأول من المهتدين الجدد قضية ذات شأن. فأصول المماليك وجذورهم، كانت ممتدة إلى السهوب الوثنية المترامية في آسيا الوسطى والغربية، على الرغم من احتمال تمتعهم بالمحاسن الناجمة، عن الحصول على تربية إسلامية متشدِّدة. لسنا هنا بصدد التحرِّي عن استمرار، وجود وثنيين مستترين باقين في الجماعات التركية المسلمة[30]؛ غير أن من شأن تنصيب رضيّة، أن يكون ذا دلالة. على الرغم من أن اعتلاء ملكة (بدلاً من ملك) عرش البلاد، كان أمراً غير مسبوق في العالم الإسلامي، فإن قائمة سلاطين **قرة ـ خيطاي** في القرن الثاني عشر، تتضمَّن مثالين. وكما سبق لنا أن رأينا، فإن بعض غلمان إلتُتْمش، كانوا ينتمون إلى الخيطان، أو القَرَه ـ خيطان، وكانت المرأة في السهوب الشرقية، تتمتع عموماً بقدر أكبر من الحرية[31]. ومن الاحتمالات الواردة بقوة، أن الضباط الأتراك كانوا، في عملية تربيتهم لابنة سيدهم، شديدي التأثر بخلفيتهم الوثنية.

مشكلة الشيهلغانيين

مع أن كتاب **تاريخي فيروز شاهي** للبرني، يبدأ بجلوس بلبان على

---

(29) JH، مخطوطة BL، مسلسل 2676، ملف 263 ب.

(30) ج. پ. رو، «تحري البقايا الموروثة عما قبل الإسلام في النصوص الإسلامية التركية: **البابر ـ نامه**» JA 256 (1968م)، 247 ـ 261، و«تحري البقايا الموروثة عما قبل الإسلام في النصوص الإسلامية التركية: كتاب **دَهْ دَه قرقوت**»، JA 264 (1976م)، 35 ـ 55.

(31) الفكرة أوردها حبيب الله، «سلطانه رضية (كذا)»، IHO 16 (1940)، 752، رغم أن أمثلته الأخرى تضم ملكات. انظر أيضاً مقالي، «سلطانه رضية بنت إلتُتْمِش» في غافين ر. ج. هامبلي (محرراً)، **النساء في العالم الإسلامي الوسيط: النفوذ والولاية والتقوى** (نيويورك، 1998م)، 181 ـ 197. عن القره خِطاي، انظر كارل آ. فيتفوغل وفنغ تشياتشنغ، **تاريخ المجتمع الصيني: لياو** 907 ـ 1125م (فيلادلفيا، 1949م)، 643، 644، 646؛ أيضاً الملاحظات حول حكام اللياو في الصين، المصدر نفسه، 199 ـ 202. لم يكن الجوزجاني منتبهاً إلاّ إلى واحدة من ملكات القره خيطاي: TN، II، 95 ـ 96 (تر. 911).

العرش، فإن المؤلف يصدِّر روايته لقصة العهد، ببعض الملاحظات عن أسلاف بلبان. صحيح أنها ملاحظات شديدة الإيجاز، غير أنها تحاول، على الأقل، أن تضفي شيئاً من المعنى على الحقبة الشمسية. يقول برني:

> كانت أفواج من مشاهير الملوك والأمراء... مع الكثير من الوزراء والأعيان، (معارف) [في أيام إلتُتْمش]، تلوذ ببلاط السلطان شمس الدين [إلتُتْمش]، خوفاً من ذَبْح وإرهاب، المغولي اللعين جنكيزخان... غير أن مماليكه الشيهلغانيين الأتراك، ما لبثوا أن أصبحوا أصحاب نفوذ وسطوة بعد موت السلطان شمس الدين. لقد عجز أبناء شمس الدين عن أداء... واجبات النظام الملكي... ونتيجة تصاعد نفوذ المماليك الشمسيين الأتراك، تعرض جميع الرجال العظماء من ذوي الأنساب الرفيعة... للتدمير بسائر الذرائع المختلفة، خلال عهود أبناء شمس الدين، الذين لم تكن لديهم أية فكرة عن العالم أو عن الحكم. وبعد استئصال أولئك النبلاء، والقادة من الجذور صعد نجم المماليك الشمسيين، وأصبحوا أمراء (خانات). حصل كل منهم على الثروات الجديدة، والقصور ومظاهر الابَّهة والتميُّز... ولأن المماليك الشمسيين كانوا عائدين لسيِّدٍ واحد (خواجاطاش بودا)، ولأن الأربعين جميعاً أصبحوا عظماء دفعة واحدة، فإن أحداً منهم لم ينحن أمام غيره، كما لم يمتثل لأوامر هذا الآخر، وحرصوا جميعاً على المطالبة بالمساواة في الإقطاعات، والجنود والمناصب الرفيعة وألقاب الشرف... ما لبث النظام الملكي أن فقد كل أشكال الجلال والبهاء، نتيجة تجربة أبناء إلتُتْمش من جهة، وسِيادة المماليك الشمسيين وتفوقهم من جهة ثانية[32].

(32) TFS، 27 ـ 28؛ وللاطلاع على ترجمة أوفى للمقطع، انظر: حبيب «تشكُّل»، 15 ـ 16. ثمة إشارة موجزة إلى هذه الحقبة من تاريخ السلطنة في TFS، 550.

من كان الشيهلغانيون؟ جرى الغوص في هذا السؤال، عبر مقال مثير كتبه البروفسور غافين همبلي، الذي لم يتوصل إلى أية نتيجة محدَّدة، بشأن أصل أو معنى عبارة لم يستخدمها الجوزجاني، أو أي مرجع هندي آخر، عدا كتاب برني في الحقيقة[33]. صحيح أن برني يستخدم كلمة «أربعين» (شهل) ككلمة بديلة، مما دفع مؤلّفي القرن السادس عشر هراوي وفرشتا إلى افتراض أن إلتُتْمش، كان يملك أربعين مملوكاً. وما لبث هذا أن أغرى مؤرِّخين آخرين مُحدَثين لكلام عن «مجموعة» مؤلفة من أربعين[34]. يبقى المفهوم، مع ذلك، ذا قيمة ملتبسة. فبين كل مناسبة وأخرى، يلجأ برني إلى الرقم التوزيعي الذي يعني بقوة بأن الشيهلغانيين، أخذوا هذا الاسم، لأن كلاً منهم كان يقود فرقة مؤلفة من أربعين مملوكاً. ومن الجدير بالملاحظة أن مصر المعاصرة، كانت شاهداً على وجود أمراء يقودون، وحدات مملوكية أربعينية؛ ربما يتعيَّن علينا أن نستخلص أن الشيهلغانيين، كانوا يشكِّلون مجموعة موازية من القادة، داخل صفوف مماليك إلتُتْمش الشمسيين[35]. وكما يلاحظ همبلي، فإن برني لا ينسب، إلاَّ ثلاثة أمراء بالاسم إلى صفوف الشيهلغانيين[36]؛ جدير بالملاحظة أنهم جميعاً من غلمان إلتُتْمش الصغار نسبياً.

---

(33) غافين ر. ج. هامبلي، «من كان الشيهلغانيون: المماليك الأربعون لسلطان دلهي، شمس الدين إلتُتْمِش؟» **إيران** 10 (1972م)، 57 ـ 62. وعن وجهة نظر بديلة، انظر خُرّم قادر، «الأميراني شيهلغان في شمال الهند»، JCA 4، رقم: 2 (1981م)، 59 ـ 146.

(34) نظام الدين أحمد هراوي، **طبقات ـ ي أكبر ـ ي**، تحقيق ب. دي (كالكوتا، 1931 ـ 1935م، 3 أجزاء)، I، 78 (تر. 93)، وفيريشتا، I، 130. ربما تأثر كلاهما بـ «قصة عصامي القائلة إن إلتُتْمِش كان قد حصل على أربعين مملوكاً شراءً باستثناء بلبان، سلطان المستقبل: FS، 122 (تر. 238). وعن «المجموعة»، انظر هيغ في **تاريخ الهند ـ كامبردج**، III، 61 ـ 62؛ حبيب الله، **أساس**، 346؛ نظامي، **بعض جوانب**، 127 هـ. 7، وفي HN، 232 ـ 234، I. حبيب، «تشكُّل»، 16، ينظر إلى «أربعين» نظرة أقل حرفية.

(35) آيالون، «دراسات في بنية الجيش المملوكي ـ II»، 469 ـ 470.

(36) أولوغ خان بلبان، ابن عمه شيرخان، وتَمُرخان (مقطع سامانا وسُنَام لاحقاً بعد وفاة شيرخان: ص: 77 من هذا الكتاب): TFS، 25، 65؛ همبلي، «من كان الشيهلغانيون؟»، 61.

صعود الغلمان الشمسيين

ليس الصراع الدامي الذي لخَّصه برني مذكوراً بوضوح من قبل الجوزجاني، الذي كتب حين كانت هيمنة الغلمان الشمسيين في أوجها؛ غير أن البداية مرئية بجلاء في روايته لحقبة ورثة إلتُتْمش المضطربة. فحسب أقوى الاحتمالات بالغ فيروز شاه الذي أَخْفَق، برأي عصامي، في إيلاء مماليك أبيه الأتراك اهتماماً كافياً[37]، في الاعتماد على عدد من البيروقراطيين الطاجيك الذين تعرَّضوا للذبح في ترائن أثناء حملة السلطان على كبير خان المتمرِّد وحلفائه، على أيدي المماليك الأتراك. أما رضيّة، فقد تمتَّعت، على النقيض من ذلك، بدعم فعال من جانب غلمان أبيها الأتراك، (**أمرائي ترك كي بندغاني شمسي بودند**)[38]. غير أنها سرعان ما بدأت ببناء مركز قوة خاص. فحين مات سيف الدين آيبك تُتُق التركي، الذي كانت قد عيَّنته نائباً لها في قيادة الجيش (نائبي لشگر)، باسم قُطْلُغ خان عام 635 هـ / 1237م، لم ينتقل المنصب إلى تركي آخر، بل إلى الأمير الغوري قطب الدين حسن بن علي[39]. وقد تم إنزالها عن العرش لأنها بترقيتها لعبد (حَبَشي) إفريقي يدعى جمال الدين ياقوت، إلى منصب مسؤول الحظائر (أمير آخور)، كانت قد أثارت حفيظة «الملوك والأمراء الأتراك، الذين كانوا مماليك إلتُتْمش»، ولا

---

(37) FS، 130 (تر. 248، غير أن هـ. 1 في المصدر نفسه مضلِّل لأنه يورد أمثلة عن نبلاء لم يكونوا مماليك).

(38) TN، II، 36 (تر. 779)؛ في I، 458 (تر. 640)، يطلق عليهم اسم **أمراء ـ ي ترك** ببساطة.

(39) المصدر السابق، I، 459 (تر. 641 ـ 642). اسم سيف الدين المستعار الوارد على شكل ب هـ ت و في نص حبيبي و«بيهاق» عند رافيرتي، يظهر ك ت ت ق في مخطوطة BL، ملف 182 ب، 183 أ. يبدو هذا مثل لقب تو. الذي يعني **توتوق / توتاق**، الذي يمكن النظر بشأنه في مقال دنيس سينور، «استعادة لقب تُتُق التركي»، في **تركيات ومشرقيات. دراسات على شرف غونار يارينغ** (استانبول، 1988)، 145 ـ 148؛ وبالتناوب يمكن أن يكون اسماً ثانياً بمعنى تُتُق: «ألثغ» (كلاوسون، **قاموس أصول الكلمات**، 453)، أو «شفة» سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 124). عن هذا الضريح في أبوهار، انظر ARIE (1970 ـ 1971)، 18 ـ 19، 119 (رقم: 4).

سيما الحاجب **(أمير حاجب)** اختيار الدين آيتكين[40]. صحيح أن انتفاضة قادها كبير خان في لاهور عام 636 هـ / 1239م أخفقت، غير أن آيتكين وحليفه آلتونابا، حاكم تبرهند، ما لبثا أن نجحا في إثارة حركة تمرد، فيما كان السلطان في حملة، فتم إعدام ياقوت، أما رضيّة فتم احتجازها في تبرهند تحت مراقبة آلتونابا[41].

مع تنصيب معز الدين بهرم شاه (637 ـ 639 هـ / 1240 ـ 1242م)، تقدَّم الأمراء خطوات إضافية، على طريق تركيز السلطة بأيديهم دون غيرهم، مع الاستحداث الرسمي لمنصب نائب الملك، الذي مُنح للحاجب (أمير حاجب) آيتكين، (من اللافت للنظر) أن **(بيعتهم)**، تأديتهم ليمين الولاء للسلطان الجديد كانت مشروطة بتعيين آيتكين[42]. غير أن بهرم شاه، ما لبث أن شعر بالسخط على مولاه، حين أقدم آيتكين على اغتصاب بعض الامتيازات الملكية، وأمر بالإجهاز عليه، اغتيالاً في محرم 638 هـ / تموز 1240 م؛ فتعرض منصب النائب للانتكاس[43]. ولفترة قصيرة من الوقت، بقي توجيه الأمور بيد شمسي آخر هو الحاجب **(أمير حاجب)** الجديد، بدر الدين سُنْقُري رومي. وقد أدَّى سُنْقُر هذا، خدمةً جليلة للسلطان في حملته ضد آلتونابا، الذي كان قد رد على استئصال حليفه آيتكين، بالزواج من رضيّة، والسير إلى دلهي لاستعادة عرشها[44]. ومع ذلك فإن الدور الرئيسي، كان قد بدأ ينتقل إلى نظام الملك

---

(40) HN، 240، 243II .، TN، 21، 22 TN، 231 (تر. 748، 750)؛ مخطوطة BL، ملف 183 هـ، تعطي ياقوت لقب **أمير أمراء**، عبارة محذوفة من النص المطبوع لـ TN (1، 460).

(41) انظر عموماً حبيب الله، **أساس**، 119 ـ 121. تكون تهجئة اسم آلتونابا على شكل «ل ت و ن ي ن في النص المطبوع («آلتونياه» لدى رافيرتي)، غير أنني أشك في أن يكون مقطع **ياه** وارداً خطأ بدلاً من **باه** أو **پاه**، ونحن هنا بصدد تو. **آلتون** «ذهبي» + **آبالابا**، «جد»، أو **أوبا**، «عشيرة»، «قبيلة»، متداولة بين القبجاق / بولوفتسي.

(42) TN، I، 463 (تر. 649).

(43) حبيب الله، **أساس**، 121 ـ 122.

(44) TN، II، 24 (تر. 753).

مهذَّب الدين، الذي خَلَف الجنيدي في الوزارة، وتشاجر مع سُنْقُر، وأوغر صدر السلطان عليه. وحين قام سُنْقُر بتدبير مؤامرة، لاستبدال بهرم شاه بأحد أشقائه، سارع الوزير إلى كشفها مما أدَّى إلى إبعاد سُنْقُر، إلى إقطاعه ببداؤون في صَفَر 639 هـ / آب 1241 م. ولدى عودته دون إذن، بعد ثلاثة أشهر، أُلقي القبض عليه وأُعدم[45].

أما بهرم شاه، فقد تمَّت الإطاحة به هو الآخر، سنة 639 هـ / 1242م، حين فكَّر تحت تأثير أحد أفراد حاشيته: فخر الدين مبارك شاه فَرُوخي، بالاستبعاد الجماعي للضباط المماليك من الأتراك[46]. بادر القادة الأتراك في جمادى الأولى، 640 هـ / تشرين أول 1242م إلى مهاجمة، وقتل الوزير مهذَّب الدين، الذي كان قد أوغر صدورهم ضد بهرم شاه، وراح يسعى لتركيز السلطة بين يديه، واستبعاد الأفراد الأتراك من سائر شؤون الدولة. فيبدو أنه كان الوزير الأخير، ذا النزعات العسكرية على امتداد ما يقرب من قرن كامل. أما حقيقة أن رؤوس الفتنة لم يُعاقبوا بل كوفئوا فيعني أن السلطان الجديد مسعود شاه، كان وراءهم[47]. غير أن الأخير، مثله مثل سَلَفيه، حاول تحجيم الأمراء الأتراك. وعلى الرغم من أن الجوزجاني لا يحدِّد «التافهين» **(ناكسان)**، الذين باتوا يمسكون بزمام الأمر في البلاط، خلال الأشهر الأخيرة من نظامه، فإن رواية لاحقة توحي، بأنه كان يعوّل على العبيد الزنوج من الأفارقة[48].

إلى هنا يقدِّم الجوزجاني ومؤلفون آخرون، أدلةً داعمة لتحليل برني. غير

---

(45) حبيب الله، **أساس**، 122 ـ 123.

(46) TN، ا، 466 ـ 467، وا، 20، 30 (تر. 658 ـ 659، 47، 761 ـ 72).

(47) المصدر نفسه، ا، 469 وا، 27، 42 (تر. 662، 757، 761 ـ 762). تاج الدين سنجر كِرت خان رُفع إلى منصب مشرف على فيلة الملك **(شحنه ـ ي بيل)** وإلى **سار ـ ي جَاندار** فيما بعد، في حين ما لبث بدر الدين سنقر صوفي ـ ي رومي ـ ي (نُصرت خان المستقبل، تمييزاً له عن حامل اسم مماثل سبق ذكره) أن ورث مقاطعة كول عن الوزير المتوفى.

(48) المصدر نفسه، ا، 471 (تر. 668 ـ 669). FS، TMS144 .، 34.

أن هناك ما يدعو إلى اعتبار، ذلك التحليل ناقصاً من ناحيتين. لم يحدث أن كان أي فريق مؤلف من المماليك الأتراك، خالياً من عناصر حرة تركية أو غير تركية، على حدٍّ سواء. فمعارضة ركن الدين فيروز شاه (ورضية مبدئياً بعد ذلك)، جمعت بين المملوك التركي كبير خان، والنبيل التركي الحر علاء الدين جاني، والأمير الغوري سالاري، وذلك الذي يفترض أنه طاجيكي: جنيدي[49]. لقد شارك الكثير من الموظفين الطاجيك، في مؤامرة بدر الدين سُنْقُر، الهادفة إلى إزاحة بهرم شاه، بمن فيهم قاضي القضاة جلال الدين كاساني، الذي جرى خلعه وطرده من دلهي، والمحاسب العام **(مشرف ممالك)** ناصر الدين موسوي، الذي أُعدم مع سُنْقُر سنة 639 هـ / 1241 م[50]. وقبل إعدامه، حاول سُنْقُر عبثاً، أن يحصل على حماية الأمير الغوري، قطب الدين حسن[51]. ويؤكد الجوزجاني، أن الغوريين والطاجيك، جنباً إلى جنب، مع الملوك الأتراك، ما لبثوا أن اغتاظوا من المكانة، التي بات ياقوت يحتلها في مجالس رضية؛ أما عن بهرم شاه فنعلم ثانية، أنه أثار المخاوف لدى كل من الغوريين، والأمراء الأتراك[52]. وبالمثل فإن رفض عز الدين بلبان، واختيار مسعود شاه، يكشف عن وجود تحالف عناصر مختلفة. ففكرة انتقال السلطة إلى أحد غلمان إلتُتْمش الأتراك، ربما لم تجد قبولاً لدى الغوريين، في حين كان الشمسيون الآخرون، من جانبهم، غير راغبين في نفض اليد من عائلة سيدهم القديم. لقد صدق من أشار إلى أن بنية السلطة، التي برزت سنة 639 هـ/ 1242م، تحمل بصمات نوع من المساومة والحل الوسط، بين جماعات

---

(49) TN، ا، 455 ـ 456، 458 (تر. 633 ـ 634، 639). جدير بالملاحظة أن كبيرخان وجاني، عانيا من الاستبعاد في السنوات الأخيرة من حياة إلتُتمِش، وأن سالاري الذي كان قد خدم السلطان الراحل **أمير ـ حاجب**، لا يعطى هذا الوصف في ظل العهد الجديد. جاني وكبيرخان: المصدر نفسه، II، 6، 9 (تر. 726، 731 ـ 732). سالاري: حبيب، «تشكل»، 13؛ كذلك JH، ا، 12.

(50) TN، ا، 464 ـ 465 (تر. 652 ـ 653، 654).

(51) المصدر نفسه، II، 25 (تر. 753).

(52) المصدر نفسه، II، 22 ـ 23، 164 (تر. 750، 1133).

متباينة داخل إطار النخبة[53]. ما لبث منصب النائب أن تم إحياؤه، ومنحه لقطب الدين حسن؛ وجرى تنصيب شمسي كبير، يدعى قراقوش خان حاجباً **(أمير حاجب)**؛ أما تاج الدين سنجري قبقولاق، أحد الأمراء الثلاثة الذين قيل إنهم، أَوْقفوا عز الدين بلبان عند حدِّه، فحصل على إقطاع بداؤون[54]. ومن الواضح أن التعاون بين الأتراك وغير الأتراك، لم يكن مستحيلاً. يبدو، على أية حال، أن ما أدَّى إلى إطالة أمَد الأزمة الداخلية إلى هذا الحد، وإلى جعله بالغ الخطورة، كان متمثلاً بالانشقاق في صفوف الشمسيين أنفسهم.

أما العيب الثاني في تحليل برني، فيكمن في كونه يتناول الشمسيين، ويعاملهم كما لو كانوا جماعة أحادية متراصة الصفوف. ثمة مؤرِّخون كتبوا عن المؤسسة المملوكية العسكرية الموازية في مصر والشرق الأدنى، درجوا على الكلام عن **الخُشداشية**، عن الشعور بالزمالة ووحدة المصالح، اللتين كانتا تربطان المماليك بالسيد نفسه. غير أن مثل هذه المشاعر والعواطف، غالباً ما أخفقت في الاستمرار، بعد رحيل السيد ذاته، ومن شأن المبالغة في الاهتمام **بالخُشداشية**، أن تُضاعف من خطر الوقوع في خطأ التبسيط المفرط[55]. ممكن بالتأكد ـ رغم عدم كشف المصادر ـ أن أفراداً من فرقة إلتُتْمش النخبوية المؤلفة من الغلمان كانوا، يشعرون بروابط أوثق، مع زملاء متحدرين من الأصول القبلية ذاتها. وما لا يزال محتملاً، هو أنه كان هناك في البداية، شعور أقوى بالتضامن بين صغار الغلمان، الذين كانوا جماعة متميزة ذات مصالح خاصة بها.

علينا أن نلاحظ عدد المماليك الأتراك، الذين كانوا أدوات في إسقاط

---

(53) حبيب الله، **أساس**، 24.

(54) TN، I، 468 (تر. 661 ـ 662): قارن أيضاً II، 20، 26، 36 ـ 37 (تر. 747، 755، 780).

(55) د. آيالون، «عبودية المملوك»، IONS I (1951م)، 29 ـ 31، 34 ـ 37، أعيدت طباعة المادة في كتابه **المجتمع العسكري المملوكي**؛ قارن أيضاً ملاحظات روبرت إيروين، **الشرق الأوسط في العصور الوسطى: السلطنة المملوكية المبكرة 1250 ـ 1382م** (لندن وسيدني، 1986)، 65، 88 ـ 90.

فيروز شاه، وتنصيب رضية ممن بدوا غلماناً صغاراً، بقوا مستخدمين في الأسرة الملكية. ثمة جماعة، وصفها الجوزجاني على أنها «أتراك البلاط» (أو «العاصمة»)، عبَّرت عن استيائها من فيروز شاه، في مرحلة مبكرة عن طريق الرحيل من دلهي إلى «هندوستان»، للالتحاق بأخيه في أَوَذ على ما يبدو. غير أنها ما لبثت أن أوقفت؛ وكان بينهم بلبان «الأصغر»، الذي تعرَّض لفترة وجيزة من السجن[56]. لقد كان «الأمراء الأتراك والمماليك الشخصيون المضطلعون بخدمة المركز»، (أمرائي تُرْكوا بنداغاني خاص دار خدماتي قلب بودند)، هم الذين تمرَّدوا في ترائين؛ هؤلاء الضباط أنفسهم، وهم معروفون الآن باسم «قلب الأمراء الأتراك» (قلبي أمرائي ترك)، هم الذين تخلوا عن فيروز شاه في كيلوخري، واعترفوا برضية[57]. ترجِّح أقوى الاحتمالات أن يكون إلتُتْمش، قد اشترى عدداً كبيراً منهم في تاريخ حديث نسبياً. فعز الدين بلبان (كوشلوخان)، مثلاً، وهو أحد الرجلين، اللذين اعتُبرا رأسي الفتنة في ترائين، كان قد تم الحصول عليه في أثناء حصار ماندور، (أي سنة 624 هـ / 1227م)؛ وما لبث أن أصبح مُقْطَع باران مع وفاة إلتُتْمش[58]. غير أنه من المؤكد، أن **أعمال الشغب**، شارك فيها عدد كبير من آخرين باتوا الآن، حاصلين على مناصب مهمة في البلاط أو على إقطاعاتهم الأولى، مكافأةً لهم على تمكين رضية من الجلوس على العرش. لقد كان آلتونابا، الذي نُقِلَتْ برن إليه، حامل المظلة (ساري شتردار) لدى إلتُتْمش[59]. أما بهاء الدين بلبان «الأصغر»، الذي اشتراه إلتُتْمش في زمن متأخر، يعود إلى 630 هـ / 1232 ـ 1233م، فلم يكن عند موت سيِّده، إلاَّ أحد مدرِّبي البزاة (خاصدار)؛ غير أن

(56) TN، II، 48 ـ 49، 51 (تر. 802، 805).

(57) المصدر السابق، I، 456 (تر. 634 ـ 635، 636).

(58) المصدر السابق، II، 36 (تر. 777 ـ 779 مشوهاً). كلمة **كوشلو** (ك) تعني «قوي»: TMENP، III، (639) رقم 1676.

(59) TN، II، 21 (تر. 748).

رضية ما لبثت، أن رفعته إلى منصب **أمير شكار** (أمير الصيد والمَطارد)[60]. وعن أخيه سيف الدين آيبك (كشلي خان المستقبل)، الذي تم شراؤه في أثناء سفرة إلتُتْمش إلى مصر وبغداد، فيمكن إرجاع تاريخها بثقة إلى 629 هـ / 1231 ـ 1232م. يقال لنا أنه بقي خادماً بسيطاً، في بيت السلطان الخاص **خدمتي درغاهي خاص ميكرد)**، إلى أن جلست رضية على العرش؛ أما بعد ذلك، فقد أصبح نائباً لقائد الحرس **(نائبي ساري جاندار)**. وقد كان تاج الدين سنجر (أرسلان خان فيما بعد)، الذي تم الحصول عليه بالطريقة ذاتها، وربما في التاريخ ذاته تقريباً، واحداً من مدربي البزاة مثل بلبان؛ غير أن رضية ما لبثت أن جعلته ساقياً **(تشاشنيغير)**، ومنحته إقطاع بلارام فيما بعد[61]. كان من شأن مواقع هؤلاء الغلمان وطموحاتهم، أن تدفعهم إلى الوقوف لا في وجه الغرباء فقط ـ بمن فيهم النبلاء الأتراك ـ بل وحتى ضد مماليك إلتُتْمش الأكبر والأقدم من أمثال كبير خان، الذي كان قد حصل على منصب رفيع، منذ وقت بعيد في جهاز الدولة، ونال إقطاعاً ذا شأن، بين الوقت والآخر. وتاريخ خلفاء إلتُتْمش ليس في جزء كبير منه، إلاَّ قصة صعود مماليك صغار، إلى مواقع النفوذ والسلطة، والتوترات الحاصلة فيما بينهم، التي انطوت على خطر تمزيق دولة دلهي الوليدة أشلاءً.

بلبان ومنافسوه

تميَّزَ بلبان «الأصغر»، الذي كان قد رُفِّع من رتبة **أمير شكار** (أمير

---

(60) المصدر السابق، II، 48، 51 (تر. 802، 806)؛ عن تاريخ الشراء، II، 48 (تر. 801). وقد قام هوديفالا في، **دراسات**، II، 67 ـ 68، بتحديد معنى **خاصة دار**.

(61) كيشلي خان: TN، II، 45، 46 (تر. 796 ـ 798). أرسلان خان: المصدر نفسه، II، 33، 34 (تر. 766 وهـ. 3، 767)؛ وعن **آرسلان** «أسد»، انظر سوف جين، «أسماء وألقاب»، رقم: 4. سفارة من دلهي إلى مصر في 629 هـ / 1231 ـ 1232 م: ابن الدواداري، VII، 305. **كيشلي**، التي قد تعني «إنسانية» (كلاوسون، **قاموس**. . . ، 754)، موجودة في لقب أحد الأمراء الخوارزميين في وقت سابق من القرن: TJG، I، 80 (تر. 103، مع جعلها خطأ مرادفة لكلمة **كوشلو**).

الصيد)، إلى رتبة **أمير آخور** (أمير اصطبل)، في عهد بهرم شاه، في أثناء محاصرة دلهي سنة 639 هـ / 1242م، فكوفئ بإقطاع هانسي. ونظراً لاشتهاره بأنه كان متمتعاً، برعاية الحاجب (**أمير حاجب**) الراحل بدر الدين سُنْقر، الذي ضمن له إقطاعه الأول في ريواري، فمن المؤكد أنه شارك في الثورة ضد بهرم شاه، رغبة منه في الانتقام لصديقه القديم. وربما أدى السبب نفسه إلى دفعه، نحو المشاركة أيضاً في الهجوم على مهذّب الدين، عدو سنقر، لأن أسلوب الجوزجاني، يوحي بوجود رابطة بين موت الوزير، وترقية بلبان إلى منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)[62]. جاء ذلك على حساب قراقوش خان، الذي طُرد من إقطاعه بهايانا. ومن الصعب تفسير انتقاله اللاحق من بهايانا إلى قارا، أو الإعلان الصريح في ختام سيرة حياته، عن أنه قُتل في تلك المنطقة سنة 644 هـ / 1246م، غداة الإطاحة بمسعود شاه[63]. وهذا كله يشير إلى أنه كان منافساً لبلبان، الذي ربما كان قد رتَّب لتجريده من المنصب؛ غير أننا لا نستطيع أن نكون متأكدين. ومهما يكن فإن بلبان، كان بصورة شبه مؤكدة، أداة في عملية إبعاد مسعود شاه وتنصيب محمود شاه، (644 ـ 664 هـ / 1246 ـ 1266م)، عبر أحداث يسردها الجوزجاني، بلهجة بالغة الحرص على التهدئة وعدم الإثارة.

في سنة 647 هـ / 1249م، أصبح بلبان نائباً، ومُنح لقب أُلُغ خان، وتزوج السلطانُ ابنتَه. وجرى أيضاً تقريب حلفائه من النبلاء. قام النائب الجديد بتحويل منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)، إلى أخيه سيف الدين آيبك، الذي بات يلقب بكِشلي خان، كما تمت ترقية عدد من المؤيدين الآخرين: فالشمسي تاج الدين تَنِزخان، الذي يوصف على الدوام، بأنه صنيعة بلبان الأمين، صار مساعد أمين حاجب، وعبد بلبان اختيار الدين أيتكين. **موي دراز** («صاحب

---

(62) TN، ا، 469، وا، 51 ـ 52 (تر. 663 ـ 664، 806 ـ 807)؛ ولكن قارن ا، 53 (تر. 809)، حيث لا يرد سوى تعيين بلبان بتاريخ 642 هـ / 1244 ـ 1245 م.

(63) المصدر السابق، ا، 20 (تر. 747).

الشعر الطويل»)، الذي كان حتى تاريخه، مساعداً **لأمير آخور** (مسؤول الإصطبل)، ارتقى صعوداً ليخلف كشلي خان في ذلك المنصب[64]. ويبدو أن الوزير صدر الملك نجم الدين أبو بكر، الذي كان قد خلف مهذب الدِّين، حوالى الوقت الذي تم فيه تعيين بلبان حاجباً (أمير ـ حاجب)، كان حليفاً آخر[65].

من هذا المنعطف تقريباً، نبدأ بتلمس الحدود الغائمة لجماعة معارضة، تكونت أيضاً بقيادة الشمسيين. لقد أدى إضفاء شرف منصب أمير ـ حاجب على بلبان، من الأساس، كما يقال لنا، إلى إثارة سخط مالكين آخرين[66]. وما لبث النائب الجديد وحلفاؤه، أن تقدموا لشن هجوم منسَّق على عز الدين بلبان، الذي كان سنة 639 هـ / 1242م، قد تم استرضاؤه بلقب كوشلوخان، وبإقطاع ناغَور البعيدة الواسعة، وتمتع منذ سنة 643 هـ / 1246م، بمنحه مُلْتان الإضافية. وغير قانع بهذا حصل من محمود شاه على أوتشش أيضاً، شرط التخلي عن نغوار؛ غير أنه أخفق في الوفاء بهذا الجزء من الصفقة. أما مُلْتان، التي خسرها كوشلوخان، أمام قوات حسن قرلُق، فما لبثت أن وقعت بيد شيرخان، ابن عم أُلُغ خان بلبان، الذي حاول كوشلوخان، أخذها منه عبثاً. وبعد أن أدت حملة بقيادة أُلُغ خان، والسلطان إلى خلعه من نغوار التي مُنحت لشقيق النائب كشلي خان، تقاعد كوشلوخان، وعاد إلى أوتشش حيث أسره شيرخان، الذي لم يطلق سراحه، إلاَّ بعد أن أصدر إلى الحامية أمراً يقضي

---

(64) المصدر السابق، II، 59 ـ 60 (تر. 820 ـ 821)؛ قارن أيضاً II، 29، 46 (تر. 759، 798). يظهر لقب تنيزخان في نص حبيبي على شكل ت ر؛ يقرأه رافيرتي «تيز»، كما هو في مخطوطة BL، ملف 206، وعلى الرغم من عدم وجود نقطة على «السن» الوسطى، فإن الحرف الأخير هو ز (زاي) بوضوح. وعن لقب تنيز / دنيز بمعنى «بحر» «محيط»، انظر كلاوسون، **قاموس**...، 527؛ TMENP، III، 205 ـ 207 (رقم: 1192). ونعلم أن آيتغين ـ ي مؤو ـ ي دراز كان أحد مماليك بلبان من TFS، 83.

(65) TN، I، 469 (تر. 663 ـ 664). حبيب الله، **أساس**، 126.

(66) TN، II، 52 (تر. 807).

بالاستسلام. وكوشلوخان، الذي كان قد حُرم من جميع إقطاعاته بهذه الطريقة لصالح أنصار النائب وأقربائه، ما لبث أن جرى تعويضه ببداؤون أوائل سنة 649 هـ / 1251 م[67].

تمكن كوشلو خان من الانتقام، أثناء حملة موجهة إلى المناطق الشمالية ـ الغربية، سنة 650 ـ 651 هـ / 1252 ـ 1253م، حين جرى إبعاد أُلُغ خان بلبان إلى هانسي أولاً. وحرمانه منها بعد ذلك لصالح ابن وليد للسلطان، لنقله إلى نغوار. أما كنائب، فقد تم استبداله بقطب الدين حسن، فضلاً عن أن أصدقاءه وأقاربه، تعرضوا للإبعاد من مناصبهم في عملية إعادة تعيينات عامة. كان كل من كشلي خان، وتنز خان والوزير صدر الملك قد أُبعدوا جميعاً من مناصبهم؛ وكان الجوزجاني، قد فقد منصبه قاضياً للقضاة للمرة الثانية؛ كما جرى خلع شيرخان الذي كان إقطاعه الواسع، يضم أوتشش ومُلْتان وتَبَرهند، من قِبَل قوات السلطان فلاذ بالمناطق المغولية. أما كوشلوخان وحلفاؤه، بمن فيهم قُطْلُغ فان الغامض، والهندي عماد الدين ريحان، فقد تقاسموا المناصب والإقطاعات فيما بينهم: حيث أصبح ريحان وكيلاً للدار (وكيلي دار)، واستعاد كوشلوخان إقطاعه القديم في السند[68].

يحبطنا الجوزجاني بشُحّ المعلومات، التي يقدمها لنا عن خصوم أُلُغ خان بلبان. فعلى الرغم من أنه يكرس سيرة منصفة لقصة حياة كوشلوخان، فإن

---

(67) المصدر نفسه، II، 37 ـ 38 (تر. 780 ـ 784)؛ انظر أيضاً I، 484 ـ 485، وII، 44، 46، 61 ـ 62 (تر. 689 ـ 690، 792، 798، 822 ـ 823).

(68) شيرخان: المصدر السابق، I، 487، وII، 34 (تر. 695 ـ 696، 767)؛ انظر أيضاً II، 38 (تر. 784) و44 يبدو أن FS، 146 ـ 149 (تر. 269 ـ 274) قد شوّه قصة هذه الحملة المزعومة ضد المغول، والمؤرَّخة في 656 هـ. والسنة التي يحددها حبيب الله (**أساس**، 36) حتى بعد ذلك، يكون مستحيلاً لأن قطب الدين حسن (المتوفى سنة 653 هـ / 1255م) يرد في قائمة الجنرالات وبلباني زار (أي كوشلوخان) متروك في أوتشش ومُلْتان لدى عودة السلطان. وعن هرب شيرخان إلى المغول، انظر 111 من هذا الكتاب؛ وعن الآخرين، حبيب الله، **أساس**، 126؛ أخطأ إذ افترض (المصدر نفسه، 125) أن قطب الدين لم يعش بعد علاء الدين مسعود شاه.

قُطْلُغ خان، الذي كان متمتعاً بأهمية كافية لتمكينه من الزواج بأم السلطان، لا يحظى بالقدر نفسه من الإطراء والمجاملة[69]. ووصم معارضة بلبان بأنها طائفة «معادية للأتراك»[70]، يمثّل انخداعاً بأطروحة الجوزجاني، القائمة على التفريق بين «الأتراك» و«الهندوس». وباعترافه هو كانت الجماعة تضم كوشلوخان، وقُطْلُغ خان جنباً إلى جنب، مع شخصيات أقل شأناً مثل صهر الأخير عز الدين بلباني يوزبكي؛ كما أنه يتعمد الإتيان على ذكر الأتراك الذين تحالفوا مع ريحان، جراء عدائهم لأُلُغ خان بشكل خاص[71]. يكتب الجوزجاني عن ريحان بأسلوب لاذع، قائلاً إنه خصي هندي وضيع النسب (**مجبوب وناقص أز قبائل هند**)؛ وبالمناسبة فإن هذا يوحي بأن الرجل كان مملوكاً، مما يجعل احتمال انتمائه إلى ما يصح اعتباره طبقة إسلامية نبيلة ناشئة من الهنود، غير وارد. أما مرشح ريحان لمنصب قاضي القضاة، شمس الدين، أطلق نداءه من باهراتش، ويقال إن إقطاع باهراتش هذا، أُعيد إلى ريحان (رجوع شُدا) لدى طرده من البلاط، سنة 653 هـ / 1255 م[72]. ونظراً لأن باهراتش، كان إقطاعاً لمحمود شاه قبل اعتلائه العرش، فإن هناك احتمالاً قوياً بأن يكون خصوم أُلُغ خان، قد حصلوا على الدعم من مركز قوة السلطان الخاص، وبأن ريحان كان

---

(69) TN، ا، 489 (تر. 701)؛ قارن أيضاً ا، 493، وا، 39 (تر. 710، 785). س. ب. پ. نيغام، **الأرستقراطية في ظل سلاطين دلهي من 1206 إلى 1398م** (دلهي، 1968م)، 40، يعتقد أن الزواج، الذي يعيد تاريخه إلى أوائل 1255م، أدى إلى اغتراب السلطان؛ غير أننا لا نملك ما يشير إلى تاريخ حدوثه.

(70) حبيب الله، **أساس**، 126، 132، 195. نظامي، **بعض وجوه**...، 141، وفي HN، 262. قارن أيضاً پ. ساران، «السياسة والشخصيات في عهد ناصر الدين محمود المملوك [كذا]» في كتابه، **دراسات في تاريخ الهند الوسيط** (دلهي، 1952م) 228.

(71) TN، ا، 68 (تر. 833)؛ قارن ا، 70 (تر. 836، بالنسبة إلى «الأتراك» و«الهندوس»، ولكن ثمة أيضاً إشارة إلى علاقة ريحان بقطلغ خان. عن يوزبك، انظر المصدر نفسه، ا، 487 وا، 64 (تر. 695، 827).

(72) المصدر نفسه، ا، 66 (تر. 829)، حيث توجد ملاحظة موجزة عن ريحان؛ ا، 487، وا، 64 (تر. 694، 827)، عن شمس الدين؛ ا، 69، عن ريحان وباهراتش. نيغام، **الأرستقراطية**، 39 هـ 370، أيضاً يوجد رابطاً بين ريحان وباهراتش.

أحد مماليك السلطان؛ ومما لا شك فيه أن محمود شاه نفسه، جنباً إلى جنب مع أمه وزوجها، كان وراءهم.

ما لبث بلبان وأتباعه أن استعادوا قوتهم، بفضل التحالف مع شقيق السلطان المرتد، جلال الدّين مسعود الذي كان قبل ستة أشهر، قد هرب من إقطاعاته عبر سانتور، ليلوذ بحماية المغول[73]. يبقى الجوزجاني متكتماً بشأن نشاطاته اللاحقة، وبالتالي فنحن معتمدون بدلاً منه على تاريخ الهند، الذي زودنا به كل من وصّاف ورشيد الدين، اللذين كتبا عن إيران المغولية[74]. وحسب رواية الأخيرين لقصة الأحداث، فإن جلال الدين كان متوجّساً من خصومة، وهم عدد من مماليك إلتُتْمش السابقين. وعلى الرغم من أن التراث الإيراني، لا يوفر دليلاً كامل الجدارة بالتعويل، بالنسبة إلى تاريخ السلطنة، فضلاً عن أن تفاصيل مختلفة ليست صحيحة[75]، فإن هؤلاء المماليك، باستثناء وحيد (قُطْلُغ خان)، يمكن اعتبارهم متماهين مع أشخاص، اعتبرهم الجوزجاني حلفاء لأُلُغ خان بلبان[76]. أما عودة جلال الدين مسعود مع

(73) TN، 482l (تر. 683 ـ 684). عن سانتور، انظر هوديغالا، **دراسات**، ا، 229.

(74) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات فارسية**، النص العربي .Taf، 57، النص الفارسي .Taf 21 ـ 22 (الترجمة الألمانية 47 ـ 48)؛ قاشاني (حوالى 1318م)، **تاريخ ـ ي أولجايتو سلطان**، تحقيق ماهين هامبلي (طهران، 1348 هـ / 1969م)، 184 ـ 185.

(75) التاريخ المتأخر الوارد لهرب الأمير 651 هـ / 1253 ـ 1254م ربما كان تاريخ عودته إلى الظهور في الهند مع جيش مغولي. ثمة خطأ آخر هو الزعم بأن جلال الدين كان سلطاناً سابقاً وقد أُطيح به من قبل قطلغ خان لصالح رضية. يرد ذكر قطلغ خان بين حلفاء أولوغ خان. إذا لم يكن هذا خطأ، فإن الرجلين ربما لم يصبحا خصمين، إلاّ بعد رحيل جلال الدين؛ ورواية وصّاف تزعم بالفعل، أن قطلغ خان، ما لبث أن صار يخاف أولوغ خان.

(76) انظر هوديغالا، **دراسات**، ا، 78. ثمة احتمال قوي بأن يكون «سنقرخان» هو نفسه شيرخان سنجر. فآيبكي خطاي ـ ي، مُقْطَع بَرَن، كان يحمل لقب إيكيت خان: رافيرتي يورد لقبه على شكل «بان» أو «بات» خان، ولكن قارن مخطوطة BL ملف 192 ب، 194 أ، ومخطوطة IOL، ملف، 262 أ، 263 ب (كما في دليل حبيبي، ا، 488، 491). كان سيف الدين آيبكي شمسي عجمي، الذي يلقبه الجوزجاني بـ «إيريكلي دادبك»، قد شغل منصب **الأميري داد** منذ سنة 640 هـ / 1242 ـ 1243 م. أمّا «يوزبك» فهو اختيار الدين يوزبك طغرل خان، الذي يبدو أنه حل محل جلال الدين نفسه مُقْطَعاً لقنّوج، والذي =

جيش مغولي، واصطناع دولة عميلة له حوالى لاهور، والزاوية الشمالية الغربية من البنجاب، فسيتم الحديث عنهما لاحقاً. فحين تقدم من لاهور باتجاه الشرق سنة 652 هـ / 1254م، التحق به عدد من الأمراء، بزعامة أُلُغ خان، الذي كان قد خرج خاسراً من عملية الصراع على السلطة، في السنة السابقة[77]. وما لبثت المناورات غير الحاسمة، من جانب المتمردين وجيش السلطان، أن أفضت إلى حل توفيقي كان ريحان ضحيته المباشرة: فقد أُعفي الرجل من منصبه، وأُبعد إلى إقطاعه الجديد: بداؤون[78]. يبدو أن السلطان، مع عدد معين من أولئك الذين كانوا من قبل، قد استفادوا من الإطاحة بأُلُغ خان، قد تخلوا عنه. من المؤكد أن أحد هؤلاء المهاجرين كان أرسلان خان، الذي حل محل شيرخان في تبرهند، غير أنه ما لبث أن بات الآن بادياً، كما لو كان بين صفوف أتباع جلال الدين مسعود. وثمة آخر هو صهر قُطْلُغ خان: عز الدين بلباني يوزبكي، الذي تفاوض مع كل من جلال الدين مسعود، وأُلُغ خان نيابة عن السلطان، والذي نجا بصعوبة من الاغتيال على أيدي عملاء ريحان: نجده متمتعاً بتأييد القصر منذ ذلك التاريخ وصاعداً[79]. أما جلال الدين مسعود فقد كان حصاده من التسوية، أقل مما يمكن أن يكون قد توقعه. صحيح أنه تصالح، وحلفاءَه، مع محمود شاه؛ غير أننا نرى أنه لم يحصل إلاّ على لاهور كإقطاع له، ويبدو أنه ما لبث أن انسحب إلى

= كان بالتأكيد عضواً في حاشية النائب، لأن بلبان، قبيل منحة قنّوج، كان قد ساهم في تمكينه من استعادة مودة السلطان.

(77) بمن فيهم كيشلي خان من قارا وآيبكي خطاي ـ ي من سُنام ومنصوربور. أمّا الأمير غير المسمى من آواد، TN، II، 66 (تر. 830) فربما كان يوزبك طغرل خان، الذي حصل على تلك المقاطعة بعد إزاحته عن قنّوج، جراء عدم الخضوع من قبل قطب الدين حسن بن علي: المصدر نفسه، II، 31 (تر. 762)، حيث لا تواريخ، غير أن هذه تبدو إعادة الهيكلة الأكثر إقناعاً للأحداث.

(78) المصدر السابق، I، 488 ـ 489، وII 66 ـ 68 (تر. 699 ـ 700، 830 ـ 834).

(79) المصدر السابق، II، 68، 78 (تر. 832، 833). ربما ظل بلبان يوزبكي سابحاً في بحر نعم البلاط إلى وقت متأخر وصل حتى 656 هـ / 1258م.

هناك، وتوقف عن أداء أي دور في الأحداث الجارية في المركز. وعلى أية حال، ليس ثمة أي ذكر له بصحبة الجيش السلطاني، حين عاد أُلُغ خان بلبان، والملك إلى دلهي في شهر ذي الحجة سنة 652 هـ كانون الثاني / ديسمبر 1255م[80].

سارع أُلُغ خان إلى إعادة فرض سيطرته على البلاط. ففي ربيع الثاني 653 هـ / حزيران / يونيو 1255م، جرى اعتقال النائب قطب الدين حسن، الذي حاول التوسط في الصراع السابق على ما يبدو ـ وإعدامه، بحجة تفوهه بتعليق أثار حفيظة السلطان. عاد منصب نائب الملك إلى أُلُغ خان، في حين نُقل إقطاع ميرت العائد للمحكوم بالإعدام، إلى كشلي خان الذي عاد **أمير ـ حاجب** (حاجباً) مرة أخرى[81]. كذلك لم يُضِعْ أُلُغ خان وقتاً، بل بادر بسرعة إلى التحرك ضد جماعة المعارضة. ففي بداية سنة 653 هـ / 1255م بالذات، جرى طرد قُطْلُغ خان وأم السلطان من القصر، وأُمرا بالإقامة في إقطاع أوَذ الجديد، المخصص لقُطْلُغ خان. وفي الوقت نفسه تقريباً، تم تجريد ريحان من بداؤون لصالح تنزخان، أحد أنصار أُلُغ خان، ونقله إلى باهراتش الأبعد، حيث قتله تاج الدين سيوستاني في رجب 653 هـ آب / أغسطس 1255 م[82]. تابع قُطْلُغ خان، النضال لبعض الوقت في أوَذ، قبل انضمامه إلى كوشلوخان، القادم من السند سنة 655 هـ / 1257 م؛ وقد حاول الحليفان تنظيم انقلاب في دلهي، أحبطه أنصار أُلُوغ خان، ففرضا حصاراً قصير الأمد على العاصمة، غير أنهما اضطرا للانسحاب، غداة وصول النائب على رأس جيشه[83]. لم يُسمع أي شيء آخر عن قُطْلُغ خان، الذي ربما

---

(80) TN، ا، 489، واا، 68 ـ 69 (تر. 700، 834).

(81) المصدر نفسه، ا، 489، واا، 46 (تر. 702، 798 ـ 799).

(82) المصدر نفسه، ا، 489، 490، واا، 69، 70 (تر. 701، 702 ـ 703، 834 ـ 835، 836).

(83) المصدر نفسه، ا، 490 ـ 491، 492 ـ 494، واا، 39، 69 ـ 75 (تر. 703 ـ 706، 707 ـ 710، 784 ـ 786، 835، 836 ـ 844).

غادر الهند بحثاً عن مأوى لدى المغول[84]. أما كوشلوخان فقد انسحب إلى السند: وحَسْب كلام الجوزجاني، فإن قواته عانت من النزيف الشديد، لأن أكثرية الفصائل الآتيةَ من أوتشش ومُلْتان هجرته فضلاً عن أن أعداداً كبيرة، التحقت بخدمة أُلُغ خان والبلاط[85]. وبمقدار ما نستطيع أن نعلم، بالإفادة من رواية الجوزجاني لقصة السنوات القليلة التالية، فإن خصوم أُلُغ خان بلبان، استُبعدوا من أية حصة في السلطة المركزية؛ أما هو فقد احتفظ بمنصب النيابة دون منازع، إلى أن أقدم على اغتصاب العرش بعد حوالى عشر سنوات.

في تحليله للفترة السابقة على اعتلاء بلبان العرش كسلطان، يرى الدكتور نيغام Nigam النمط السائد متمثلاً، باستئصال العناصر المنافسة كالأفارقة أو الطاجيك، مما أبقى الأتراك دون أي منافس، أعقبته حقبة شهدت، تصارع الزُّمَر التركية المتنافسة على السلطة، ولكن بطريقة أكثر تحفظاً، صراعاً انطوى على أشكال غير دامية من تغيير النظام، والحلول التوفيقية القائمة على المساومة[86]. على أن القول بأن صراعات خمسينيات القرن الثالث عشر، كانت أكثر تحفظاً في الحقيقة، على مستوى بعينه، فإنه يبقى أمراً يثير قدراً كبيراً من الشك. من المعروف أنه لم يكن ثمة تكرار لمذبحة 634 هـ / 1236م، التي تبدو عملية اغتيال ملكية صغيرة، غير أننا ما زلنا نشهد، سلسلة الاغتيالات السياسية لأفراد معينين مثل قطب الدين حسن. لقد أدت شراسة الصراع وحدَّته، إلى إثارة الدهشة ليس فقط لدى المراقبين المعاصرين، بل وحتى عند

---

(84) JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf 57، وحده يجعل قطلغ خان عاملاً في بلاط مونغكه، في حين لا يقول النص الفارسي (.cc Taf)، مثل وصّاف، 310، وقاشاني، 184 ـ 185، إلاّ أنه انطلق في أعقاب جلال الدين (ثمة خطأ في تر. 48). يقال إنه كان مصحوباً بـ «سنقرخان» (أي شيرخان): هذا غير وارد، رغم معرفتنا بحقيقة أن شيرخان هو الآخر قد هرب ولاذ بحماية المغول.

(85) TN، ا، 493، وا، 39 (تر. 710 ـ 786).

(86) نيغام، **الأرستقراطية**، 37 ـ 38.

الأطراف المشاركة. فحين اضطر كوشلوخان سنة 648 هـ / 1250م، للذهاب من أجل تحرير أوتشش، التي كانت تتعرض للهجوم من جانب شيرخان، عقد آماله، كما يقال لنا، على حقيقة أنهما جميعاً، كانا «من بيت واحد وعتبة واحدة»[87]. وبعبارة أخرى، كان يتوقع، نظراً لكون الأميرين من مماليك إلتُتْمش، أنهما سيكونان قادرين على التوصل، إلى نوع من الاتفاق الودي. لقد خاب ظنه: وضعه شيرخان في السجن، ولم يطلق سراحه إلاَّ بعد احتلال المدينة. يعبر الجوزجاني عن الدهشة قائلاً: «يستحيل أن يكون هناك أمر أكثر إثارة للدهشة من هذا!»، واصفاً عمليات المجابهة بين قوات بلبان من جهة، وقوات كل من كوشلوخان وقُطْلُغ خان من الجهة المقابلة سنة 655 هـ / 1257م؛ «لأنهم كانوا جميعاً متشابهين، في أنهم من كيس نقود واحد، تناولوا طعامهم من قصعة واحدة؛ لقد نجح الشيطان اللعين في زرع بذور الفتنة والفرقة بينهم»[88]. ثمة في الحقيقة ما يدعو إلى الإيحاء، بأن الوضع في خمسينيات القرن الثالث عشر لم يكن أقل، بل أكثر خطورة لاستحالة حله، بمجرد الاستغناء الجماعي عن فريق من البيروقراطيين الطاجيك. بل كان الأمر منطوياً على نوع من الصراع، بين فريقين شبه متساويين، مشتبكين في حرب أهلية كاملة الأبعاد. أضف إلى ذلك، أن الفريقين كليهما كانا مستعدين، لالتماس مساعدة المغول الوثنيين. فأُلُغ خان بلبان وأعوانه استعادوا السلطة، عبر التحالف مع كيان دائر في فلك المغول؛ كما أن كوشلوخان، كما سنرى، رد على هزيمته بقلب السِّنْدِ إلى معسكر مغولي.

الأرستقراطية الغياثية

مما يؤسف له أننا لا نملك إلاَّ الحد الأدنى من المعلومات، عن تولي

---

(87) TN، II، 38 (تر. 783).

(88) المصدر نفسه، II، 73 (تر. رافيرتي 841 المعدلة).

بلبان شؤون السلطنة، لدى موت محمود شاه؛ فكما رأينا بقي حتى أسلوب موت السلطان، ومصير ذريته غامضين. من المحتمل، وإن لم يكن مؤكداً بأي حال من الأحوال، أن يكون وضع حد للنظام الشمسي، قد تم عبر استخدام القوّة المكشوفة. إن ناصر الدين محمود شاه، هو العاهل الشمسي الوحيد، باستثناء فيروز شاه، المعروف بامتلاكه مؤسسته الخاصة، قبل اعتلائه العرش، حتى أنه كان، لدى انتقاله من دلهي إلى باهراتش، مصحوباً بـ «أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة»، (**مبالغي مَرْد پايك وسُوار**)[89]. لعل امتلاكه لمصادر مستقلة من القوة البشرية، كان أحد الأسباب الكامنة وراء احتفاظه بالعرش، مدة أطول من الفترة الانتقالية الوجيزة، التي مُنحت لغيره من أعضاء الأسرة، خصوصاً إذا كان وراء معارضة أُلُغ خان فعلاً.

أما سيرة أُلُغ خان بلبان العملية الطويلة، قبل جلوسه على العرش، خصوصاً كمُقْطَع لهانسي منذ سنة 639 هـ / 1242م، فكانت قد وفرت له الأسباب، التي مكنته من امتلاك قوة قائمة على فريق من الحراس الخاصين، (**حَشَمهاي خاص**)[90]. ومما لا شك فيه أن تلك الأسباب اشتملت فيما اشتملت، على تجهيز ألف من المماليك المشاة، كانوا يرافقونه في رحلات صيده كسلطان، ويوصف بأنه «عريق» (**قديم**)[91]. وقبل أن يصبح سلطاناً، كان أيضاً يملك غلماناً يخُصُونه من الأتراك. فنحن نجد هؤلاء في وقت مبكر، على صفحات كتاب **طبقات ناصري**: حيث نرى ضباطاً بارزين، ومتنفذين مثل أيتكين، مويي دراز، و**السِبهسلار** قراشوماق، الذي مثَّل أُلُغ خان في مفاوضات 652 هـ / 1254م مع السلطان[92]. لم تكن الأصول القبلية معروفة. ربما تم

---

(89) المصدر السابق، I، 479.

(90) المصدر السابق، II، 72، 74، (تر. 839، 841).

(91) TFS، 55.

(92) TN، II، 67 (تر. 831 ـ 832). اسمه تو. **قَرَه**، «أسود» **تشوماق**، «صولجان» (كلاوسون، **قاموس جذور**...، 422 ـ 423؛ قارن سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 93. عن آيتكين، انظر 71 من هذا الكتاب.

شراؤهم، بعد الاجتياح المغولي الأخير لبلاد القِبجاق سنة 1239 ـ 1240م، حين تعرض أبناء عشيرته، الأولْبرلي للبعثرة أخيراً، ففر الكثير منهم إلى الأناضول، عابرين البحر الأسود[93]؛ ومثله مثل السلطان المصري الصالح أيوب، ربما تمكن بلبان من الإفادة من تخمة السوق بالشبيبة التركية.

علينا أيضاً أن نتذكر أن توليه الطويل لمنصب نيابة الملك، منذ سنة 647 هـ / 1249م، مع فترة انقطاع قصيرة فقط، مكّن أُلُغ خان بلبان من دسّ أعوانه، وأصدقائه، ووضعهم في مواقع استراتيجية. فابنه علاء الدين محمد، الذي احتفظ بمنصبه الجديد، خلال جزء كبير من عهد بلبان[94]، ما لبث أن خلف أخاه كشلي خان، في منصب الحاجب (**أمير ـ حاجب**)، بعد موت الأخير سنة 657 هـ / 1259 م. من الممكن (وإن لم يكن مضموناً بأي من الأحوال)، أن يكون أولئك الذين يبرزون بوصفهم، مؤيدين لبلبان في أزمات سابقة، قد دعموا عملية استيلائه على العرش. فنصرت خان بدر الدين سنقر، الذي هرع لمساعدة دلهي في 655 هـ / 1257م لدى تعرضها لحصار خصوم النائب، معروف بأنه بقي مُقطعاً حتى سنة 669 هـ / 1271م، على الأقل[95]. أضف إلى ذلك أن أمير خسرو يقوم، في مقدمة كتابه: **غُرَّة الكمال**، باصطناع خدعة لفظية تلمح إلى جدّ بلبان من جهة الأم، **العارض** عماد الملك (المتوفى حوالى سنة 671 هـ / 1272 ـ 1273م)، بوصفه «صانع سلاطين»؛ كما نعلم من المؤلف نفسه أن مؤسسة عماد الملك الخاصة، كانت تقوم على فرقة مؤلفة من مئتين من المماليك الأتراك، وألفين من المماليك الهندوس، وألف من الفرسان[96]. ربما كان عماد الملك ـ وهو

---

(93) اليونيني، III، 240. إيروين، **الشرق الأوسط**، 17 ـ 18، داعياً إياهم «بارالي».

(94) TN، I، 495 (تر. 713). TFS، 35، 36 ـ 37، 113 ـ 114.

(95) TN، II، 42 (تر. 787 ـ 788). ج. يازداني، «نقش عن سلطان بلبان من بهايانا، ولاية بهاراتبور»، EIM (1937 ـ 1938م)، 5 ـ 6.

(96) IOL, DGK مخطوطة فارسية 51، ملف 34 ب، **آغارنيشاني سلطاني في نداشت سلطاني نيشاني** =

شمسي بنظر برني ـ أداةً من أدوات نجاح أُلُغ خان بلبان في اغتصاب العرش: من المؤكد أن مكتب **العارض**، كان نشيطاً في عملية الدفاع عن دلهي، نيابة عن بلبان سنة 655 هـ / 1257م[97].

ثمة رواية لاحقة تزعم أن بلبان، كسلطان، ألغى منصب النائب، وإن كان من المعلوم، أن المنصب جرى إحياؤه قبل موته[98]. يقول برني إنه، رغبة منه في تدمير زملائه السابقين (**خواجاتشان**)، كبار الأمراء الشمسيين، أوعز بتسميم عدد منهم، مما دفع ابن عمه شيرخان، الذي كان يملك إقطاعات لاهور، وسُنّام وديوبالبور، إلى العزوف عن المجيء إلى القصر، في أي من عهدي محمود شاه أو بلبان، خشية التعرض للمصير ذاته. غير أن بلبان ما لبث، ـ ولو بعد حين ـ، أن نجح في قتله بالسم أيضاً حوالى سنة 668 هـ / 1269 ـ 1270 م. أما الشمسيون الذين نجوا، فلم يتمكنوا من النجاة، إلاّ بفضل إشفاق السلطان شخصياً عليهم[99]. يقوم برني بإيراد اسمي اثنين من هؤلاء، هما تيمورخان وعادل خان. يظهر الأول تحت اسم تيمورخان سنقري عجمي، مالك (أمير) كوهرام، في لائحة الجوزجاني، لأعيان محمود شاه: وبعد موت شيرخان منحه بلبان إقطاعي سُنّام وسامانا. أما عادل خان، فنجده حاملاً لقب شمسي عجمي، الذي يوحي بتماهيه مع الحاجب (**أمير داد**)،

= **دشت** (قابل للترجمة المتحررة إلى «إذا لم يكن هو نفسه السلطان، فإنه كان يصنع هذا السلطان بيده». تتشوه العبارة في النسخة المطبوعة على يد سيد وزير الحسن عابدي (لاهور، 1975)، 67، كما تقع في خطأ إعطاء رقم 100,000 عدداً للماليك الهندوس مع الأتراك.

(97) TN، ا، 493 (تر. 709). لامتلاك فكرة مختصرة عن حياة عماد المُلْك العملية، انظر TFS، 114. قد يكون متماهياً مع اختيار الملك شرف الدين محمد راشدي، الذي يقال إنه كان يشغل منصب **ديواني عارضي مملك** حين كان بلبان **نائباً**: DA، مخطوطة PRL الفارسية 1231، ملف 56 ب وتر. س. عبد الرشيد، «دستور الألباب في علم الحساب» MIQ (1950). 93 يتضح أن اسم عماد الملك هو محمد من TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 36 ب، حيث يخاطب ابنه كـ «محمودي محمد». أمّا الافتراض بأنه كان ذا أصل هندي فليس مبرراً بما تقوله المصادر.

(98) DA، ملف 56 ب (تر. رشيد، 93). ولكن انظر TMS، 51، 52، عن النائب قوتشو.

(99) TFS، 47 ـ 48، 65، وإشارة موجزة في 550.

سيف الدين آيبك[100]. ولا نعلم شيئاً عن المصير النهائي لهؤلاء النبلاء. فعدم اكتمال تطهير بلبان بأي من الأحوال، واضح من تعليق برني على عدد أبناء الغلمان الشمسيين، الذين شغلوا مناصب في الحقبة الغياثية[101].

هناك مؤرخون حديثون، دأبوا على اتهام بلبان، باقتلاع جذور النفوذ التركي من الهند[102]. غير أن غَرَضَه من الإطاحة بعدد من زملائه السابقين، لم يكن بالطبع، إلاّ تدعيم مواقع مماليكه هو. لعل طغرل الذي اغتصب السيطرة على إقليم لخناوتي البعيد، وتمت الإطاحة به حوالى سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م هو الأسوأ سمعة. أما غلام بلبان المفضَّل، برأي برني، فكان اختيار الدين بغبار، الذي أصبح **أمير ـ حاجب / باربغ**، ربما خلفاً لعلاء الدين محمد بن كشلي خان، ورافق السلطان في حملته البنغالية، وكُلِّف بمهمة مطاردة طغرل، واقتناصه بعد انهيار الثورة[103]. وثمة آخرون، يجري إعلامنا أنهم أثاروا حفيظة السلطان، فخسروا مناصبهم الرفيعة، بل وحياتهم أحياناً، مثلما حصل للملوك برقوق وآيتكين موي دراز (أمين خان)، مُقْطَع أوَذ، الذي شُنق حوالى سنة 678 هـ / 1279 ـ 1280م، لإخفاقه في إخماد ثورة طغرل. أمّا

---

(100) المصدر نفسه، 36، 50، 65، 83. تَمُرخان في عهد محمود شاه: TN، ا، 476 ومخطوطة BL، ملف 188 ب (تر. 673). عن نقش حول ابن آيبكي شمسي ـ ي عجمي، محمد في فرّوخناغار بغورغاؤون، مؤرخ في 674 هـ / 1276م، انظر ج. يازداني، «نقوش عن سلاطين دلهي الأتراك»، EIM (1913 ـ 1914)، 26 ـ 27؛ RCEA، XII. 206 ـ 207 (رقم: 4711). أضف إلى ذلك أن حليف بلبان القديم نُصرت خان، كان لا يزال ممسكاً بزمام الأمور في بهايانا سنة 669 هـ / 1271 م.

(101) TFS، 66. تاج الدين، ابن قطلغ خان ـ ي شمسي، اعتُبر أحد «أمراء هندوستان» الذين أُرسلوا المحاربة المتمرد طغرل: المصدر نفسه، 83. ربما كان أبوه قطلغ خان الذي توفي في 635 هـ / 1237 م.

(102) مثلاً من ساران، «السياسة والشخصيات»، 242 ـ 243؛ نيغام، **الأرستقراطية**، 42، قائلاً إن بلبان «أراد الإجهاز على الأرستقراطية التركية»؛ نظامي، **بعض وجوه**. . . ، 143، وفي HN، 285 ـ 286.

(103) TFS، 61، حول مدى قربه من بلبان؛ وانظر أيضاً 24، 81، 88. يظهر اسمه بوضوح في مخطوطه BL، ملف 32 أ، 47 أ، على شكل ب ي ك ب ر س؛ وعن الشكل نفسه في مصر المعاصرة، انظر الصفدي، **وافي**، X، 187 ـ 188.

أبناء مماليك بلبان الذين عرفوا باسم **مولى زادَغان** («أبناء المحرَّرين»)، فقد لعبوا دوراً بارزاً في شؤون الدولة. ثمة مثال نجده متمثلاً، **بالساري جاندار** اختيار الدين علي بن آيبك، المعروف لدى العامة باسم حاتم خان، الذي مُنح آمروها، إقطاعاً له أوائل عهد بلبان، وحصل في ظل كَيقُباد على أوَذ، ولقب خان جهان: ظل الشاعر أمير خسرو في خدمته عدداً من السنين[104]. في عهد خلف بلبان كان لا يزال يوجد فريق واضح المعالم، ومعتد بنفسه من الغياثيين، من الغلمان السابقين للسلطان القديم أو ذراريهم، مثل اختيار الدين آلب غازي الذي عارض النظام الخَلْجي المؤسس حديثاً في 689 هـ / 1290م[105].

وبالتالي فإن الوضع والنسب المملوكيين دأبا، رغم قيام بلبان بتغيير الكثير من الكوادر، على الاستمرار بوصفهما من المؤهلات، اللازمة لشغل المناصب الرفيعة. ومع ذلك فإن الطبقة الحاكمة، شهدت قدراً مؤكداً من التوسع في عهده. لم يكن بلبان أكثر من أسلافه الشمسيين، اعتماداً على نخبة مؤلفة حصراً من ذوي الأصول التركية، ولا تضم سوى أقاربه القريبين، أو مماليكه وذراريهم. فَبَرني يقدمه لنا بوصفه شديد العداء لترقية وضيعي النسب، وعازفاً عن تعيين شخص معين يدعى كمالي مهيار، في منصب مفتش الواردات (**خوجا**) في آرموها. ولو لم تكن ثمة رواية أكمل بعض الشيء، للقصة في مصدر يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، لكان من المحتمل، أن نظل أقل ميلاً إلى التسليم بقيمة الرواية وأن نبادر إلى رفضها، بوصفها وجهة نظر برني الشخصية، الممررة عبر السلطان. غير أن اعتراض بلبان، كان واضح

---

(104) TFS، 36، 118 ـ 119؛ وعن آواد، QS، 221؛ RI، V، 55. **مولازاده**، مشروح في هوديفالا، **دراسات**، ا، 342. عن خسرو، انظر ميرزا، **حياة وأعمال**، 66، 69، 70 ـ 73.

(105) TMS، 63: عنه، انظر هـ. 128 في هذا السرد. وعن نموذج آخر لأمير يحمل لقب «قطلغ سلطاني غياثي» هذا، انظر يازداني، «نقوش عن سلاطين... الأتراك»، 31 ـ 32.

الاستناد إلى حقيقة أن كمالي مهيار، كان ابناً لأحد المماليك الهنود[106]. فنظراً لأن سيرته الخاصة قد ابتُليت مؤقتاً، بالغلام الهندي ريحان، ثمة احتمال قوي بأن يكون السلطان، قد حمل نفوراً إزاء الأشخاص، الذين هم من الخلفية ذاتها. ومن الجدير بالملاحظة أن غضب بلبان لم يتسع، ليشمل الهنود ذوي الأصول النبيلة، مهتدين كانوا أم وثنيين. ويقال لنا إن فريق القائمين على خدمته، كان يضم شخصاً معيناً يحمل لقب «هاتيا بايك»، يفترض أنه أرستقراطي هندوسي، كان يحصل على جُعالة كبيرة، تبلغ مئة ألف من **الجيتالات** (حوالى ألفي **تنغا**)[107]. وغداة حملته ضد أهالي جبال الملح (كوهي جود)، في حوالى 665 هـ / 1266 ـ 1267م، اصطحب بلبان ابني الراجا اللذين اعتنقا الإسلام، لدى عودته إلى دلهي. ومن شأن ظهور هذين الأميرين: علي شاه كوهي جود وعز الدين خُرّم، حنباً إلى جنب مع المحتقر كمالي مهيار، بين صفوف مالكي (أمراء) كَيقُباد، حفيد بلبان، أن يشكل مؤشراً دالاً على صعود أرستقراطية إسلامية هندية، حتى قبل الحقبة الخَلْجية، التي يجري ربطها بها تقليدياً[108].

بقيت طبقة النبلاء شاملة لأمراء طاجيك، كان أبرزهم في السنوات الأخيرة من عهد بلبان كوتوال دلهي: فخر الدين، الملقب بـ (**ملك الأمراء**). إن برني الذي يزعم أن فخر الدين وأباه، قد شغلا ذلك المنصب مدة ثمانين سنة، يمكننا من التعرف على الأب، بوصفه جمال الدين نيشابوري، حاملاً لقب **أُلُغ كوتوال بك** في 655 هـ / 1257م، حين كانت دلهي متعرضة لهجوم أعداء بلبان: من شأن جذور النيشابوري، أن تفسر لقب **خان خراسان**

---

(106) TFS، 36 ـ 37. سيد أشرف جيهانغير سيرماني، **مكتوباتي أشرفي**، مخطوطة BL ms. Or. 267, fol. 66 b

(107) TFS، 210.

(108) TMS، 40، 54، انظر TFS، 126، عن نبلاء كيقُباد الثلاثة جميعاً إ. هـ. صديقي، «الحراك الاجتماعي في سلطنة دلهي»، في ع. حبيب (محرراً) **الهند في العصر الوسيط**، ١، 24.

الطنّان، الذي حصل عليه فخر الدين في ظل كَيقُباد[109]. أما ابن أخيه، وصهره، نظام الدين، الذي أصبح **دادبك** كيقباد، والذي يوصف بأنه أحد الناجين «من الملوك الشمسيين والبلبانيين اللامعين»، فشخصية غامضة ويبدو نازلاً من السماء، ما لم تتم مماهاته مع نظام الدين بوزغالا، مدير بيت (وكيلي دار) بلبان[110]. كذلك شهد عهد بلبان استمرار وصول، نبلاء مسلمين من مختلف الأقاليم، التي وقعت تحت الاحتلال المغولي[111]. ثمة مهاجر متميز تميزاً خاصاً هو الحجاج، سلطان كرمان المخلوع، الذي بقي عشر سنوات، ولم يعد إلى وطنه، إلاّ بعد اعتلاء جلال الدين الخَلْجي للعرش، غير أنه قضى نحبه على الطريق في بهكّر، أواخر سنة 690 هـ / 1291 م[112].

ويبدو أن بلبان، ربما تعمد تدعيم نفوذ أمراء الخَلْج، وأفاد من تدفق النبلاء المغول في أعقاب الانتفاضات، التي حصلت في المناطق المغولية، بعد

---

(109) جمال الدين، TN، ا، 493 (تر. 709). فخر الدين: TFS، 117 ـ 118، 126؛ ثمة تلخيص لحياته العملية من قبل ب. س. ماثور، «ملك الأمراء فخر الدين ـ كوتوال دلهي»، IC 39 (1965م)، 205 ـ 208.

(110) TFS، 131، 168؛ قارن أيضاً 24، 36، 37، 191. **بوزغالا** تعني «فرخ» بالفارسية: انظر اللعب على الكلمات في TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 40 أ.

(111) فيريشتا، ا، 131، مقتبساً من عين الدين بيجابوري.

(112) ناصر الدين كرماني، **سمط العُلىٰ للحضرات العليا** (حوالى 1315م). تحقيق عباس إقبال (طهران، 1328 هـ / 1949م)، 49. مجهول المؤلف، **تاريخي سيستان**، تحقيق ملك الشعراء بحار (طهران، 1935م)، 405، وتر. ل. ب. سميرنوفا (موسكو، 1974)، 376. حمد الله مستوفى قزويني، **تاريخ ـ ي غوارايدا**، تحقيق عبد الحسين نوائي (طهران، 1960)، 532. يقول رشيد الدين إن الحَجّاج بقي في الهند مدة تقرب من خمسة عشر سنة. TJ، II، تحقيق إ. بلوشين، GMS، XVIII (لايدن ولندن، 1911م)، 552 وتر. ج. آ. بويل، **ورثة جنكيزخان** (لندن ونيويورك، 1971م)، 305، تر. يو. پ، فيرخوفسكي، **سبورنيك ليتوبسي**، II (موسكو ولينغراد، 1960م) 198. إشارات موجزة في وصّف، 291، وشابان قرائي (1337م)، **مجمع الأنساب**، تحقيق ميرهاشم محي الدين (طهران، 1984م)، 199. أن يكون حاكم كرمان قد غادر سيستان غداة ورود أنباء زحف الإيلخان آباقا على خراسان يضع رحيله في 678 هـ / 1279 م؛ انظر JT، III، تحقيق آ. آ. علي زاده وتر. آ. ك. آرندس (باكو، 1957م) النص 152 ـ 153، تر. 94، وعن التاريخ، جان أوبان، «أصول القاراؤون العرقية» ترجيكا ا (1969م)، 85 هـ. 4.

حوالى سنة 1260م. ويقال إن أخاه كشلي خان، بوصفه حاجباً (**أمير ـ حاجب**) في خمسينيات القرن الثالث عشر، كان على علاقة ودية مع أمراء الخَلْج، بين آخرين، فيما كان ضباط من الخَلْج في تاريخ لاحق، يخدمون في السند، تحت قيادة محمد بن بلبان، المعروف باسم «الأمير الشهيد»[113]. أما أمير جمال خَلْجي، الذي جعله بلبان **نائب دادبك**، فيحتمل أنه **حاجبه** جمال الدين علي، الذي أوفده مبعوثاً إلى المغول سنة 658 هـ / 1260 م[114]. وإذا استطعنا أن نثق بوصّاف، فإن السلطان المقبل جلال الدين خَلْجي، كان لاجئاً جاء من المنطقة المغولية، في ستينيات القرن الثالث عشر، سبق له أن كان رئيساً لإمارة الخَلْج، بتفويض من حاكم بنبان[115]؛ وإذا كان هو الشخص، الذي يعتبره الجوزجاني (**شحنة**) حاكماً «مقيماً» مغولياً في بنبان، الذي كان أحد أبناء الأمير يوغروش، فإن جلال الدين نفسه، ربما كان مرافقاً للسفارة المغولية، المتجهة إلى دلهي سنة 658 هـ / 1260 م[116]. فبرني الذي يورد اسمه مع اسم أخيه، شهاب الدين مسعود في قائمة ملوك بلبان، لا يلبث أن يقدم جلال الدين فيما بعد، متعاطفاً مع ذكرى تنصيب بلبان[117].

شكَّلَ المهاجرون المغول، بالمقابل، عنصراً جديداً في سياسة السلطنة. ثمة أمراء مغوليون هربوا، ولاذوا بمناطق سلطان دلهي بعد سنة 660 هـ / 1262م[118]، بطريقة شديدة الشبه بهروب القادة المغوليين وأتباعهم، المهزومين في صراع أو آخر مع رفاق سلاحهم، رغبةً منهم في الحصول، على ملجأ في

---

(113) TN، II، 46 (تر. 798). TMS، 47.

(114) TFS، TN24 .، II، 86 (تر. 86).

(115) وصّاف، 311؛ JT، تحقيق يان، **كتابات فارسية**، النص العربي .Taf 57 (النص الفارسي Taf 23 مشوه؛ قارن تر. ألمانية 48 ـ 49)؛ قاشاني، 185.

(116) TN، II، 88 (تر. 862) .TMS، 56، 61، يدعو أباه يوغروش.

(117) TFS، 24، 178. عن شهاب الدين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 186؛ DR، 54؛ ابن أبي الفضائل، تحيق كورتانتامر، النص العربي، 29 (تر. ألمانية، 108).

(118) د. آيالون، «الوافدية في الدولة المملوكية»، IC 25 (1951م)، 81 ـ 104، معاد طبعه في كتابه **دراسات**.

ولايات سلاطين المماليك، في كل من مصر وسورية. وحسب رواية أحد كتاب القرن الرابع عشر، فإن حيّاً كاملاً من أحياء العاصمة، كان يحمل اسم الحي الجنكيزي، نسبة إلى أولئك المغول في عهد بلبان. لقد اعتنقوا الإسلام، وإن لم يكونوا مسلمين أساساً، بعد وصولهم، وباتوا، مثل خلفائهم الذين دخلوا السلطنة، أيام علاء الدين خَلْجي، يُعْرَفون باسم «المسلمين الجدد» لدى برني[119]. ومن الملوك الذين يحملون أسماء مغولية مؤكدة، دون أي مجال للخطأ بيانشر؛ وأولاغشي بن طرغاي، «قائد سلاح المسيرة» (**سر سلاحدار ميسرة**)؛ وطرمطاي، أحد القادة الذين أخفقوا، في إخماد الثورة البنغالية؛ وجاؤرشي، **سَر جاندار** كيقباد[120].

يبدو أن هؤلاء الأمراء المسلمين الجدد، كانوا في البداية يشكلون جزءاً من التحالف، الذي ضمن العرش لكيقباد، ويتقاسمون النفوذ مع نظام الدين، لأنهم يوصفون بأنهم، كانوا متمتعين بالمناصب والحظوة (شغل ودار ومقرّب). غير أن نظام الدين، ما لبث أن تحول ضدهم أيضاً، بعد خلاصه من المنافسين الآخرين، من أمثال الوزير. لقد تعرض الأمراء المغول، بمن فيهم حلفاؤه السابقون، مثل كَري و**الساري جاندر** جاؤرشي، للتجميع والإعدام بأكثريتهم، على الرغم من الاكتفاء، بنفي كل من جاؤرشي. ومُغُلْطاي[121]. كثيرون من

---

(119) فيريشتا،1، 131، مقتبساً من **ملحقات** البيجابوري لـ TFS. TN، 135.

(120) تعرض اسم بايانتشار للتشويه إذ ورد على شكل ن ا هـ ج ن في TFS، 126، وعلى شكل «أ هـ ح ن» في المصدر نفسه، 183 (حول الشكل الصحيح ب ا ي ن ج ر، انظر مخطوطة BL، ملف 67 ب، 99 أ). جاورجي: TMS، 53، وFS، 184 ـ 188 (تر. 315 ـ 319). تورومتاي: FS، 165 ـ 166 (تر. 292 ـ 293). تورغاي وأولاغتشي: TFS، 24، 126، 183. إن اسم الأب هو في الحقيقة تو. **تورغاي** «سنونو عصفور دوري»: سوفاجيه، «أسماء وألقاب»، رقم: 128؛ كلاوسون، **قاموس جذور**...، 541. عن مو. **أولاغتشي**، «ضابط نظام البريد الممرحل»، انظر بول پليو، **ملاحظات حول تاريخ الجحفل الذهبي** (باريس، 1950)، 34 ـ 35؛ وحول بايانتشار (مو. بايان «غني» + ذيل **تشار**)، المصدر نفسه، 52، 89؛ وعن مو. **تورومتاي** «الصقر الديك»، انظر ف. د. لسنغ، **قاموس مغولي ـ إنجليزي**، بيركلي ولوس أنجليس، 1960)، 827.

(121) TFS، 133 ـ TMS134.، FS53.، 186 ـ 188 (تر. 317 ـ 319).

موالي (مولى زادات) بلبان، ممن كانوا على علاقات نسب ومصاهرة معهم. تعرضوا أيضاً للاستئصال، بمن فيهم أبرزهم، **مالك شاهق**، الملقب أجدرخان، الذي كان حاجباً (أمير ـ حاجب) ومقطعاً لمُلْتان، وملك تركي، **العارض**[122]. ومن الواضح بجلاء أن نظام الدين، لا بلبان، هو الذي بذل أقصى الجهود في سبيل الإجهاز على الغلمان الأتراك، خلال السنوات القليلة السابقة لاستيلاء الخَلْجيين على السلطة.

غير أن الأمراء المغول كانوا، حتى بعد إزاحة نظام الدين، لا يزالون طليقين أحراراً. قد يكون عصامي على صواب حين يقول، إن أولئك الذين اغتالوا كيقباد فيما بعد، كانوا أبناء تركي، أي **عارض** كيقباد، الذي كان قد قضى في أثناء صعود نظام الدين. وما يقال عن لف السلطان المخلوع بثوب نومه، وركله بالأقدام حتى الموت، يذكرنا بتقليد مغولي كان يقضي، بالحيلولة دون إسالة الدماء الملكية على الأرض[123]. وقد كان أعضاء مؤسسة بلبان المملوكية الذين كانوا قد ذاقوا طعم عمليات التطهير، مؤهلين لتولي السلطة: إن «مماليك بلبان، من بين الأمراء والملوك، والنبلاء والقادة العسكريين» هم الذين فقدوا الأمل في كيقباد العليل في 689 هـ / 1290م، وحاولوا أن يحكموا عبر ابنه الطفل كيومرث[124]. ومرة أخرى نجدنا أمام تحالف، يضم عناصر مختلفة، لأن هذه الجماعة التي كانت بزعامة أيتمُر كشهان، وأيتمُر سورخا، اللذين كانا، غداة سقوط نظام الدين، قد أصبحا **باربك (أمير ـ حاجب)**، و**وكيلاً للدار**، على التوالي، سمحا باستدعاء الخَلْجي جلال الدين من إقطاعه في سامانا، وتوليته منصب **العارض**، ومنحه إقطاع بَرَن، إضافة إلى لقب

---

(122) TFS، TMS134 .، 55 ـ 56.

(123) TFS، 173. قارن ج. آ. بويل، «موت آخر للخلفاء العباسيين: رواية إسلامية معاصرة»، JSS 6 (1961م)، 150. مطبوع ثانية في كتابه **الإمبراطورية المغولية العالمية** (لندن، 1977م).

(124) TFS، 171.

شايستاخان[125]. غير أن الأيتمُرين سعيا إلى تدمير جلال الدين. وفيما سقط قاتشخان في الصراع، وقُتل سورخا في محاولةٍ فاشلة لإنقاذ كيومرث[126].

يبدو أن صعود جلال الدين سلَّم النفوذ والسلطة، كان نتاج نوع من المساومة. يعترف برني، أن عدداً من الملوك والأمراء الأتراك، كانوا قد راهنوا عليه ووقفوا في صفه[127]، وكانت ثمة مفاوضات مع الفريق الغياثي، بزعامة ابن أخي بلبان: الملك تشحجّو؛ على الرغم من أن سبب رفض الأخير، لعرض جلال الدين المتمثل بمنصب النائب، وتفضيله الانسحاب إلى إقطاع قارا، ليس واضحاً. لقد شكل تنصيب جلال الدين بالذات في 689 هـ / 1290م، بالنسبة إلى تشحجّو، إشارة الثورة في أوَذ على رأس مماليك بلبان الأتراك، وأسرهم مع مجموعة من الأمراء المغول من «المسلمين الجدد». وقع تشحجّو والكثير من مؤيديه في الأسر؛ يقال إن جلال الدين عاملهم برفق ولين، وإن فقدوا إقطاعاتهم ووظائفهم، فضلاً عن أننا لم نعد نسمع شيئاً عن تشحجّو نفسه، الذي أُرسل إلى مُلْتان[128].

---

(125) TMS، 55 ـ 56. عن لقب شايستاخان، انظر TFS، 126، 170 (س ي ا س ت؛ ولكن قارن مخطوطة BL ملف 91 ب).

(126) كثيراً ما أرجعتُ الرواية العارضة لـ TMS، 56 ـ 61 إلى نظيرتها في TFS، 172 ـ 173، حيث تظهر هذه الأحداث متداخلة ومشكّلة قصة واحدة حيث تكون وفاة كاتشتشان متبوعة مباشرة بوفاة شوركا. تبدو رواية FS، 203 ـ 209 (تر. 265 ـ 272) منتمية إلى تقليد سرهندي نفسه. في إحدى النقاط يكون سرهندي هذا مخطئاً دون أدنى شك. فهو يطلق على السلطان الطفل اسم كيكاووس (وهو اسم نجل بوغرا خان الأصغر بالفعل وخلفه في لخناوتي)، غير أن كيومرث برني مؤيد بـ QS، 137، 142، إلخ. ومن جانب ابن أبي الفضائل، تحقيق كورتانتامر، النص العربي 29 (تر. ألمانية 108).

(127) TFS، 172.

(128) كان مع المتمردين **مولازاده** بلبان أمير علي حاتم خان، **ساري جاندار** ومُقْطع أوَذ؛ قائدان آخران من القادة الغياثيين السابقين، ابن أجدر خان اختيار الدين آلب غازي، مُقْطع كاسراك (الذي قتل)، وملك بَهَادُر؛ واثنان من الأمراء «المسلمين الجدد» هما بايانتشار وأولاغتشي. HN، 313 ـ 315. المصادر هي: TMSN، 62 ـ 64؛ TFS، 181 ـ 184؛ وMF، (الأكثر تفصيلاً)، 7 ـ 22، عن آلباغازي كأحد ملوك كيقُباد، انظر TFS، 126. وأبوَّته واردة في GK، مخطوطة TOL الفارسية 412، ملف 284 أ.

«الثورة الخَلْجية»

شكل اعتلاء جلال الدين للعرش، قطيعة مع الماضي، بطريقة مغايرة لما حصل، لدى قيام بلبان باغتصاب السلطة. كان أوائل الجغرافيين والمؤرخين المسلمين، قد درجوا على اعتبار الخَلْج، قوماً من الأتراك[129]؛ غير أن الروايات التي تتحدث عن عملية انتقال السلطة من الغياثيين إلى الخَلْجيين، تشير إلى أنهم كانوا ـ الخَلْجيين ـ يُعْتَبرون في دلهي، في القرن الثالث عشر، قوماً متميزاً تماماً، ومختلفاً عن الأتراك[130]. قد يكون هذا عائداً إلى المعنى الخاص، الذي اكتسبته عبارة «تُرْك»، التي باتت تعني إلى حد بعيد، غلاماً أو مملوكاً تركياً (انظر الملحق رقم: 1). أثار انتقال السلطة إلى جلال الدين، سخطاً شديداً لدى أعيان دلهي، أبناء العائلات الكبرى (**خايلخانها**)، الذين ربما كان الكثير منهم غلماناً أتراكاً، أو أبناءهم، وكان قد تم إخفاؤهم في العاصمة، منذ أيام بلبان على الأقل[131].

يبقى احتمال، أن يكون تغيير الأسرة الحاكمة، منطوياً على مضاعفات خطيرة فيما يخص، تركيبة الأرستقراطية عن طريق إذابة الصفة التركية، للطبقة الحاكمة، مسألةً أخرى على أية حال. ربما انحصرت الإصابات الرئيسية، التي ترافقت مع استيلاء الخَلْج على السلطة، بعدد من النبلاء ذوي الأصول المملوكية التركية. فبرني يصور أبناء ملوك بلبان خلال عهد جلال الدين على أنهم حشد من النبلاء المنزوعة أملاكهم، والمستعدين للانقضاض على أية

---

(129) الهوامش مجمعة بصورة مقنعة في عزيز أحمد، «النواة التركية المبكرة»، 103 ـ 105. انظر أيضاً شابان كارائي، 87، الذي يعتبر جلال الدين «أيضاً تركيا بين خلج التركمان» (**هام تركي بود آز تاركيماني ـ ي خلج**).

(130) TFS، 171 ـ 172؛ قارن أيضاً 150، **آز آصلو قاوم ـ ي ديغر**.

(131) المصدر السابق، 172، 173.

فرصة متاحة، من أجل تقويض النظام الجديد. وللحظة، يبدو أن أعياناً مختلفين من حقبة بلبان فقدوا مناصبهم ومعاشاتهم، التحقوا بركب نجل السلطان الجديد البكر، محمود، الملقب بخاني خانان؛ غير أنهم ما لبثوا، لدى موته قبل أوانه حوالى سنة 691 هـ / 1292م، أن تورطوا في مؤامرة، استهدفت استبدال جلال الدين بالدرويش سيدي مولّه، وإعادة توزيع مناصب البلاد، والإقطاعات على أبناء خانات بلبان وملوكه. ما من شيء يؤكد، أنهم جميعاً كانوا من الأتراك: فمنهم قاضي القضاة السابق كاساني، وهاتيابايك والكوتوال بيرنجين[132]. وعلى الرغم من استحالة إثبات التهم، فإن اثنين من النبلاء المتهمين، أُعدما وتمت استباحة ممتلكات الباقي، فضلاً عن طردهم إلى أقاليم نائية[133]. يبدو أن أميراً مغولياً يدعى أُلوغو، كان قد التحق بخدمة البلاط سنة 691 هـ / 1292م، هو من أَفْشىٰ سر المؤامرة للسلطان[134].

وكما هو متوقع، فإن السلطان الجديد، حرص على ترقية أبناء جلدته من قبائل الخَلْج، ولا سيما أبناء عائلته الكبيرة نسبياً، تلك التي ضمت، في الحدود الدنيا، ثلاثة أبناء؛ وأخاً هو الملك خاموش، الذي أصبح **عارضاً**؛ وعماً؛ وأربعة أبناء أخ، كان أحدهم علاء الدين محمد (سلطان المستقبل)، سليل شهاب الدين مسعود، الأخ الأكبر المتوفى لجلال الدين. ومن أمراء الخَلْج الآخرين، الذين تمت ترقيتهم حديثاً، قريب السلطان أحمد شاب، (كان ياوراً لأيتمُر سُرْخا ذات يوم، وأخذ اسمَه الثاني من الطريقة الخَلْجية، في لفظ كلمة

---

(132) عن اسم الكوتوال الذي يظهر على شكل ب ر ن ج ت ن في TFS، انظر مخطوطة BL، ملف 113 ب (ب ر ن ج ي ن). يفترض أن برنجين كان قد جاء بعد فخر الدين الذي لا يتم ذكر موته خلال عهد علاء الدين، إلاّ في بعض المصادر المتأخرة: AHG ,II، 782؛ فيريشتا، ا، 161. عن اسم خان ـ ي خانات الشخصي. انظر GK، وارد في ميرزا، **حياة وأعمال**، 83 و هـ. 3.

(133) TFS، 210 ـ 211. للاطلاع على تفسيرات متباينة لهذا الحدث، انظر هوديغالا، **دراسات**، ا 267 ـ 268، وسيمون ديغبي، «القلاندر والجماعات ذات العلاقة»، في فريدمان، **الإسلام في آسيا**، ا، 67 ـ 68.

(134) TMS، 65، عن وصوله، انظر TFS، 218 ـ 219.

حاجب) الذي أصبح **سَري جانداري ميمنه**، وربما الملك عِوض، الذي كان اسماً شائعاً بين الخَلْج[135].

ومع ذلك فإن **سرهندي**، الذي يؤكد أن أكثرية المناصب، ذهبت إلى أقرباء السلطان الجديد[136]، يبالغ في الأمر. فأية معاينة لأسماء الأعيان، والنبلاء الواردة في لائحتي كل من برني، وسرهندي، كليهما، في أثناء سردهما لقصة عهد جلال الدين، تكشف عن أن نسبة عالية من أولئك، كانوا بارزين في ظل الغياثيين، ولم يكونوا منتمين إلى الخَلْج. لعل النموذجين الأبرز، هما خواجا خطير الدين، الذي تعرض لإذلال نظام الدين، ولكنه ما لبث أن استُوزر ثانية، والكوتوال فخر الدين، الذي جرى تثبيته في منصبه[137]. أما ملِك فخر الدين دوتشي، وأخوه ملك تاج الدين، فربما كانا ينتميان إلى عائلة أنجبت، عدداً من الأمراء أيام إلتُتْمش؛ ونجدهما في ظل جلال الدين، شاغلين لمنصبي **دادبك**، ومُقْطَع أوَذ على التوالي[138]. ومن أمثلة النبلاء الآخرين، الذين كانوا قد خدموا الغياثيين، الهندي المهتدي مالك عين الدين علي شاه كوهي جودي، وأخوه ملك اختيار الدين خُرّم، الذي جرى ترفيعه إلى منصب **وكيلي دار**[139]. يمكن الإكثار من هذه الأمثلة[140]. بل ونجد اختيار الدين هندوخاني

---

(135) TMS، 62. ثمة قائمة بأقارب جلال الدين في FS، 226 ـ 227 (تر. 392 ـ 393). عن أحمدي تشاب، انظر هوديغالا، **دراسات**، 266l.

(136) TMS، 62.

(137) TFS، 174، 177.

(138) عن تاج الدين وفخر الدين، انظر أيضاً المصدر نفسه، 203: MF، 14. ربما كان أبوهما هو **دادبك** بلبان، المعروف باسم ملك ناصر الدين كوتشي: TFS، 24 (وإن كان FS يورد هذا اسماً لشقيق فخر الدين) عن ملوك كوتشيين سابقين، انظر TN، ا، 456، 459 واا، 6، 13 (تر 633، 634، 639، 640، 726، 735).

(139) TMS، 84، (ك، هـ، ج، و، ر، ي خطأ). MF، 27، 33، 34، TFS، 174، (ء خ ب ا ر بدلاً من ء خ ت ي ا ر، للتصحيح عن مخطوطة BL، ملف 93 ب)، 177، 195، 233.

(140) ملك اختيار الدين بغتوت، **نائب أميري حاجب** في ظل كل من كيومرث وجلال الدين: TMS، 60، وTFS، 126 (س ك ن ت، للتصحيح عن مخطوطة BL ملف 68 أ)؛ وعن الاسم، ل. =

غياثي ـ الذي من الواضح من نسبته، أنه ابن أحد مماليك بلبان ـ صار **نائب وكيلي دار** في ظل السلطان الجديد[141]. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الرجال، تورطوا لاحقاً في مؤامرة حيكَتْ ضد جلال الدين[142]، فإن من الجدير بالملاحظة، بأن أحداً لم يقل إن واحداً منهم، أيد ثورة تشحجّو، وإن الأخوين كوهي جودي وتاج الدين كوجي، قاتلا تحت الراية الخَلْجية في هذه المناسبة[143].

تكشف السنوات الأولى من عهد الأسرة الحاكمة الخَلْجية، عن استمرارية مثيرة مع الحقبة السابقة؛ فالنخبة الحاكمة، التي جاءت بعد اعتلاء جلال الدين للعرش، تحمل طابع المساومة التي لاحظناها، بالارتباط مع تغييرات سابقة في النظام. أمّا الانطباع الذي يتم تركه فيقول، على النقيض من ذلك، إن تحولاً درامياً مثيراً، على صعيد تركيبة الطبقة الحاكمة ـ أي الثورة الخَلْجية الحقيقية ـ ما لبث أن جاء مع علاء الدين. في البدء كان السلطان الجديد، حريصاً على مكافأة أولئك الذين، كانوا قد تخلوا عن أبناء عمومته من رجالات الجلاليين. غير أن النظام، أصبح يملك ما يكفي من القوة، للتحرك

= راسوني، «الأسماء الضرورية لدى الشعوب التركية»، AOH، 15 (1962م) 241 ـ 242. ملك مُغُلطاي، نفاه نظام الدين من قبل: TMS، 64 ـ 65. ملك ناصر الدين رانا، الذي احتفظ بمنصبه **كشحنه ـ ي بيل** (مسؤول فيلة) منذ عهد بلبان وحتى عهد علاء الدين خلجي: TMS، 58. ملك نُصرت ـ ي صباح، الذي كان أبوه أيضاً ملكاً والذي ما لبث أن أصبح رئيس حَمَلة المحابر **سار ـ ي د و ا ت د ا ر**): TFS، 174 (ج ن ا ح بدلاً من ص ب ا ح، للتصحيح عن مخطوطة BL، ملف 93 ب (198، 204، FS، 227 (تر. 393)؛ MF، 14. ثمة آخرون ورد ذكرهم في MF، منهم ملك عين الدين هيراغار، الذي أصبح **آمر ـ ي شيكار** لدى جلال الدين، وملك محمود **ساري ـ جاندار** جلال الدين؛ ملك كيكي، الذي حكم كول لصالح السلطان الجديد.

(141) TMS، 62، 69.

(142) فقد هيراغار منصبه **كساري جاندار** ويبدو أن تاج الدين حُرم من أوَذ، غير أن مُغُلطاي ومبارك لم يتعرضا للإبعاد إلى إقطاعيهما لعام واحد: TFS، 190 ـ 192؛ TMS، 64 ـ 65.

(143) فيما عدا الأماكن التي تم فيها إيراد مراجع أخرى، فإن عملية إعادة صياغة هذه الفقرة مستندة إلى TFS، 126، 174، 177؛ TMS، 54، 62؛ وMF، 14، 28. نيغام، **الارستقراطية**، 53 وملحق: ج، يتوصل إلى استنتاجات شبيهة عموماً باستنتاجاتي، وإن اعتمد على القراءات الشائهة لنص TFS المطبوع.

ضد الأمراء الجلاليين، ما أن تمكن أنصار علاء الدين، وأتباعه من ضمان استسلام مُلْتان في محرم 696 هـ / تشرين الثاني/ نوفمبر 1296م، وسَمْل عيون أبناء جلال الدين ومؤيديهم. وفي السنة الثانية من العهد (من أواخر 696 إلى أواخر 697 هـ / 1297 ـ 1298م)، تعرضت أكثريتهم الساحقة، بمن فيها هيرغار (أمين خان الآن)، الذي تولى مُلْتان فترة قصيرة، وآباتشي (آرسلان خان)، للاعتقال والسجن، فَسَمْل العيون أو الإعدام؛ أما الثروات والإقطاعات، والمناصب العائدة لهؤلاء، فقد تمت استباحتها، كما جرى تحويل فصائلهم العسكرية إلى الفرق الخاصة، العاملة لدى علاء الدين. وحسب ما جاء على لسان برني، فإن ثلاثة فقط ممن رفضوا خيانة أبناء جلال الدين، أو قبول الهدايا من النظام الجديد، نجوا[144]. حتى هذا لم يضع حداً، لعملية تطهير الأرستقراطية القديمة. فملك الأمراء فخر الدين، كوتوال دلهي، ربما مات في أثناء حكم جلال الدين؛ غير أن أبناءه تعرضوا للملاحقة، والاعتقال وصولاً إلى إعدامهم سنة 700 ـ 701 هـ، بتهمة التآمر مع حركة تمردية، قادها في دلهي المعتوق حاجي مَوْلى[145]. ويبالغ برني حين يزعم إن أحداً من ذراري أمراء بلبان، لم ينج في أيامه هو[146]؛ غير أن هناك قليلاً من الشك حول كون اختفائهم شبه الكامل عائداً إلى عهد علاء الدين.

(144) TFS، 242، 247 ـ 248، 249 ـ TMS251.، 71 ـ 72.

(145) TFS، 282. عن موت فخر الدين انظر الهامش 132.

(146) TFS، 48؛ قارن أيضاً HN، 302.

الفصل الخامس

المركز والأقاليم

شهدت التسمية المعطاة، للمناطق الخاضعة لسيطرة السلطان، قَدْراً من عدم التحديد بصورة متكررة. فالجوزجاني يحدثنا عن «إمبراطورية دلهي» (**ممالكي دهلي**)، وبرني عن «أقاليم إمبراطورية دهلي» (بلادي ممالكي دهلي)[1]. أما ابن بطوطة، فيتكلم عن إمبراطورية محمد بن تُغْلُق بوصفها «الهند والسِّنْد»[2]، مميزاً المناطق التي تم كسبها لصالح الإسلام في القرن الثامن من باقي شبه الجزيرة. ثمة جغرافي مسلم من جيل أبكر يميز «هندوستان»، التي فتحها الغوريون ومن **حذا حذوهم**، عن العالم الهندي الأوسع، الذي يطلق عليه اسم «الهند»[3]. وليس مثل هذا الاستعمال، إلاّ صدى لنمط معتمد لدى كُتّاب في الهند. يقوم الجوزجاني أحياناً، بإطلاق اسم أقاليم ممالك هندوستان»[4] على السلطنة، مثلها مثل الفتوحات الغزنوية

---

(1) II, TN، 39 (تر. 785). TFS، 468.

(2) III, IB، 94، 161، 215، 248 (تر. حبيب، 593، 628، 657، 634)؛ انظر أيضاً الصفدي، **الوافي بالوفيات** III، 172.

(3) ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، 134، 136.

(4) I, TN، 6، 398، وII، 88، 90 (تر. XXXII، 455، 863، 874 ـ 879)، قارن أيضاً I، 418 (تر. 530)، حيث يتم استخدام العبارة للدلالة على مجمل المناطق الخاضعة للحكم الإسلامي في شبه القارة بما فيها السند؛ أيضاً II، 9، 32، **مملكة هندوستان** (تر. 731، 764).

obeikandl.com

والغورية قبلها؛ وبالتالي فنحن نقرأ عن حكام، يفوزون بـ «العرض» (**التخت**)، أو «المملكة» (الملك)، في هندوستان[5]. غير أن ما يبعث على التشوش والبلبلة، هو أن «هندوستان»، كانت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، تحمل معنى أضيق، بالنسبة إلى مؤلفين إسلاميين من داخل شبه القارة. كانت تعني الأقاليم الواقعة ـ ما بين نهري (**مياني دو آب**) (يمونة) والغانج ـ جنباً إلى جنب، مع المناطق المفتوحة جزئياً إلى جهتي الشرق والجنوب الشرقي. درج الناس على الهرب من دلهي إلى «هندوستان»[6]؛ ونحن نسمع عن «الإقطاعات الواقعة جهة هندوستان» (سمتي هندوستان)[7]، كما عن أمراء هندوستان وجيوشها، بهذا المعنى المحدود، لأقاليم دُواب وأوَذ، وقارا على ما يبدو بوضوح[8]. من شأن مثل هذه الحرية في استخدام التعابير الجغرافية، أن تفضي إلى الفوضى. لعل برني يلامس الوتر الأكثر نشازاً، حين يصف عملية تعرض، الجيوش «الهندوستانية» المسحوقة للسلطان بلبان (من أوَذ)، للسلب والنهب من جانب «الهندوس»[9].

حتى في القرن الثالث عشر كانت السلطنة، تقنياً، تحتضن مساحات واسعة، وتتألف من أقاليم كثيرة، قد يصح تسميتها بممالك بحد ذاتها. فلاهور، بوصفها «مقر إقامة الملك خسرو»[10]، (آخر السلاطين الغزنويين)،

---

(5) المصدر نفسه، II، 162، 169 (تر. 119، 1153). TFS، FS249 .، 604، 605 (تر. 898، 899).

(6) II,TN، 49 (تر. 802).

(7) المصدر نفسه، II، 66 (تر. 830): «تألفت من قارا ومانيكبور وأوَذ وتيرهوت حتى بداؤون». TFS، TMS300 .، 63.

(8) I, TN، 453، وII، 15، 29، 66 (تر. 629، 739، 759، 760، 830). درجت العادة على أن يكون الحاكم هو مُقْطَع أوَذ. المصدر نفسه، II، 72 (تر. 839)، «هندوستان» تعني بوضوح أوَذ بقعة مميزة عن ولاية سانتور الجبلية؛ ولكن قارن II، 58 ـ 59 (تر. 818)، حيث تضم أيضاً بصورة مضمرة مملكة رانثانبور التشاوهانية. TFS، 57، 141، 181، 182، 301، 328.

(9) المصدر نفسه، 84.

(10) I, TN، 454 (تر. 631).

وإقطاع وَلَدَيْ إلتُتْمش الأكبر بالتتابع، كانت واحدة. وثمة أخرى هي لخناوتي، التي انتزعها إلتُتْمش بكثير من الصعوبة، من براثن حكامها الخَلْجيين، وكانت على اتساع يؤهلها، لحمل تسمية (**إقليم**) «ولاية»[11]. يتحدث الجوزجاني وبرني كلاهما عن «العرش» (**تخت**) و«النظام الملكي» (**الملك**)، كما عن «شعار الحكم» (بادشاهاني)، بوصفها أموراً يجري إضفاؤها على أولئك، الذين يتم إرسالهم لحكم لخناوتي ـ سواء أكان ابن بلبان في حوالى 680 هـ / 1281م، أم كانوا أمراء كبار، مثل علاء الدين جاني، وابنه قيليج خان مسعود (فيما بعد)[12]. كان نواب الملك على هذا المستوى من البروز، يتمتعون بقدر معين من الامتيازات شبه الملكية، مثل حق حمل الدورباش، أو الصولجان والشتر (الشادر)، أو المظلة الخفيفة الاحتفالية: فقد أرسل إلتُتْمش إلى ابنه ناصر الدين محمود في البنغال، تشاتراً أحمر اللون في 626 هـ / 1229م، كما أنعم بلبان، بتشاتر ودورباش (صولجان) على ابنه: بغراخان، في لخناوتي، وبتشاتر على ابنه الآخر: محمد، في مُلْتان، ناقلاً رمز السلطة هذا فيما بعد، إلى ابن محمد كيخسرو بعد موت أبيه[13]. كانت مُلْتان قد حلت محل لاهور، بوصفها المقاطعة المخصصة لولي العهد الوريث، على الرغم من أن أحداً، لا ينبئنا عما إذا أقدم جلال الدين خَلْجي، حين أنعم على ابنه إرْكْلي خان بالمدينة، على منحه شارة الشرف والسلطة. يبدو أن هذه السياسة بقيت مستمرة حتى أوائل القرن الرابع عشر، حين بادر علاء الدين خَلْجي إلى منح شارات مماثلة ـ تشاتر أحمر، ثوب شرف، وبَيْرَقَيْن ـ لابنه البكر خضر خان في تشيتور سنة 703 هـ / 1303م، بأسلوب شديد الشبه، بما فعله حين أنعم بتشاتر على ملك

(11) مثل TFS، 82، 93.

(12) المصدر نفسه، 82، TN 92، I 448 وII، 13، 31، 35، 78.

(13) المصدر نفسه، I، 454، (تر. 630). TFS، 66، 92، 110؛ عن بغراخان، انظر أيضاً DGH، 69.

يادافا، ملك ديوغير، المستسلم المطيع في سنة 706 هـ / 1307 م[14].

ربما لم يكن تحديد سلطنة دلهي من المنطلقات المكانية، تحديداً واضحاً أمراً ممكناً. ففي القرن الثالث عشر يجب النظر إليها، بوصفها مجموعة من الممالك الفرعية[15]، منها ما هو خاضع لحكم أمراء هندوس، كانوا يُسَدِّدون الخراج بصورة دورية، ومنها ما هو محكوم من قِبَل أمراء من أسرة السلطان، أو أمراء ومُقْطَعين مسلمين[16]. وما كان يحدد مدى سيطرة العاهل، في التحليل الأخير، هو اعتراف الحكام المحليين، ولا سيما أولئك الذين كانوا يديرون المناطق النائية. فالزعم الذي يطلقه الجوزجاني، قائلاً إن «جميع الملاك والأمراء من منطقة لخناوتي، إلى أقاصي ديول (دَيبُل)، ودامريلا عبروا عن الولاء»[17]، لدى اعتلاء رضية للعرش، ليس (سواء أكان صحيحاً أم لا) إلاّ بياناً اصطلاحياً عن امتداد سلطة السلطان، أكثر من كونه تعبيراً عن أي قَدْر من التبجيل، والتفخيم الطنان لعرش «إمبراطورية هندوستان كلها».

من التمزق إلى التعافي

خلال القرن الثالث عشر الميلادي، شهدت الإمبراطورية التي أوجدها إلتُتْمش، قدراً غير قليل من التقلب والتبدل، على صعيد الاتساع والمدى، نظراً لأن الصراعات الدائرة بين صفوف الأرستقراطية، ولا سيما تلك الصراعات، التي احتدمت بين أُلُغ خان بلبان، وخصومه في خمسينيات القرن الثالث عشر، كانت في الغالب تنعكس أيضاً على الأقاليم. وكون ما نعرفه عن التطورات

(14) ملك يادافا: KF، 63 ـ 64؛ TFS، 326. خضر خان: DR، 67؛ TFS، 367؛ TMS 77.

(15) فكرة طرحها بيتر هاردي، «تطور السلطة على النخبة السياسية المهزومة: سلطنة دلهي المبكرة نموذجاً للدراسة»، في جون س. ريتشاردز (محرراً)، **الملكية والسلطة في جنوب آسيا** (ماديسون، ويسكونسن، 1978م) 203 ـ 204.

(16) هذا مضمر في الآراء التي يضعها في فم بلبان: TFS، 93.

(17) TN, I، 459، مع حذف دامريلا؛ ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 182 ب (تر. رافرتي، 641 أيضاً).

الحاصلة في المناطق البعيدة عن دلهي يعكس، إلى حد ما، طبيعةَ المادة المرجعية. فالتواريخ الإقليمية المتكاثرة من القرن الخامس عشر وصاعداً والتي أنتجتها الدول الوارثة، تخفق في إكمال، شهادة الجوزجاني على القرن الثالث عشر، وباستثناء فترة نفيه إلى لخناوتي (640ـ 643 هـ / 1242 ـ 1246م)، يبقى منظور الجوزجاني، دائم التطابق مع منظور المركز والبلاط. ومع ذلك فإن طبقته الثانية والعشرين ـ عن المماليك الشمسيين ـ تقدم قَدْراً محترماً من المعلومات، والبيانات عن الإقطاعات.

يعلمنا الجوزجاني أن احترام «مملكة هندوستان»، عانى من التدهور الشديد، غداة موت إلتُتْمش في 633 هـ / 1236م، مما أدى إلى بروز المنافسين، الراغبين في الحصول على أراضيها من كل حدب وصوب[18]. ربما كان الكثير من هؤلاء الأعداء غير المحددين، أمراء هندوس، في حين كان الخصم الأقوى والأكبر، الذي واجه خلفاء إلتُتْمش في السِّنْد، هو القائد الخوارزمي السابق، حسن قرلُق في البداية. غير أن ضباط السلطان أنفسهم، بادروا أيضاً إلى الإفادة من الوضع السائد في المركز. قد يدل تعليق الجوزجاني المبتسر، القائل إن المملوك الشمسي سيف الدين آيبك، مُقطَع أوتشش، «أصبح صاحب نفوذ»، إثر موت إلتُتْمش، بأن الأخير، ما لبث أن أعلن استقلاله عن دلهي لفترة وجيزة، قبل أن يموت في حادث ركوب[19]. يكون إقليم السنْد مشمولاً صراحة، بالأقاليم التي خضعت لرضية، والمسؤول الثاني المكلف بشؤون أوتشش، الذي يقال عنه إنه معين من قبلها، هو هندوخان، الذي ما لبث أن أُزيح، بعد إنزالها عن العرش[20]. جاء الغزو المغولي للسلطنة، أوائل 639 هـ / 1241 ـ 1242م، جالباً معه فُرَصاً جديدة لتعظيم

(18) المصدر نفسه، II، 9 (تر. 730 ـ 731).

(19) المصدر نفسه، II، 8 ـ 9 (تر. 730 ـ 731): عبارة **في حال غاشتا** محذوفة من النص المطبوع، غير أنها موجودة في مخطوطة BL، ملف 199 أ.

(20) I, TN، 459 (تر. 641)؛ II، 19 (تر. 746)، عن هندوخان.

الذات. ففي لاهور، كان قراقوش خان اختيار الدين آيتكين، الذي سبق أن عُيِّن هناك من قبل رضية، بعد إخماد ثورة كبيرخان في 637 هـ / 1239 ـ 1240م، قد أيد محاولتها الرامية إلى استعادة العرش في السنة التالية[21]، وكان، بالتالي، في حالة ثورة، على الصعيد التقني، ضد بهرم شاه. إن جيشاً جرى تسييره من دلهي، ما لبث أن انقلب عائداً، ليحاصر العاصمة ويطيح بالسلطان؛ غير أن غرضه المتمثل كما يقال لنا ـ لا بتحرير لاهور، بل بمجرد حراسة الحدود[22] ـ يعكس حقيقة أن المدينة في ظل قراقوش خان، باتت تُعْتَبَر، خارج الدائرة الخاضعة لحكم السلطان. وفي مُلْتان كان كبير خان أياز، قد سارع إلى إعلان استقلاله مع اعتماد تشاتر، فضلاً عن احتلال أوتشش[23]. وبالتالي فإن أية من ولايتي لاهور والسند، لم تكن تشكل جزءاً من السلطنة في هذا المنعطف الحاسم.

قام كبير خان وابنه تاج الدين أبو بكر، من بعده، بالدفاع عن إمارتهم ضد حسن قرلُق. غير أن حكم هذه الأسرة الحاكمة، ذات العمر القصير، التي صاغ لها البروفسور نظامي، اسم «أيازي» المناسب، ما لبث أن انتهى بموت أبي بكر، أوائل أربعينيات القرن الثالث عشر، حين نجح حسن قرلُق أخيراً في احتلال مُلْتان[24]. وعلى الرغم من أن منطقة السند، كانت قد استعيدت من قبل قوات السلطان في أعقاب الغزو المغولي سنة 643 هـ / 1245م[25]، فإن خطر الانفصال، ما لبث أن تنامى مع اندلاع، صراعات عهد ناصر الدين محمود شاه. عملياً توقفت السند عن تشكيل جزء من

(21) المصدر نفسه، ا، 462 (تر. 647).

(22) المصدر نفسه، ا، 466 (تر. 657).

(23) المصدر نفسه، II، 6 (تر. 727).

(24) ومع ذلك فإن موظفي هندوخان في أوشتش بقوا في أماكنهم: عن هذا وقيام حسن قرلق بالاستيلاء على المدينة، المصدر نفسه، II، 169 ـ 170 (تر. 1153). «الأسرة الآيازية الحاكمة»: HN، 249، 255، 260. وعن أبي بكر، انظر صدّيقي، «معلومات تاريخية»، 64.

(25) II, TN، 28، 37 (تر. 758، 781).

السلطنة بُعَيْد ذلك، حين بادر كوشلوخان، بعد إخفاقه، هو وقُطْلُغ خان، في احتلال دلهي، إلى التماس مساعدة المغول. والجوزجاني الذي كتب في أثناء قيام المغول، بتفكيك تحصينات مُلْتان، يكشف بأسلوبه عن حقيقة أن السند، باتت الآن خارج «حدود إمبراطورية دلهي» (سَرْحدزا مَمَالكي دهلي)[26].

توصف لاهور على أنها (**خراب**)، في أعقاب النهب المغولي لها في جمادي الثانية 639 هـ / كانون الأول / ديسمبر 1241 م[27]، على الرغم من أن المدينة بقيت، على ما يبدو، خاضعة لحكم اختيار الدين يوزبك (طُغرُل خان)[28]، مدة سنتين اثنتين. وبعد ذلك لا يقول الجوزجاني إلاّ القليل عن لاهور[29]، التي كانت، مثلها مثل المناطق الواقعة وراءها، في أقاصي الزاوية الشمالية ـ الغربية، قد أصبحت، على ما يبدو، جزءاً من الأراضي الخاضعة للسيطرة المغولية. فمن حوالى سنة 651 هـ / 1253م، نجد الأمير المرتد جلال الدين مسعود بن إلتُتْمش في لاهور، عميلاً للمغول. لم يتمكن من البقاء في منصبه هذا، إلاّ لفترة قصيرة، حيث تم خلعه على يد شيرخان، لدى عودة الأخير من البلاط المغولي[30]. وعلى الرغم من أنه عاد ثانية، وأصبح خليفاً لحكومة دلهي، فإن شيرخان سرعان ما بدأ يدبر المؤامرات لاستعادة إقطاعه القديم: تبرهند، الذي كان بيد آرسلان خان، مشتبكاً معه أيضاً في صراع. عند هذه النقطة تدخل القصر، وكسب شيرخان إلى صفه، مقابل منحه تبرهند «وكل الأراضي والإقطاعات التي كانت بحوزته»، بما فيها لاهور، على ما يبدو. ومع

(26) المصدر نفسه، II، 39 (تر. 785)؛ وقارن أيضاً II، 86 (تر. 860).

(27) المصدر نفسه II، 169 (تر. 1153).

(28) II, TN، 30 (تر. 762).

(29) المصدر نفسه، II43، يقال إن لاهور مُنحت لشيرخان مع تبر هند في 643 هـ / 1245م، ولكن قارن مخطوطة BL، ملف 211 (تر. رافيرتي، 793 أيضاً) حيث تكون لاهور محذوفة.

(30) II, TN، 44 (تر. 793).

ذلك فإن المكان كان مستحيل الاحتفاظ به دون شك، وما لبث شيرخان أن تخلى عنه على ما يبدو مرة أخرى. فحين ألزمه السلطان سنة 657 هـ / 1259م، بتبادل حيازته مع نصرت خان، مُقطَع بهايانا، ليس ثمة أي ذكر للاهور بين حيازات الأخير الجديدة[31].

وإلى الشرق فإن من الممكن اعتبار أوَذ، إقليماً آخر مثقلاً بالمشكلات في خمسينيات القرن الثالث عشر. فقُطْلُغ خان الذي أُرسل إلى هناك، بعد إخراجه من البلاط سنة 653 هـ / 1255م، اجتاح منطقة بداؤون، وهزم قوة بقيادة مُقْطَعها تنزخان، تعززها وحدات من دلهي، بقيادة بكتمر أورخاني ركني الذي قُتل هناك[32]. وفي 654 هـ / 1256م، تم وضع أوَذ بيد آرسلان خان، الذي كان مؤيداً بارزاً لألُغ خان بلبان، قبل سنتين اثنتين؛ وما لبث المُقْطَع الجديد أن أدى خدمة جليلة، بعرقلة جهود قُطْلُغ خان، الرامية إلى احتلال قارا. ولكن موقف آرسلان خان من الحكومة شهد ـ كما يقول الجوزجاني ـ تغييراً أدى إلى جعله متمرداً. وحين كانت الاستعدادات، جارية في دلهي على قدم وساق، أوائل سنة 656 هـ / 1258م، تمهيداً لشن حملة، لطرد المغول من السند، أهمل كل من آرسلان خان وقيلج خان جلال الدين مسعود، ابن علاء الدين جاني ومقطَع قارا، جلب فصائلهما المقاتلة. تقدم ألُغ خان واقتحم قارا، حيث جرى إخضاع الأميرين المتمردين[33]. حصل قيلج خان على تفويض، لتولي شؤون لخناوتي؛ في حين جرى نقل آرسلان خان إلى قارا، على الرغم من أن إقطاعه الجديد، لم يكن كما سنرى، بالحجم الذي يرضي طموحاته.

---

(31) المصدر نفسه، II، 42 ـ 43 (تر. 788)، عن التبادل، انظر أيضاً 44II (تر. 794).

(32) المصدر نفسه، I، 490، وII، 29 (تر. 703، 759 ـ 760).

(33) المصدر نفسه، II، 34 ـ 35، 77 ـ 78 (تر. 768 ـ 769، 847 ـ 848). عن قِلِج خان، الذي كثيراً ما التبس مع أمراء آخرين، انظر الملحق رقم: 2.

وفيما وراء أوَد، ثمة علاقات متوترة، كانت تربط دلهي، بالمناطق الإسلامية النائية في البنغال، وكانت تلك البقعة، ستُعرف في القرن الرابع عشر، باسم «الأراضي المنخفضة» (فورو دست)[34]، تمييزاً لها عن «البلاد العليا» (بالا ـ دست)، التي كانت تحتضن، بشيء من الغموض، الجهات الشمالية ـ الغربية، والمناطق الواقعة خلف الإندوس، باتجاه ما وراء النهر. إن عفيف، وهو غربي بطبيعة الحال، يجعل «أهل البلاد المنخفضة» (فورودستان)، يعترفون بأنهم أقل شأناً من أهل البلاد العليا (بالادستان)[35]. ومع ذلك فإن فتح البنغال والاحتفاظ به ـ وهو أرض مشاة (زميني رجّالا)، كما سيصفه السلطان التُغْلُقي فيروزشاه، سنة 1354 م[36] ـ لم يكونا من المهمات السهلة. اشتهر الإقليم بالغنى ـ وقد قيل عنه إنه «جحيم مملوء بالطيِّبات» (دوزخ آست يوري نِعْمَت)، كما يروىٰ عن ابن بطوطة[37]. ما من أمير هندوستاني كان قادراً ـ كما يقول برني ـ على منافسة من يكون فارضاً سيطرته على البنغال، من حيث الرجال أو الفيَلة أو الكنوز؛ وسلوك الكثير من حكامه في القرن الثالث عشر، شكَّل تبريراً كاملاً للقب «بولغاكبور» («مدينة التمرد»)، الذي أضفاه الناس على لخناوتي: «كما يقول برني»[38].

بعد موت إلتُتْمش، تعين على السلاطين أن يعترفوا، باستقلال ممثليهم في لخناوتي، دون الحصول على ثمن له قيمة بالمقابل. فمنذ سنة 631 هـ / 1233 ـ 1234م، كان مُقطَع كل من بيهار ولخناوتي، هو المملوك الشمسي

---

(34) TFS، SFS189 .، 33، 48. بيهامادخاني، ملف 421 ب، يستعمل العبارة بمعنى أوسع للدلالة على أقاليم شرق الياموتا.

(35) عفيف، 153؛ عن المعنى، انظر هوديغالا، **دراسات**، II، 127.

(36) عفيف، 119؛ عن هذه العبارة، انظر هوديغالا، **دراسات**، I، 312، 313، حيث تترجم إلى «جندي مشاة»: ومن منظور العبارة التالية حول صعوبة الحياة بين الجزر، أرجّح أن يكون السلطان قد قصد «أرضاً لا تناسب سوى المشاة» أي أن الخيالة الثقيلة لدى سلطنة دلهي لم تكن فعالة هنا.

(37) IV, IB، 210 (تر. حبيب وبكينغهام، 867).

(38) TFS، 82.

عز الدين طُغرُل طوغان خان. وقد أكسب الموقعُ الجغرافي للإقطاع، صاحبَه طوغان خان، قدراً كبيراً من الاستقلال، وما أن قضى إلتُتْمش نَحْبَه حتى بادر، دونما تردد على ما يبدو، إلى الاشتباك في حرب، ضد مُقْطَع لاخنور، (تلك المنطقة الواقعة على الضفة الغربية للغانج). فذبحه واستولى على جزء من ولايته. غير أن كلاً من رضيّة وبهرم شاه، ما لبثا أن أسبغا الصفة الشرعية على تحركات طوغان خان غير المنضبطة، عن طريق تزويده بتشاتر أحمر، وبعدد من البيارق. وبعد اعتلاء مسعود شاه للعرش، قام طوغان خان، بإلغاء جميع مظاهر الولاء لبلاط دلهي. ثمة كتابة منقوشة في بيهار، يعود تاريخها إلى 640 هـ / 1242م، تضفي عليه جملة متنوعة من الألقاب الطنّانة الفخمة، ولا تورد أية إشارة إلى السلطان. وفي هذه السنة بالذات، توغل في منطقة قارا ـ مانيكبور في محاولة فاشلة لاحتلال أوَذ[39].

ومع ذلك فإن طوغان خان، ما لبث أن التمس التعزيزات من السلطان، في أعقاب حملة كارثية، شنها ضد مملكة جاجْنَغَر (أوريسا) الهندوسية، أواخر 641 هـ / أوائل 1244 م. وعلى الأثر، لم يكتف مسعود شاه، بإرسال تشاتر وراية إلى لخناوتي، بل وبعث أيضاً بثوب شرف، وخيمة مزيَّنة. غير أن هذه المجاملات لم تكن ـ على ما يبدو ـ إلاّ لتبديد يقظة طوغان خان. فنحن نعلم من مكان آخر، أن تاج الدين سنجر كِرِتْ خان، مات نتيجة جرح سهم أصابه خارج مدينة بيهار، في صراع غامض بُعَيْد سنة 640 هـ / 1242 م[40]، بما يوحي ـ إلاّ إذا كان المكان خارج سيطرة المسلمين، وأن العدو كان ملكاً هندوسياً ـ بأن الحكومة ربما كانت دائبة منذ زمن، على السعي لاستعادة بيهار.

---

(39) كان انتظار الجوزجاني له قبل مرافقته في رحلة العودة إلى لخناوتي على حدود قارا: TN, I، 469 (تر. 662 ـ 1663). عن حياة طوغان خان العملية، انظر المصدر نفسه، II، 13 ـ 17 (تر. 736 ـ 742). بازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 16 ـ 17؛ RCEA, XI، 143 (رقم: 4215).

(40) TN, II، 27 ـ 28 (تر. 757).

واستجابة لطلب طوغان خان المساعدة، صدرت الأوامر إلى مُقطَع أوَذ، تيمور خان، وإلى قادة آخرين بالتوغل في البنغال. وما إن وصلت تلك القوة، التي يفترض أنها منقذة إلى لخناوتي، حتى بادرت إلى الاشتباك العدائي، لا مع الهندوس، الذين كانوا قد انسحبوا، بل مع طوغان خان، الذي اضطر إلى تسليم الإقليم لتيمور خان، والعودة بصحبة الأمراء الآخرين إلى دلهي. في هذا المنعطف، تورَّطت حكومة مسعود شاه في محاولة أخرى، لدفع كل من الخصمين ضد الآخر. إذ منحت طوغان خان عام 643 هـ / 1245م، إقطاع أوَذ العائد لتيمور خان. صحيح أن رد فعل الأخير، على احتلال أوَذ من قبل ضباطه لا يتم وصفه، إلاَّ أنه بقي مسيطراً على لخناوتي إلى أن قضى الرجلان، كلاهما، نحبهما في اليوم نفسه من شوال 644 هـ / آذار 1247م، خلال فترة حكم ناصر الدين محمود شاه.

يبقى تاريخ لخناوتي، على امتداد السنوات القليلة التالية غامضاً. ثمة كتابة منقوشة تعود إلى 647 هـ / 1249م، تذكِّر بجلال الدين مسعود (قيليج خان فيما بعد)، ابن علاء الدين جاني، مُقطَعا راهناً[41]. غير أن الجوزجاني الذي يسمي تالياً، اختيار الدين يوزبك طُغرُل خان، قائداً للمقاطعة، لا يأتي على ذكره. لعل حياة هذا المتمرِّد رغماً عنه، تلخِّص جملة المشكلات، التي شكَّلها رعايا متمتعون بنفوذ أكبر مما ينبغي، بالنسبة إلى الحكومة. كان يوزبك قد وُلِّي على تبرهند عند اعتلاء مسعود شاه للعرش. ثم ما لبث ـ لدى قيام العاهل بحملته الموجَّهة إلى أوتشش سنة 643 هـ / 1245 ـ 1246م، حسب أقوى الاحتمالات ـ أن نُقل إلى لاهور، حيث اشتبك للمرة الأولى في صراعٍ، مع ملك، لا يُذكر إلا بهذه المناسبة وما لبث أن تحدَّى سلطة السلطان. وكما سبق أن لاحظنا، فإن أُلُغ خان بلبان ضمن له عفواً، وإقطاعاً جديداً في قِنَّوج،

(41) بازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 19 ـ 22؛ RCEA, XI، 211 (رقم: 4320).

حيث أثبت عناده مرة أخرى، ربما تأييداً لبلبان. نجحت حملة بقيادة قطب الدين حسن بن علي في إلزامه بالطاعة، وإعادته إلى البلاط، الذي ولاَّه لاحقاً على أوَد. ومن المحتمل أن يكون قد أيَّد، عودة أُلُغ خان بلبان إلى السلطة عام 652 هـ / 1254 م. ومهما يكن فإن يوزبك طُغرُل خان، نجده قائداً في لخناوتي بعد هذا التاريخ. ثمة انتصار كبير، حققه هنا على راجا جاجنَغَر، الذي كان قد نجح في مقاومة عدوان، طوغان خان على امتداد ما يزيد عن عشر سنوات من قبل، شجَّعه على تأكيد استقلاله عن دلهي، معتمداً ثلاث تشاترات (مظلات ملكية)، وفارضاً إيراد اسمه، بوصفه السلطان مغيث الدين على القطع النقدية، وفي خطب صلاة الجمعة. وقضى نحبه بعد بضع سنوات، خلال غزوة كارثية على كامروب (أسام) المجاورة[42].

جاء موت يوزبك طُغرُل خان ـ على ما يبدو ـ قبل صَفَر 655 هـ / شباط ـ آذار 1257م، حيث كانت القطع النقدية قد عادت تُصَكّ في لخناوتي، باسم ناصر الدين محمود شاه[43]. وفي نهاية عام 656 هـ / 1258م، تمَّت إعادة منح لخناوتي، إلى قيلج خان جلال الدين مسعودي جاني، الذي اتُّهم مؤخراً بالعصيان، والتمرد جنباً إلى جنب مع آرسلان خان. غير أن أُلُغ خان بلبان ما لبث، في جمادى الثانية 657 هـ / حزيران 1259م، بعد بضعة أشهر فقط، أن أقنع السلطان بالاعتراف به مُقطَعاً، باسم عز الدين بلباني يوزبكي، ذلك الذي سبق لنا أن التقينا به، صهراً للمتمرِّد قُطْلُغ خان، والذي كان لتوِّه قد خطب ودّ القصر عن طريق، إرسال هدايا لافتة للنظر إلى دلهي[44]. غير أن بلباني يوزبكي ما لبث أن فقد المقاطعة، لا لصالح قيلج خان (الذي لم يعد يُسمع عنه) بل

(42) TN, II، 30 ـ 33 (تر. 762 ـ 766)، عن سيرة حياة طغرل خان. ثمة تلخيص واف لحياته العملية في حبيب الله، **أساس**، 129 ـ 130. عن قطعه نقدية، انظر روما نيوغي، «قطعة نقدية جديدة لمغيث الدين يوزبك البنغالي»، JNSI، 40 (1978 ـ 1979م)، 136 ـ 138.

(43) CMSD، 55 (رقم: 225 ج).

(44) TN, I، 495، وII، 35، 78 (تر. 712، 770، 848 ـ 849).

لصالح حليف هذا الأخير. أما آرسلان خان الذي تحرَّك دون مباركة دلهي، وراح يعلن حتى أمام أبنائه، وجنوده عن تورطه في حملة نهب، تصل إلى أعماق مالوا الكافرة، فغادر قارا، وتقدَّم بسرعة لاجتياح لخناوتي. تعرَّضت المدينة للاحتلال والاستباحة، كما جرى أسر بلباني يوزبكي ـ الذي عاد من عملياته في البنغال الشرقي (بانغ) للاشتباك مع الغزاة ـ وإعدامه. تلك كانت أحوال الأمور في الشرق، حين توقف الجوزجاني عن الكتابة عام 658 هـ / 1260 م[45]. ومن شأن شهادة برني أن توحي بأن آرسلان خان، بقي متحدياً في لخناوتي حتى موته، لأن إرسال الفيلة من البنغال إلى دلهي، بمناسبة اعتلاء بلبان للعرش، سنة 664 هـ / 1266م من قِبَل ابنه وخلفه، تتر خان محمود، اعتُبر أمراً بعيداً عن المألوف[46].

نرى أن الأحداث الجارية في هذه المناطق النائية، تسلِّط الأضواء على القيود، التي تحد من نفوذ السلطان. كان الأمراء يتمرَّدون بصورة متكرِّرة؛ وربما فعلوا ذلك دونما تردُّد، أو خوف على امتداد بضع سنوات في البنغال البعيد على الأقل. وفي أكثر من مناسبة، لجأت الحكومة إلى استخدام أساليب النفاق والازدواجية. ربما أقدم السلطان، على منح منطقة أحد المتمردين إلى منافس له، لا لشيء، إلاَّ لاستغلال الأمير المخلوع في محاربة القائد الذي سبق له أن احتلَّ مكانه، ولكنه بات الآن ذا نفوذ مفرط، كما تجلَّى، على ما يبدو، سنة 642 هـ / 1244م في نقل طوغان خان من لخناوتي أولاً، وإرساله إلى أوَد بعد ذلك. كان البلاط أحياناً، يخصص الإقطاع ذاته في الوقت نفسه تقريباً، لاثنين من الأمراء ويتركهما يتقاتلان،

(45) المصدر نفسه، II، 35 (تر. 769 ـ 772). لائق أحمد، «قارا، مدينة هندية قروسطية»، IC، 55 (1981م)، 85، يخلط أحداث هذا العام ويفترض أن استباحة آرسلان خان للخناوتي جاءت قبل التمرد الوارد ذكره من قبل.

(46) TFS، 53؛ انظر أيضاً 66، حيث يدعى محمد ويعتبر **ملك** [باديشاه] لخناوتي.

ليحصل المنتصر على الإقطاع في النهاية. لقد حصل ذلك سنة 653 هـ/ 1255م، حين جاء تخصيص بهراتش، لتاج الدين سنجر سيويستاني، بصورة تثير الشبهة، بُعَيد منحها إلى عماد الدين ريحان. وربما كانت تلك هي الخطة فيما يخص لخناوتي عام 656 هـ / 1258م، حيث نجد أفعال النظام المتناقضة، غير قابلة لأي تفسير. من المحتمل أن يكون البلاط لبعض الوقت، قد اعتبر إزاحة بلباني يوزبكي، بوصفه إحدى الصلات الباقية لقُطْلُغ خان. غير أن من الممكن بدرجة موازية، ألاَّ تكون المصالحة بين قيلج خان والنظام في دلهي، إلاَّ مصالحة سطحية ظاهرية، وأن تكون عملية منح لخناوتي، قد مثَّلت محاولة لإيقاعه في المصيدة.

في الجزء التالي من حكم محمود شاه، كانت امبراطورية دلهي قد تقلَّصت إلى درجة، باتت معها ذات مساحة تكاد لا تزيد عن نظيرتها، التي كانت محكومة لدى تنصيبه من قِبَل إلتُتْمش. وفي أثناء قيام الجوزجاني بالكتابة، ثمة احتمال قوي بأنها، كانت تبدو في حالة من التمزق والتفكك. أما السبب الذي منعها من التفكك، فقد لا نفهمه بصورة كاملة. ثمة تفسير جزئي توفره، بالتأكيد جملة الانقسامات الحاصلة في صفوف المغول، بالنسبة إلى الأقاليم الغربية. غير أن المعلومات التي نملكها، حول التاريخ الداخلي للسلطنة، لا تزوِّدنا بأي جواب. فيما بيَّن تاريخ إنجاز الجوزجاني **لطبقاته**، في 658 ـ / 1260م، من جهة، وتاريخ شروع برني بكتابة تاريخه، مع اعتلاء بلبان للعرش من جهة أخرى، ثمة فترة سُباتٍ امتدَّت ست سنوات، ربما كانت حاسمة جداً، بالنسبة إلى نجاة السلطنة وبقائها.

من شأن القول، بأن سلطة الحكومة على أقاليمها النائية، قد استعيدت خلال عهد بلبان، أن يشكِّل تبسطاً شديداً لمسألة كبيرة، لأنّ تناول الأحداث، من قِبَل كل من برني، وعصامي، وسر هندي أقل تفصيلاً بما لا

يقاس من معالجة الجوزجاني، للتقلبات التي شهدتها حقبة محمود شاه؛ ليس ثمة ما يكفي من التأكيد، على أننا نعرف عن بلبان كخان ونائب، أكثر مما نعرفه عنه كسلطان. ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك أي شك، في أن نوعاً من **إعادة التجميع وتوحيد الكلمة**، قد تمَّ في ظل بلبان بالنسبة إلى المناطق التي كانت، قد اعترفت بإلتُتْمش في يوم من الأيام. ومعروف أنه قاد جيشاً إلى لاهور، في غضون سنوات قليلة من توليه للسلطة، وأنه استعاد المدينة، وأعاد إسكانها[47]، مما أدَّى ثانية إلى توفير، إمكانية اعتبارها جزءاً من السلطنة؛ على الرغم من الأهمية المؤكدة، لعدم عثورنا على أية إشارة إلى أنها مُنحت، كإقطاع مرة أخرى، قبل القرن الرابع عشر. تمَّت استعادة إقليم السند هو الآخر. ففي إحدى المراحل المتأخرة من عهد محمود شاه، فَقَدَ كوشلو خان، سيطرته على الإقليم، في ظروف غامضة. وفي فقرة إشكالية، يقول عصامي، إن أُلُغ خان بلبان، استغل غياب كوشلو خان، لاحتلال مُلتان[48]. قد يكون اختفاؤه مرتبطاً، بتقدم المغول النغودريين، وهو ما سنعاينه لاحقاً. مهما يكن، كان بلبان قادراً على تنصيب ابنه البكر، محمد (خاني شهيد)[49]، الذي حكم إلى سقوطه المبكر في القتال، ضد المغول في الأيام الأخيرة من سنة 683 هـ / آذار/ مارس 1285م، نائباً للسلطان على إقليم السِّنْد.

يبدو أن استعادة لخناوتي تمَّت بسهولة نسبية، لأن تتار خان مات في، أو بُعَيد 665 هـ / 1267 م[50]، فأوفد بلبان ممثله الخاص إلى الإقليم. غير أن

---

(47) المصدر نفسه، TMS61 .، 40. قارن أيضاً FS، 164 (تر. 291).

(48) المصدر نفسه، 154 ـ 155، تر. 278 ـ 280).

(49) TFS، 66، واضعاً هذا بعد موت شيرخان الذي يقال في 64 ـ 65 إنه حصل بعد بداية العهد بـ «أربع إلى خمس سنوات».

(50) عن منقوش حول تتار خان يعود إلى 665 هـ / 1266 ـ 1267م، انظر يازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 23 ـ 25؛ XII, RCEA، 121 ـ 122 (رقم: 4854).

المصادر تتباين، إذ يزعم برني، وعصامي أن غلام السلطان طُغرُل، تم إرساله حاكماً (والياً) إلى لخناوتي، في حين يقوم سر هندي، بجعل بلبان يعين أمين خان (أي آيتكين مؤوي دراز) في المنصب، مع تعيين طُغرُل نائباً له[51]. لم يكن الإقليم، على أية حال، أقل اضطراباً بالنسبة إلى بلبان، منه بالنسبة إلى أسلافه الشمسيين. ففي حوالي 678 هـ / 1279 ـ 1280م، تمرَّد طُغرُل وبادر ـ في نأمة تشكِّل تذكيراً مدهشاً، بيوزبك قبل جيل واحد ـ إلى اعتماد لَقَب السلطان مغيث الدين. وقد تحدَّى حملتين متعاقبتين شنَّهما، قادةُ السلطان قبل تعرّضه للهزيمة على يد جيش، كان بقيادة بلبان شخصياً، ربما في 680 هـ / 1281 ـ 1282 م[52].

وبعد ذلك أوْكَلَ بلبانُ، أمر لخناوتي إلى ابنه الأصغر، بغراخان محمود، الذي ما لبث أن أعلن سيادته، بعد موت السلطان العجوز في 685 هـ / 1287م، حين وجد ابنه كيقباد قد احتال عليه، وأحبط تطلعاته المتعلقة بالعرش، ونجح في احتلال أوَد لفترة قصيرة من الزمن[53]. وبالتالي فإن حال لخناوتي، بعد تصالح الأب والابن في 686 هـ / 1287م، تبقى مبهمة؛ أما بعد انتقال السلطة في دلهي إلى جلال الدين خَلْجي سنة 689 هـ / 1290م، فقد بات بغرا خان وخلفاؤه، يتصرَّفون كملوك مستقلين. ثمة كتابات منقوشة، تبيِّن أن سلطتهم امتدَّت أيضاً، لتشمل المناطق الإسلامية

---

(51) TFS، FS81 .، 165 (تر. 292). TMS، 40.

(52) TFS، 81، 83 ـ 92؛ في 81 يقوم برني بوضع عصيان طغرل بعد اعتلاء بلبان للعرش بـ «خمس أو ست عشرة سنة»، أي في 677 ـ 678 ـ / 1278 ـ 1280م، إذا انطلقنا من عامه الخطأ 662 هـ لتنصيب السلطان. يمكن التوفيق بين هذا وتقرير حملة بلبان على جاجناغار (أوريسا) الذي وُجد في V, RI، 5 ـ 13، ومؤرخ في الخامس من شوال 680 هـ / السابع عشر من كانون ثاني 1282م (المصدر نفسه، 13). فيريشتا، ا، 138، يضع تاريخ العصيان تحديداً في 678 هـ، رغم عدم وضوح المرجع الذي يستند إليه. FS، 164 (تر. 291) ويضع الانتفاضة في موعد يأتي بعد صعود بلبان بثمانية أعوام فقط، وبعد ذلك، 168 (تر. 296)، يقدم عام 670 هـ المستحيل.

(53) QS، 36، 44 ـ 46.

(54) آ. آ. قادري، «منقوشات سلاطين البنغال من بيهار» EIAPS، (1961م)، 35 ـ 36؛ ق. أحمد، =

في بيهار الجنوبية[54]. لم يعش هذا الفرع من الأسرة الحاكمة الغياثية طويلاً. فابن بغرا خان صغير السن وخليفته: ركن الدين كيكاوس، الذي مات أواخر القرن، خلفه حاكم غير معروف، يدعى شمس الدين دولت شاه أولاً، وشمس الدين فيروز شاه، الذي قد يكون هو نفسه أمير كيكاوس، المعروف باسم فيروزي آيتكين، والذي أسَّس بعد ذلك لأسرة حاكمة جديدة[55]. صحيح أن علاء الدين خَلْجي، ربما هاجم البنغال في إحدى المراحل[56]؛ غير أن الإقليم، لم يعد ثانية ولاية تابعة لسلطنة دلهي، إلاَّ مع نشوب صراع بين أبناء فيروز شاه، أفضى إلى تدخل غياث الدين تُغْلُق شاه في 724 هـ / 1324 م.

الإقطاع والحكم المحلي

كانت **الخالصة** أو الأرض «المحجوزة» ـ ما يمكن أن نطلق عليه اسم «الدنيا الملكية» ـ التي درج موظفو السلطان، على جمع الخراج منها بصورة مباشرة والتي وفَّرت موارده الأكثر، مباشرة ـ تشكِّل العمود الفقري، لسلطنة القرن الثاني عشر. ليست لدينا أية معلومات عن المدى الكامل، لاتساع الخالصة، وإن درجت العادة على اعتبارها، شاملة لأطراف **(حوالي)** دلهي[57]. أما المناطق الأخرى، فكانت تُمنح كإقطاعات. وحسب كلام برني، الذي

= **مجموعة منقوشات بيهار العربية والفارسية** (بين عامي 64 و1200 هـ) باتنه، (1973م)، 9 ـ 10 (رقم: 3).

(55) عن دولت شاه، انظر جون س. ديل، «إعادة تقييم للقطعة النقدية الجديدة لدولت شاه البنغالي»، JNSI 41 (1979م)، 82 ـ 90. عن خط فيروز شاه، انظر عبد المجيد خان، «تاريخية ابن بطوطة فيما يخص شمس الدين فيروز شاه، ذلك الملك البلباني المزعوم للبنغال»، IHQ، 18 (1942م)، 65 ـ 70؛ ر. سي. ماجُمْدار، **تاريخ البنغال الوسيط** (كالكوتا، 1973م)، 18.

(56) وفقاً للمترجم المفضل لـ **بحر الحياة**، مخطوطة IOL الفارسية 432 (إثه، رقم 2002). TFS، 227 ـ 229، 254، لا يتحدث إلاَّ عن مخططاته بشأن البنغال. ثمة قصيدة غنائية في GK (تر. في III, ED، 543) تشير إلى حملة في بيهار ووضع اليد على فيلة بنغالية من لخناوتي.

(57) عن **الخالصة**، انظر و. هـ. مورلاند، **النظام الزراعي في الهند الإسلامية** (كامبردج، 1929م)، 29 وهـ. 1؛ بصورة أعم، آ. ك. س. لامبتون، «خالصة» .Enc Isl.

يحدِّثنا عن أن كل مستفيد (**إقطاع دار**)، كان منتظراً منه أن يجنِّد فارساً إلى ثلاثة فرسان، فإن عبارة «إقطاع»، كانت تنطبق ليس فقط على المساحات الكبرى، الممنوحة لكبار الأمراء، بل وعلى مساحات أو إقطاعات أصغر، أوجدها إلتُتْمش في دوآب[58]. ربما كان والد أمير خسرو، سيفي شمسي (متوفى حوالي 659 هـ / 1261م)، متمتعاً بإقطاع من هذا النوع[59]. في المراحل الأولى من عهده، سعى السلطان بلبان إلى استرداد الكثير من هذه الإقطاعات وإلحاقها بالخالصة، بحجة أن المستفيدين قد باتوا أكبر سناً، من أن يكونوا قادرين على الخدمة، أو ماتوا بعد أن نقلوا حيازاتهم إلى ورثة، لا يؤدون أية خدمة؛ غير أن الكوتوال فخر الدين، ما لبث أن أقنعه ـ كما يقول برني ـ بالإقلاع عن الفكرة[60]. وعلى الرغم من أن المؤرخ لا يعترف بالحقيقة، فإن الحدث كان دون شك معياراً، لمدى حاجة بلبان إلى موارد جديدة، يستخدمها لمكافأة بطانته الخاصة، التي دعمت عملية اعتلائه العرش.

تبقى معلوماتنا عن عمليات الإنعام بالإقطاعات، أكثر غزارة، بالنسبة إلى المساحات الأكبر؛ وهي أوفر بكثير حين يكون الأمر متعلقاً بالغلمان الشمسيين، بالمقارنة مع نبلاء أحرار، لا نعرف عنهم إلاَّ الشيء القليل. بعض المناطق تظهر بصورة منتظمة، على أنها إقطاعات في **طبقات** الجوزجاني. فإلتُتْمش كان ذات يوم، متمتعاً بـ «إقطاع» مدينة (**قصبة**) برن مع ملحقاتها (مضافات)، وبرن هذه تَكَرَّر منحها كإقطاع خلال عهده، وعهود خلفائه الشمسيين[61]. ليس واضحاً ما إذا كانت مناصب رئيسية معيَّنة، ترافقت آلياً بمنح مناطق محدَّدة. من الممكن بصورة مؤكَّدة، أن نجد علاقة وثيقة بين

---

(58) TFS، 62.

(59) عنه، انظر DGK، 66 ـ 67: توفي حين كان خسرو في السابعة من العمر.

(60) TFS، 60، 61 ـ 64.

(61) TN ،I، 443، وII، 8، 21، 25، 27، 29 (تر. 604، 730، 754، 757، 759).

منصب الوزير وبلدة **كول**؛ مع أن ذلك ما لبث أن توقف مع الإطاحة، بمهذَّب الدين سنة 640 هـ / 1242م[62]. ففي سيرة حياة آيبكي شمسي عجمي، ترد عبارة «إقطاعات **الأمير ـ داد**»، وأسلوب الجوزجاني يدل، بأن ذلك الأمير بوصفه **دادبك** الامبراطورية كان حاصلاً، في الحد الأدنى، على إقطاع بالوال وكاما[63]. ومع الوصول إلى عهد كيقباد ثمة، على ما يبدو، ارتباط واضح بين منصب **العارض** (الحاجب) وإقطاع بَرَن[64].

هناك ما يشير إلى أن عدداً من المواقع الحصينة، اعتُبرت «محجوزة» (محروسة) بوصفها جزءاً من خالصةِ السلطان، ولم يتم منحها بالتالي كإقطاعات. لعل المكان الذي يتردَّد ذكره باطراد، بوصفه محجوزاً **(محروساً)**، هو موقع غواليور، بعد إعادة احتلاله سنة 630 هـ / 1232 ـ 1233م[65]. وفي تلك المناسبة، قام إلتُتْمش بتعيين **أمير داد** من جهة، ومسؤول قلعة (كوتوال)[66] من جهة ثانية. ولدى وضع قوات الموقع، فيما بعد، تحت إمرة مُقطَع بهايانا وسلطانكوت، تم توجيه هذا الأخير، إلى اتخاذ غواليور مقرَّ قيادةٍ له، ويقال إنه كان حاملاً لـ **(شحنة)** تلك المنطقة (الولاية)[67]. يشار إلى بلدات مهمة أخرى معينة، على أنها **محروسة** (محجوزة) غير أن أوضاعها كانت، على ما يبدو، متباينة. فمدينة بيهار، مثلاً، تُعْتَبر **محروسة** في إحدى المرَّات، غير أنها ترد أيضاً على أنها إقطاع[68]. كثيراً ما يجري وصف

---

(62) ز. آ. ديساي، «منقوشات عن سلاطين دلهي المماليك»، EIAPS (1966م) 8 ـ 11؛ I, TN، 456، 469 (تر. 634، 662). عن الأمراء بين الأرستقراطية العسكرية فيما بعد في القرن الثالث عشر، انظر المصدر نفسه، II، 42 (تر. 787): TFS، 66، 88، 113.

(63) II, TN، 41 (تر. 790 ـ 791).

(64) TFS، 170.

(65) I, TN، 460، وII، 19، 24، 25، 78، 214.

(66) المصدر نفسه، I، 448 (تر. 620).

(67) المصدر نفسه، II، 10 ـ 11 (تر. 732).

(68) المصدر نفسه، II، 9، 28 (تر. 731، وقارن أيضاً 757).

تبرهند **بالمحروسة**[69]، وبالتالي فإننا نجد قراقوش، معيناً «مسؤولاً (شحنة)، لدائرة تبرهند الخاصة **(خالصات)**»[70]. مرة أو اثنتين لا تكون العلاقة بين المدينة، وقائدها واضحة: فكزليك خان، يوصف بأنه «مالك» تبرهند، وآرسلان خان، يقال عنه إنه مكلّف برعاية شؤون **محروسة** تبرهند[71]. وبالمثل فإننا نقرأ عن منح «مدينة أوتشش وإقطاعها» إلى سيف الدين آيبك، سنة 629 هـ / 1231 ـ 1232م، على الرغم من أن الجوزجاني يلصق صفة **المحروسة** بأوتشش، لدى وصفه لاجتياحها من قبل إلتُتْمش سنة 625 هـ / 1228م، وتقديمها هدية إلى كزليك خان[72]. تنطوي الصياغة على ما يغري المرء، باستنتاج أن المدينة المحصنة، لم تكن لتشكّل جزءاً من المنحة الإقطاعية، وأن مستوى النفوذ الذي كان المقطع يتمتع به، كان مستنداً إلى أساس مختلف. ومن الواضح أن هذا لم يكن هو الوضع، بالنسبة إلى تبرهند في تلك الأزمان، التي تبرز فيها على أنها إقطاع دون لبس. فاختيار الدين آلتونابا، يعتبر مقطعها في عهد رضيّة، (في فترة تكون فيها، مع ذلك، موصوفة بأنها **(محروسة)**[73]؛ وقد قام علاء الدين مسعود شاه، بمنح المدينة إقطاعاً، إلى اختيار الدين يوزبك (طُغرُل خان)[74]؛ وفيما بعد، في عهد السلطان نفسه، نقرأ أن «قلعة تبرهند، خُصِّصت لشيرخان كإقطاع، كما مُنح جميع ملحقات (مضافات) **محروسة** تبرهند»[75]. ومثل هذا التعبير، يلغي أية إمكانية، لأن تكون منحة الإقطاع محصورة بالأطراف، دون أن تشمل الموقع الحصين نفسه.

---

(69) المصدر نفسه، II، 4، 34، 43، 44 (تر. 723، 767، 784، 792).

(70) المصدر نفسه، II، 20، (تر. 746).

(71) المصدر نفسه، I، 446 (تر. 613، عن كزلك خان؛ II، 34 (تر. 767)، عن آرسلان خان.

(72) المصدر نفسه، II، 3، 8 (قارن تر. رافيرتي، 724، 730).

(73) المصدر نفسه، I، 460؛ قارن I، 462 (مرتان).

(74) المصدر نفسه، II، 30.

(75) المصدر نفسه، II، 43.

في بعض الحالات، تكون الشروط المحيطة بالمنحة متباينة، بين مستفيد وآخر، بل ونجد المنحة ذاتها، موصوفة بلغة مختلفة، في موقعين مختلفين، من مواقع كتاب **الطبقات**. يقال إن كبير خان، مُنح «مدينة مُلْتان وقلعتها، بلداتها (قصباتها)، ونواحيها القريبة منها، والبعيدة (**أطرافو حوالي**)، وعُيِّن حاكماً للولاية (أيالة)؛ وفي مكان آخر يوصف بأنه **والي** مُلتان بجدارة[76]. أما فيما بعد، حين كانت خاضعة لقراقوش خان، ولكبير خان نفسه للمرة الثانية، فيتم اعتبار مُلتان إقطاعاً[77]. صحيح أن «منطقة (**ولاية**) أوَذ وتوابعها (مُضافاتها)»، كانت قد خُصِّصت لتيمور خان من قبل رضيّة، وأن قُطْلُغ خان، حصل على «ولاية» (أيالة) أوَذ في 653 هـ / 1255م[78]؛ غير أن هذين الضابطين، يشار إليهما في مكان آخر، بوصفهما مُقطَعي أوَذ، التي يقال عنها في مناسبات أخرى، صراحة، إنها كانت إقطاعاً[79]. في حالات نادرة، يحصل لدينا انطباع يقول إن المُقطع كان يحتل مرتبة **أمير داد**، المحدَّدة في المدينة المعهودة إليه، كما فعل آيبكي شمسي عجمي في كاسراك وبرن لاحقاً[80]. حتى في حال تلك الأقاليم، المنطوية على معانٍ أكثر رفعةً مثل لاهور، ربما جاءت وضعية المنحة مختلفة، وفقاً لمرتبة المستفيد الممنوح. ففي غضون عدد قليل من السنين، باتت لاهور تعتبر إقطاعاً، رغم استمرار تسميتها في أحد المواقع بـ «**المملكة**»، بعد أن ظلَّت سنوات بأيدي الأعيان، بدلاً من إبقائها بين يدي أحد أفراد الأسرة الحاكمة[81].

تمنعنا المصطلحات الغامضة والمتناقضة، من فرض تصنيفات دقيقة، على

(76) المصدر نفسه، ا، 455 ـ 456، وا، 5.

(77) المصدر نفسه، ا، 20، 163.

(78) المصدر نفسه، ا، 17، 69.

(79) المصدر نفسه، ا، 458، 489، وا، 16، 17، 27.

(80) المصدر نفسه، ا، 42 (تر. 791).

(81) المصدر نفسه، ا، 455، 459، 460، 465، وا، 7، 30، 163؛ وأيضاً ا، 6، عن **مملكة** لاهور.

ترتيبات القرن الثالث عشر. من الواضح أننا لا نستطيع توقع الاطراد والاتساق من مصادرنا، وقد لا يكون التمييز بين حالة المحافظة (**الأيالة**)، وحالة الإقطاع ذا معنى، على أية حال. فعلى الرغم من أن الإقطاع، كان وظيفة خراجية في الأصل، نرى أن المقطَع ليس شخصاً متقاعداً بعيداً، أو ياوراً عسكرياً في البلاط، دون أي ارتباط بالمنطقة الممنوحة له، بل هو ضابط، اضطلع بجملة من المسؤوليات الإدارية الخطيرة. وفي وقت سابق من القرن، كان حسن نظامي قد أدخل في كتابه **تاج المآثر**، جملة التوجيهات، التي قيل إنها أُعطيت للأمير غير المسمَّى، الذي حصل على **أيالة** قلعة بَنَارِس المفتوحة حديثاً. طُلب منه أن يرعى مصالح فئتي رجال السيف، ورجال القلم كلتيهما، أن يحمي هؤلاء من الكفار، أن يشرف على أعمال الفلاحين (**الرعية**)، أن يضمن أمْنَ الحصون والقلاع، وأن يلبِّي متطلَّبات الإحسان وأعمال الخير. أما النصائح التي قيل إنها وُجهت إلى حسام أوغول بك في كول بعد عام، أو حوله فليست مختلفة. فواجباته لا تقتصر على القيام بالجهاد، حراسة الطرق، وتشجيع التجارة فقط، بل وتشمل تكريم أعضاء «طبقة رجال الدين»، وتفضيلهم وتحقيق العدل، دونما تمييز بين ذوي الأصول النبيلة، وعامة الناس[82].

إذا كانت مصادرنا جديرة بالثقة، فإن بعض المُقطَعين، تمكَّنوا من الارتقاء، إلى تلك المستويات الرفيعة. فمنطقة بهايانا، كانت مدينة بوضْعها المزدهر، لجهود بهاء الدين طُغرُل، قائد معز الدين المملوكي، الذي كان قد أصبح مُقْطَعها الأول، في 592 هـ / 1196م[83]. يقول الجوزجاني، «ما من منطقة (**ناحيت**) أو إقطاع أو ولاية (**ولايت**)، وُضعت تحت سيطرة آيبكي شمسي عجمي، إلاَّ ازدهرت، وكانت عامة الرعية («**عاميي رعيت**») راضية[84].

---

(82) Tāj، ملف 135 ب ـ 136 أ، عن بنارس؛ ملف 138 أ ـ 141 أ عن كول.

(83) TN ،I، 421، (تر. 545، 547).

(84) المصدر نفسه، II، 41، (تر. 789 ـ 790 معدل).

والمؤلف نفسه يؤكّد لنا أن عَمَّيْ علاء الدين مسعود شاه، (أحدهما هو السلطان محمود شاه فيما بعد) كانا، لدى ذهابهما إلى المناطق الممنوحة لهما حديثاً، ينشغلان ليس فقط بالحرب المقدَّسة (الجهاد)، بل وبتحسين أحوال الفلاحين[85]. وعن كزليك خان (المتوفى في 629 هـ / 1231 ـ 1232م)، في أوتشش يقال، إنه دأب على ضمان أمن الفلاحين وراحتهم، وحرص على أداء أعمال الإحسان والخير[86]. أما بلبان، فيمتدحه برني على جلبه الازدهار إلى كل مقاطعة، منحت له كمالك أو كخان؛ ويقول الجوزجاني إنه، لدى وصوله للمرة الأولى إلى هانسي، «سارع للاهتمام بالعمران (**عمارات**)، وأحس الناس بالرضا من صروح عَدْله، وأشعَّة كرمه وسخائه»[87]. وثمة سلطان مستقبلي آخر هو جلال الدين خَلْجي، يُزعم أن تخصيصه بيايال، تمخض عن الازدهار[88]. لا شيء من هذا كله يشهد، على تحلي المُقْطَع بنظرة متنورة. كانت للمقطع هذا، مصلحة ثابتة في الوضع المادي للمساحة، التي كان يحصل فيها على الموارد والخراج؛ غير أن من شأن هذه المدائح، أن تنبئنا، مثل التوجيهات والنصائح، التي أوردها حسن نظامي، أو المواعظ التي تعزى إلى غياث الدين تُغْلُق[89]، عما كان متوقعاً من المقطع بمقدار ما تحدثنا، عما كان متحققاً على أرض الواقع على الأقل. من المؤكد أن رسالة هاردي التذكيرية المنبهة، التي تقول إن مقطَع القرن الثالث عشر، كان شخصاً «كلَّفه السلطان بتولّي إدارة، لا وحدة إقليمية محلية، بل حالة محلية»[90]، جديرة بالترحيب. فمهمة المستفيد، ربما قامت بالدرجة الأولى، على تلقي الخراج من الزعماء الهندوس، الأكثر إذعاناً في المواقع القوية، واستخدام هذه المواقع، قاعدة لإطلاق عمليات

(85) المصدر نفسه، I، 470 (تر. 665).

(86) المصدر نفسه، II، 724.

(87) TFS، II, TNI45 .، 52 (تر. 807 معدل).

(88) FS، 201 (تر. 364).

(89) TFS، 430.

(90) هاردي، «نمو السلطة»، 203.

عسكرية، لانتزاع المزيد من الخراج والأتاوات، والغنائم من نظرائهم (الزعماء الهندوس)، الأقل طواعية وامتثالاً[91]. وفي عدد كبير من الحالات، لا يجد الجوزجاني ما يقوله، عن نشاطات أمير معيَّن في إقطاع محدَّد، عدا عن أنه أجهز على «المتمردين» (متمردان)، و«المفسدين» (مفسدان) الهندوس، ودمَّر جحورهم (ماواسات)[92]. وقليلون، هم الذين يُذكر لهم فضل بناء المساجد، وإقامة المؤسسات الإسلامية[93].

ربما كان يجري التعبير عن الثروة، والأهمية النسبيتين لأي إقطاع، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بعدد الفرسان لدى المستفيد. فبرني يقول لنا، إن عبد بلبان المملوك بُقْبُق، مقطَع بداؤون، كان لديه أربعة آلاف فارس في خدمته (شاكر)، وأن ملك نصرتي صباح، مقطَع غانوري وتشاوبالا (مراد آباد الحالية) في عهد جلال الدين خَلْجي، كان لديه سبعمئة فارس[94]. تبدو هذه الأرقام متواضعة، بالمقارنة مع إمكانيات شير خان، الذي كان قبل جيل، مالكاً لسُنَّام ولاهور وديوبالور، مع «الاقطاعات الواقعة على طريق التقدم المغولي»، لتجنيد «بضعة آلاف»[95]، أو الجيش، الذي حشده تاج الدين سنجري قبقولاق في بداؤون سنة 630 هـ / 1242م، ذلك الجيش، الذي بلغ تعداده «ثمانية آلاف من الخيالة، والكثير من المشاة والبايك» مثيراً حسد منافسين مجهولين[96].

رغم شحّ المعلومات، المتوفرة لدينا عن الجوانب المالية للإقطاع،

---

(91) إ. حبيب، «تاريخ سلطنة دلهي الاقتصادي»، 295.

(92) II, TN، 7 ـ 8، 17، 27، 42، 47، 52 (تر. 728، 743، 757، 787، 799، 809). عن **مواس**، انظر ص: 125 من هذا الكتاب.

(93) II, Tn، 26 (تر. 755).

(94) TFS، 40، عن بقبق، و204 (مصححاً عن مخطوطة BL، ملف 110 ب، عن نصرتي صباح.

(95) المصدر نفسه، 65.

(96) II, TN، 26 (تر. 755).

يفترض أن الخراج المحلي، باستثناء واردات الخالصة، كان في هذه الفترة، يسلَّم إلى الموظفين، لا إلى الحكومة المركزية في دلهي. فالمقطَع كان بدوره، يقوم داخل منطقته، بتوزيع منح إقطاعية، ليس فقط بهدف تجنيد المقاتلين، بل وفي سبيل اجتذاب المؤهلات الإدارية للمتعلمين. فمن أشكال السخاء، التي حصل عليها الجوزجاني، من بين يدي تاج الدين سنجري قبقولاق، حين زار بداؤون سنة 640 هـ / 1242م، كانت هدية إقطاعية؛ وإن «شاءت الأقدار والحظوظ»، أن يتابع المؤرِّخ طريقه باتجاه لخناوتي[97]. ليس ثمة ما يدعو إلى الشك، في أن يكون النظام، قد عمل خلال الحقبة الشمسية، كما فعل في أوقات لاحقة من القرن، في ظل بلبان وجلال الدين خَلْجي، تماماً. كان المقطَع يُبْقي من الخراج، الآتي من منحته، ما يكفي لتسديد رواتب وحداته العسكرية، وتغطية نفقات تجهيزها، أو للأغراض الإدارية الأخرى، ويرسل الفائض **(الفضائل)** إلى العاصمة[98]. يلمح برني إلى أن السلطان، بات مع حلول حقبة بلبان، يعين محاسباً (خواجا)، ليمارس مهمته داخل الإقليم، جنباً إلى جنب مع المقطَع، مما يعكس حرص الحكومة، على التأكد من المستوى المتوافر من الخراج[99]. كذلك قام بلبان بزرع الوشاة، أو المخبرين **(بريدان)** في الإقطاعات، ليقدموا تقاريرهم عن نشاطات أمرائه وأفراد أسرهم[100]. يحدثنا برني عن أن محمداً بن بلبان شخصياً، كان يرسل الخراج الفائض من السند إلى بلاد أبيه كل سنة، وعن أنه جلب خراج ثلاث سنوات، عقب عودة السلطان من البنغال[101]. لا

---

(97) المصدر نفسه (تر. 756).

(98) TFS، 164، 220 ـ 221. ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، في ريتشارد دهوري وحبيب، 69، يقال بقدر أكبر من الحذر إن إرسال الفائض من الإقطاعات كان مطلوباً «قبل سقوط عائلة بلبان الحاكمة بزمن طويل».

(99) TFS، 36 ـ 37 (في إقطاع آمروها)؛ وانظر ع. حبيب «الاقتصاد الزراعي»، 69 ـ 70.

(100) TFS، 40، 44 ـ 45.

(101) المصدر نفسه، 69، 108 ـ 109.

نملك أية معلومات عن نسبة الفائض. في الظروف الاستثنائية، كما في حال الاضطرار إلى القيام بعمليات عسكرية مُكْلِفة بشكل خاص، كان يسمح للمقطَع بأن يستبقي الفائض أيضاً. ذلك هو ما حصل حوالي عام 684 هـ / 1295م، حين سُمِح لسلطان المستقبل علاء الدين، أن يحتفظ بالخراج الفائض المحصَّل من إقطاعه المتمثل بكل من قارا وأوَذ، بذريعة توجيه حملة إلى تشاندري[102]؛ على الرغم من أنه زحف، بدلاً من ذلك، على ديوغير، وفاز بالغنائم التي مكَّنته من الإطاحة بعمِّه السلطان.

لم يكن الوقت الذي كان المقطَع، يستطيع أن يُتَوقَّع منه أن يمضيه في منطقته، محدَّداً بوضوح. فمع حلول تسعينيات القرن الثالث عشر، نبدأ بأن نسمع عن وجود، وكيل **(نائب)** في بعض الإقطاعات. وما لبث والد برني أن أصبح نائباً، ومحاسباً (خواجا) في برن، لدى اعتلاء علاء الدين للعرش[103]. أما مسؤولياته فكانت تشتمل، فيما يبدو، على مراقبة عملية جمع الخراج، وتجهيز الجيوش. ومن الواضح أن أي مقطَع، مضطلع بمسؤوليات إدارية رئيسية في دلهي، لم يكن ينتظر منه، أن يشرف شخصياً على هذه الأمور. وفي وصفه لكيفية اضطرار أُلُغ خان بلبان سنة 653 هـ / 1255م، للذهاب إلى هانسي، للإشراف على تجنيد الفصائل من إقليم سيواليك (هانسي، سارساتي، جند، وباروالا)، الذي كان عرضة للتأخير، يبدو الجوزجاني ميالاً إلى اعتبار الأمر غير مألوف[104].

كان من شأن أولئك الذين تسوء علاقتهم بالحكومة، أن يتعرَّضوا لعقوبة الإبعاد، أو النفي إلى إقطاعاتهم، وهو مصير يكثر تكراره نسبياً على صفحات كتاب **طبقات ناصري**. فمن أمثلة الصراع على السلطة في خمسينات القرن

---

(102) المصدر نفسه، 220 ـ 221.

(103) المصدر نفسه، 248.

(104) TN ,II، 70 ـ 71 (تر. 837)، انظر أيضاً ا، 490 (تر. 703).

الثالث عشر، أن أُلُغ خان بلبان، حين فقد منصب النائب، في 651 هـ / 1253م، كان قد أُمر بالانسحاب إلى هانسي؛ وفي عام 653 هـ / 1255م، تعرَّض خصماه ريحان وقُطْلُغ خان، لعقوبة الطرد إلى بداؤون وأوَذ على التوالي؛ أما في سنة 655 هـ / 1257م، فإن جميع حلفائهما من أرستقراطية دلهي الدينية، الذين كانوا يتمتعون بإقطاعات في الجوار (حوالي) القريب من العاصمة، أُمروا بالإقامة في إقطاعاتهم[105]. وبعد حوالي أربعة عقود، ثمة عدد من الأمراء المهتمين، بالتآمر ضد السلطان جلال الدين خَلْجي، عوقبوا بنفيهم إلى إقطاعاتهم لمدة عام واحد، وهي عقوبة من الواضح، أن برني تعمَّد ذكرها ليراها قرَّاؤه بالغة الرفق واللين[106]. غالباً ما تبرز بداؤون بوصفها مآل، أولئك الذين باتوا محرومين من رعاية القصر، كما كانت حال بدر الدين سنقر، سنة 638 هـ / 1241م، وحال كوشلو خان سنة 649 هـ / 1251م، وحال ريحان بعد ثلاث سنوات، (كمقطَع معيَّن حديثاً في كل من الحالات)، كما بالنسبة إلى القاضي المخلوع، عماد الدين شافورقاني في 646 هـ / 1248م[107]. لقد كان قَدَرُ القاضي جلال الدين، الذي تورَّط في قضية سيدي مولّه، متمثلاً بإبعاده قاضياً إلى بداؤون[108]. أما في ظل حكم بلبان، فإن العقوبات كانت أقسى. فغلامه الملك بُقْبُق، **سري جاندار** ومقطَع بداؤون، حُكم بالإعدام، جراء قيامه بذبح أحد **(الفراشين)**، ولم ينج **قُرابك** هيبت خان، الذي كان يتمتع بإقطاع أوَذ من المصير نفسه، بسبب إقدامه على قتل أحدهم، إلاَّ بكثير من الصعوبة[109]. غير أن هاتين الحالتين ربما كانتا الاستثناءين.

---

(105) المصدر نفسه، ا، 486، 489، 492 (تر. 693، 700، 701، 708)؛ أيضاً اا، 64، 69 (تر. 826، 834).

(106) TFS، 192.

(107) سُنْقُر: TN ,ا، 465، واا، 25 (تر. 654، 753). آخرون: المصدر نفسه، ا، 482، 485، 489، واا، 68 (تر. 685، 690، 700، 833).

(108) TFS، 211.

(109) المصدر نفسه، 40 ـ 41، 84.

ثمة مؤشرات، مأخوذة من فترة صعود أُلُغ خان كنائب، من عام 653 هـ / 1255م وصاعداً تدل على أن منَحاً ومناصب معينة، كانت قد بدأت تصبح وراثية، خصوصاً تلك التي كانت، مشغولة من قبل أفراد الأرستقراطية الدينية، ممن تمتعوا في الغالب، بمداخيل معفاة من أي نوع من الخدمة، ومعروفة باسم **إنعامات**. كان الجوزجاني يحصل على أُعطياتٍ من هذا الباب، من أُلُغ خان بلبان، كان حاصلاً بالتحديد، على قرية في منطقة هانسي، صارت بحوزته سنة 647 هـ / 1249 ـ 1250م، مع قرية أخرى (في موقع غير محدَّد)، جنباً إلى جنب مع معاش نقدي، لدى إنجاز كتابه **طبقات**[110]. وبعد موت كل من **شيخ الإسلام** جمال الدين بسطامي، والقاضي كبير الدين في 657 هـ / 1259م، فإن منصبيهما **(مناصب)** مُنحا لولديهما؛ وبالمثل فإن **إنعامات** الإمام حميد الدين الماريغَلَوي، الذي توفي بعد بضعة أشهر، ما لبثت أن انتقلت إلى أولاده. أما ما يفاجئ أكثر، فهو أن تسري هذه النزعة، في المناصب العسكرية والإدارية. ففي العام نفسه كان علاء الدين محمد، قد خلف أباه كشلي خان **أمير ـ حاجب**، كما أن الابن، ما لبث أن خلف أباه **العارض في عهد** بلبان[111]. وفي الحقبة الخَلْجية المبكرة، أقدم تاج الدين عراقي على نقل منصبه، المسمى **أمير داد لشگر**، إلى ابنه كبير الدين[112]. غير أن مبدأ الوراثة، ظلَّ أقل أهمية من الإقطاعات. فنحن لا نعرف مقطَعاً واحداً، انتقلت منحته بعد موته إلى أحد أقربائه؛ مع أن الجوزجاني يكشف النقاب عن حقيقة، أن أرسلان خان اعتُبر صاحب حق في إقطاع بهايانا، بحجة أنه كان قد تزوَّج ابنة مقطَعها السابق، بهاء

---

(110) TN ,I، 481، 484، وII، 61، 220 (تر. 681، 687، 821، 822، 1294، 1295).

(111) المصدر نفسه، I، 495، (تر. 713)؛ عن علاء الدين **أمير حاجب** عند بلبان، انظر أيضاً TFS، 24، 35، 36، 113، TS، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 36 ب.

(112) TFS، 361.

الدين طُغرُل[113]. وفي عهد حكم ناصر الدين محمود شاه، تم منح قيلج خان جلال الدين مسعود، ابن علاء الدين جاني (انظر الملحق رقم: 2)، إقطاع لخناوتي الذي تمتع به أبوه، لفترة قصيرة في عهد إلتُتْمش[114]، مرتين. قد لا يكون ثمة إلاّ القليل من الدلائل، التي تشير إلى أن المبدأ الوراثي، لم يكن عديم الأهمية بصورة مطلقة، في عملية تخصيص الإقطاعات الكبرى في القرن الثالث عشر، قبل أن يجعله السلطان التُغْلُقي فيروز شاه، المعيار الرئيسي بعدد من العقود.

(113) TN ,II، 34 (تر. 767). ممكن أيضاً (رغم عدم قيام الجوزجاني بأي ربط صريح هنا) أن مطالبة تَمُرخان بلخناوتي حين انتزعها من يد توغان خان عام 642 هـ / 1244م، كانت مستمدة من زواجه من إحدى بنات المُقْطَع السابق سيف الدين آيبك يغانتوت: المصدر نفسه، II، 18 (تر. 744).

(114) المصدر نفسه، II، 78 (تر. 848 ـ 849)؛ RCEA ,XI، 211 (رقم: 4320). عن جاني، انظر TN ,I، 448، وII، 9، (تر. 618، 731 ـ 732).

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

التهديد المغولي

إمبراطورية المغول العالمية

عندما رحل جنكيزخان عن هذا العالم سنة 1227م، دون أن يعود إلى آسيا الغربية، كانت إمبراطوريته تمتد من سهوب منغوليا الحالية، إلى الأجزاء الشمالية ـ الشرقية من إيران والهندوكوش. ولم يعد المغول إلى إيلاء أي اهتمام بالأطراف، والمناطق الهندية المجاورة، إلاّ بعد انتخاب ابنه وخلفه، أوغودي، خاناً أكبر (**قاغان / قاآن**) في مؤتمر (قُرلُتاي)، عُقد في منغوليا سنة 1229، ولم يتوغلوا في الأراضي الخاضعة لسلطنة دلهي، إلاّ في 639 هـ / 1241م، بادئين بذلك فترة طويلة من الاشتباكات، والحروب مع السلطنة دامت إلى ما بعد استباحة دلهي، من قبل الفاتح (الغازي) القادم من آسيا الوسطى، تيمور سنة 801 هـ / 1398 م. تحظى هذه النزاعات بقدر أقل من التغطية الشاملة، بالمقارنة مع اجتياح جنكيزخان للهند بالذات. فالمراجع الرئيسية لتحركات المغول في إيران الشرقية، وآسيا الوسطى ـ **تاريخي جهان گشاي** (658 هـ / 1260م) لمؤلفه الجويني، و**جامع التواريخ** (حوالى 703 هـ / 1303 ـ 1304م)، لرشيد الدين، و**تجزية الأمصار** لوصّاف ـ لا تكرس إلاّ القليل من الاهتمام لعلاقات المغول، بشبه القارة الهندية. يتضمن كتاب وصّاف، كما رأينا، تاريخاً موجزاً لسلطنة دلهي، حتى السنوات الأولى من عهد علاء الدين خَلْجي، أفاد منه بدوره، كل

من رشيد الدين والقاشاني (حوالى 718 هـ / 1318م). ثمة تفاصيل عن بعض الحملات المغولية في الهند، يمكن التقاطها أيضاً من تاريخ هراة، (تاريخي ـ نامه ـ ي هراة) تأليف سيفي (حوالى 722 هـ / 1322م). غير أن هذه الروايات التاريخية الفارسية، لا تسد الثغرات التي يتركها مؤرخو الهند المسلمين، مثل الجوزجاني وبرني، ممن يكتبون عن الغزوات المغولية ولكنهم يبقون عازفين بصورة شبه كاملة، عن إبداء أي اهتمام بالظروف والأوضاع السائدة، داخل المناطق المغولية، إلاّ بصورة جزئية.

مع موت أوغودي، كان المغول قد اعتمدوا إيديولوجية قائمة على فتح العالم، إيديولوجية كان إله السماء الخالد (تنغري)، بموجبها، قد منحهم الكرة الأرضية كلها. أمّا الحكام الآخرون، فكان واجبهم متمثلاً بالتعرف على مواقعهم، في إطار هذه الإمبراطورية العالمية، وبتقديم آيات الولاء، والخضوع شخصياً إلى الخان الأكبر، وبوضع جيوشهم تحت تصرفه، وبالتسليم بوجود مقيم (شحنة) مغولي، وبالمبادرة إلى تفكيك تحصيناتهم. وأيُّ تحفظ أبداه المغول، في فرض نفوذهم على العالم كله، لم يكن إلاّ لاعتبارات تكتيكية. كان من الضروري أحياناً، أن يتم التوصل إلى نوع من الهدنة مع أحد الحكام، لا لشيء إلاّ للتركيز على عدو آخر في مكان آخر. غير أن كلمتي «السلام» و«الخضوع»، كانتا تعبران عن الكلمة ذاتها (تو، إلّلْ) في قاموس المغول: لم يكن للخان الأكبر أي حلفاء، بل رعايا وأتباع فقط[1].

(1) إيريك فويغَلِنْ، «أوامر المغول للقوى الأوروبية بالإذعان، 1245 ـ 1255 م»، **بيزانتيون** 15 (1940 ـ 1941)، 378 ـ 413. كلاوس ساغاستر «هيرشافتسيان يولوجي أوند فريد نسغدانكه باي دن فروهن مونغولن»، CAJ، 17 (1973م)، 223، 242. إيغور دوراشفيلتز، «ملاحظات على الأسس الايديولوجية لامبراطورية جنكيز خان»، PFEH، 7 (1973م)، 21 ـ 36. ديفيد مورغان، «المغول وشرق المتوسط» في ب. آربل وآخرون (محررين)، **اللاتين والإغريق في شرق المتوسط بعد سنة 1204 م** (لندن، 1989 = **المجلة التاريخية المتوسطية رقم: 1**)، **200 ويقال إن هذه الايديولوجية جاءت بعد، لا قبل، تفجر الحركة التوسعية في ظل جنكيزخان.**

وكما رأينا من قبل، كانت هجمات المغول الرئيسية سنة 620 ـ 621 هـ / 1223 ـ 1224م، موجهة ضد منطقتي نانداذا ولاهور، وكانتا تحت السيطرة الخوارزمية، ومنطقة مُلْتان، التي كانت عائدة لفوبتشا. رأى البروفسور حبيب الله أن جنكيزخان، عزف عن القيام بالمزيد من العمليات في الهند، احتراماً منه لحياد سلطنة الهند، كما يتضح من إخفاقه في مساعدة جلال الدِّين. وكذلك فإن الفاتح المغولي، يوصف أيضاً بميزة «الاعتدال»، و«المراعاة الصارمة لأصول الممارسة الدولية»[2]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن سياسة جنكيزخان تجاه الهند في 1223م، تقدِّم مثالاً فريداً عن هذه الروح. ليس هناك، على أية حال، أي سبب يدعو إلى اعتباره الهند هدفاً مباشراً، موازياً للهدف المتمثل بإمبراطورية خوارزمشاه. ففي ذلك الوقت، كانت أقاليم خوارزم، وما وراء النهر وغزنة ما تزال بحاجة إلى تهدئة، وفيما كان متمركزاً إلى الجنوب من سلسلة جبال هندوكوش، كانت فرق من جيشه، مشغولة بحملات حيوية، لإخماد سلسلة من حركات التمرد في خراسان. حتى الوحدات التي بادر أوغودي لاحقاً إلى سوقها إلى هذا الإقليم، كانت لا تعرف في «تاريخ المغول السري» المزعوم، إلاَّ كقوة احتياطية (مو. گجيجه) ملحقة بالجيش الرئيسي، العامل في إيران، بقيادة تشورماغون[3].

ربما صدرت عن إلتُتْمش، إيماءة خضوع لا يحدثنا الجوزجاني عنها. فبعد تسعين سنة، في 710 هـ / 1310 ـ 1311م، في إحدى السفارات إلى السلطان علاء الدين خَلْجي، ذكّره الإيلخان أولجايتو بأن أسلافه، كانوا «في زمن جنكيزخان كما في عهد أوغودي قاآن، قد تنفسوا هواء المصالحة

---

(2) حبيب الله، **أساس**، 206.

(3) 3 **مونغول أون نيو بوبكا ان**، فقرة: 270، محقق (منقولاً) لـ. ليغتي، **التاريخ الخفي للمغول** (بودابست، 1971م)، 243؛ تر. ف. و. كليفز (كامبردج، ماس، 1984)، 210؛ تر. ايغور دو راتشفيلتز، في PFEH 31 (آذار 1985م)، 26 وهـ. على 58.

والطاعة، وأرسوا، عبر كلام المبعوثين، دعائم الولاء والإخلاص على وجه الأرض»[4]. قد لا يكون ذلك، بطبيعة الحال، أكثر من نوع من الزهو الدبلوماسي. ووصول «حاكم إن ـ تو (الهند)» إلى بلاط أوغودي، الوارد تحت بند أحداث سنة 1229م، في التاريخ الملكي الصيني للفترة المغولية، **اليوان شي**[5]، قد يكون إشارة إلى أحد الأمراء الهندوس، أو إلى حسن قُرلُق، حاكم بنبان. ومع ذلك فإننا نعلم أن إلتُتْمش، قد استقبل بالفعل سفارات من المغول. لأن الجوزجاني يؤكد لنا، أنه لم يقتل مبعوثيهم قط، بل اكتفى فقط بإعادتهم تحت الحراسة بطريقة معينة (بـ طريقي)[6].

الاعتداءات المغولية الأولى

كان عهد أوغودي (626 ـ 639 هـ / 1229 ـ 1241م)، شاهداً على استفحال الضغط خلف حدود السلطنة. وبعد المؤتمر (القُرلتاي) الأول، زحفت الجيوش بقيادة داير نويان من هراة وتوغلت في سجستان وأطاحت بحاكمها نيلتغين (632 هـ / 1235م)[7]. ربما كانت القوات المغولية في كل من طخارستان وقندز وطالقان، فضلاً عن مثيلاتها، على ما يبدو، في غزنة، بالغة، جميعاً، **تومانين** (عشرين ألفاً)، بقيادة منغودي (منغوتي)[8]، هي التي ما لبثت

---

(4) وصّاف، 528.

(5) فالتراوت آبراموفسكي، «الحوليات الصينية عن أوغودي وغويوك»، ZS، 10 (1976م)، 125.

(6) TN, II، 214 (تر. 1284).

(7) بوزوورث، **تاريخ الصفّاريين**، 409 ـ 410. عن داير، انظر بويل، «القادة المغول»، 240: أوبان، «الأصول العرقية»، 70 ـ 71.

(8) TN, II، 153، 169 (تر. 1109، 1152). JT, I، جزء: 1، تحقيق آ. آ. روماسكفيتش وآخرين، (موسكو، 1965م)، 188، وتر. آ. آ. خيتاغوروف، **سبورنيك ليتوبيسي**، ا، 109 جزء: 1 (موسكو ولينغراد، 1952م)، يضيف بالمثل مضارب خيام جيشه على أنها «قندوزي بغلان وأطراف بداخشان». وعن صيغة اسم مونغ غدو، انظر بويل، «القادة المغول»، 242 وهـ. 67. عن كلمة **تومن**، وتعني (بصورة رمزية أحياناً) وحدة مؤلفة من عشرة آلاف رجل، انظر د. أو. مورغان، **المغول** (أوكفور، 1986م) 89.

أن سارعت إلى اجتياح كابُل وغزنة وزابكستان وإجبار حسن قرلُق على قبول مقيم (**شحنة**)[9] مغولي. وفي مؤتمر (قرلتاي) ثان سنة 632 هـ / 1235م، تلقت قوات مغولية إضافية، بقيادة أوقوتور / أوامر بالزحف على الهند، فتمت استباحة كشمير ونهبها، في أثناء حملة استمرت ستة أشهر[10]. وفي 636 هـ / 1238 ـ 1239م شَنَّ الجنرالان (**نويان**) آنبان ونغودر هجوماً مباغتاً على قُرلُق الذي كان قد أصبح تابعاً للمغول، فأخرجاه من مناطقه المتمثلة بغزنة وخُرّمان وبنبان، حيث ارتد على السلطنة شاناً هجوماً على أوتشش، ما لبث أن صده مُقْطَعُها سيف الدين آيبك[11].

تمخضت حملة المغول ضد حسن قُرلُق عن وصولهم إلى حدود سلطنة دلهي، حيث باتوا يحتلون المناطق التي كانت تشكل منطلق الغزوات الغورية على الهند قبل جيلين. ففي 639 هـ / 1241م قام جيش تحت القيادة المشتركة بكل من داير ومونغدو، بفرض الحصار على لاهور. تمكن المقطع، قراقوش خان، من الفرار، وما لبثت المدينة أن سقطت في السادس عشر من جمادي الثانية / الثاني والعشرين من كانون أول / ديسمبر 1241م، على الرغم من سقوط داير، قتيلاً، في المعركة[12]: بقي رد الفعل الصادر عن دلهي، حيث لم

---

(9) II, TN، 159 (تر. 1119).

(10) II, JT، 42 = II، جزء: 1، تحقيق آ. آ. علي زاده (موسكو، 1980)، 120 (تر. بويل، 55/ تر. فيرخوفسكي، 36). JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Tof 61 (الترجمة الألمانية 56)؛ ثمة فجوة في مخطوطة TSM هنا. فالمخطوطة الفارسية في Add, BL 7628، ملف 391 أ، تقول إن المغول مكثوا ستة أشهر وإن راجا كشمير عاد بعد **سبع** سنوات. وهذا الخطأ قاد يان في «ملاحظة عن كشمير والمغول» CAJ، 2 (1956م)، 177، إلى الخطأ؛ تاريخه للاجتياح (المصدر ذاته، 179) هو الآخر خطأ.

(11) II, TN، 8 ـ 9، 162 (تر. 730، 1128 ـ 1129).

(12) المصدر نفسه، II، 163 ـ 165 (تر. 1133 ـ 1136)؛ II، 166 (تر. 1142)، عن التاريخ الذي يرد على شكل جمادى الأولى في I، 465 ـ 466 (تر. 655)؛ عن القيادة المشتركة، انظر II، 6 حيث يتم رفض شهادة الجوزجاني بحجة أن داير مذكور كما لو كان على قيد الحياة في عهد مونغكه (1251 ـ 1259م). غير أن هذا ليس إلاّ سوء فهم نشأ عن غموض رشيد الدين: انظر III, JT، 21 ـ 22 (تر. آرتندز، 22).

يكن بهرم شاه متمتعاً بأية شعبية لدى الجيش، غير ذي أثر. وفي سنة 643 هـ / 1245 ـ 1246م، نجحت حملة، شنَّها مونغدو، في اقتلاع حسن قرلُق من مُلْتان، التي كان قد استولى عليها حديثاً، وإجباره على الهرب، في قارب، مع نهر الأندوس، باتجاه سيويستان ودَيبُل؛ وبعد ذلك، حاصر المغول أوتشش لبعض الوقت، قبل أن تتمكن حملة شنها السلطان علاء الدين مسعود شاه من إجبارهم على التراجع. قامت كتيبة بقيادة آيبكي خيطاي، **سري جاندار** ومقطع باران، بفرض الهدوء على مدينتي أوتشش ومُلْتان[13].

يحرص الجوزجاني، في روايته لقصة هذه الحملة، على إبراز دور السلطان المقبل بلبان، في تأمين انسحاب مونغدو، ويقدم وصفاً متباهياً لكيفية انتقال قوات دلهي إلى الهجوم في شتاء 644 هـ / 1246 ـ 1247م، أوائل عهد ناصر الدين محمود شاه، حين تقدم بلبان وصولاً إلى الأندوس، زارعاً الرعب في قلوب الدوريات الحدودية المغولية. غير أن قول المؤرخ، المؤكد، على أن ذلك عطّل غزو المغول في تلك السنة، تكذِّبه حقيقة، أن إغاراتهم كانت قد أصبحت أحداثاً حولية[14]. وسرعان ما حاول، على أية حال، استغلال فرصة القتال حول مُلْتان، بين كوشلوخان ومنافسه شيرخان، إذ يتحدث الجوزجاني عن إرسال أعداد كبيرة من الأسرى المغول إلى البلاط سنة 648 هـ / 1250 ـ 1251م، من قِبَل (قُرْبُزْ)، نائب شيرخان في مُلْتان[15].

أزمات داخل الإمبراطورية المغولية

كانت العمليات المغولية على الحدود الغربية للسلطنة، منذ سنة 639 هـ /

---

(13) TN ،I، 471، وII، 28، 5654. 170 ـ 171 (تر. 667 ـ 668، 758، 809 ـ 813، 1153 ـ 1156).

(14) المصدر نفسه، I، 479 ـ 480، وII، 56 ـ 57 (تر. 677 ـ 679، 814 ـ 816).

(15) المصدر نفسه، I، 484 (تر. 688)؛ عن تعيين كوربوز والياً على مُلْتان، انظر II، 38، 44 (تر. 782، 792).

1241م، قد أثبتت أنها أقل من باهرة، لأسباب لا نستطيع تأكيدها. فموت داير، لم يكن سوى سبب الانسحاب المباشر من لاهور. أما الآراء التي تقول بأن المناخ جعل الهند بلداً غير جذاب، وبأن البنجاب لم يكن، من الناحية البيئية، ملائماً للنمط المغولي الخاص من البداوة الرعوية، فلا بد من استبعادها. صحيح أن الحَرَّ كان قد أجبر دُورْبَيْ على الانسحاب من مُلْتان سنة 621 هـ / 1224[16]، غير أن هذا، لا يقوى على تفسير إخفاق المغول في ترسيخ أقدامهم في البنجاب. لم يكن الأمر ليقف عند حدود اعتيادهم على المناخات المتطرفة في مواطنهم الأصلية، بل ونجدهم، في القرن الرابع عشر، في الهند بصورة منتظمة، مما يوحي بأنهم كانوا يعثرون على المراعي المناسبة لقطعان مواشيهم. ستتم مناقشة أهداف الغزو المغولي للهند، بقدر أكبر من الشمول، في الفصل الحادي عشر.

أما ما كان منطوياً على قَدْر أكبر من الأهمية، على المدى الأطول، فهي التوترات والأزمات المتفاعلة داخل الأسرة الحاكمة الإمبراطورية. فالحدود بين دائرة سلطة الخان الأكبر من جهة، ونظيرتها المتمثلة بدائرة نفوذ أقربائه الأكثر أهمية باتت أقلّ وضوحاً. فمن جهة، كان جنكيزخان قد أعطى كلاً من أقاربه دائرة رعي محددة، جنباً إلى جنب، مع عدد معين من الأتباع البداة ـ ذلك المجمع المعروف باسم **أولوس** في اللغة المغولية. يصف الجويني أكبر هذه الوحدات، تلك الممنوحة لأبناء الفاتح الأربعة: جوشي وأوغودي وجغتاي وتولوي، قائلاً إنها ممتدة من الوطن في منغوليا نحو الاتجاه الغربي، وفقاً للسن. جُعل الأكبر سناً، جوشي، مسؤولاً عن المنطقة الأبعد غرباً «إلى حيث وصلت سنابك الخيول المغولية»[17]؛ وعند وفاته، قبيل رحيل أبيه جنكيزخان، أصبح ابنه باتو، المؤسس الحقيقي للسلطة المغولية في السهوب الواقعة حول

(16) TJG, I، 112 (تر. بويل، 142).

(17) المصدر نفسه، I، 31 (تر. بويل، 42).

بحري الأسود وقزوين، تلك السلطة المعروفة لدى المؤرخين باسم: القبيلة الذهبية.

ومن جهة أخرى، كانت الفتوحات المغولية تعتبر ملكية مشتركة لمجمل الأسرة الإمبراطورية كلها. فالأقاليم المستقرة تبدو، منذ عهد أوغوداي وصاعداً، خاضعة لحكم «إدارات تابعة (دائرة في الفلك)» مؤلفة من ممثلي كل من الخان الأكبر من جهة، وأمراء بلدان مجاورة من جهة ثانية[18]. لقد تجلى مبدأ الحكم المشترك، أيضاً، في نظام **التاما**، الذي شرحه الراحل جان أوبان. كانت القوات المرسلة إلى كل من المناطق المفتوحة، فصائل تمثل سائر فروع العائلة الإمبراطورية، بما لا يدع مجالاً لتغلب مصالح أمير واحد وطغيانها، دون موافقة الأقارب، الذين كانت قواتهم مشاركة في القتال، جنباً إلى جنب مع قوات هذا الأمير. وهكذا، فإن كلاً من أبناء جنكيزخان، كان ممثَّلاً بقائد في المناطق الحدودية الهندية، خلال عقد ثلاثينيات القرن الثالث عشر[19].

علينا، ثانياً، أن نلاحظ عدم وجود أية قواعد معترف بها للخلافة في الإمبراطورية الخاقانية. فأمير عَيَّنه العاهل السابق، كثيراً ما تمَّ تجاهله لصالح عضو، أعلى كفاءة أو أكبر سناً، من العائلة، وفق نظام اقتبس له البروفسور الراحل: جوزيف فلتشر من العالم الكلتي عنوان «التانِسْتري»[20]. فخلال فترة خلو العرش، التي امتدت بين وفاة الخان الأكبر أوغوداي في منغوليا في كانون أول / ديسمبر 1241م، وانتخاب ابنه غويغ (644 ـ 646 هـ / 1246 ـ 1248م)، ثمة شائعات وصلت إلى دلهي، عن صراعات مريرة محتدمة بين الأمراء، بمن فيهم أنجال شقيق جنكيزخان الأصغر تيموغه[21]. ثم ما لبثت وفاة غويغ

---

(18) بول د. بول «الإدارة الصينية ـ الخطائية في بخارى المغولية» JAH 13 (1979م)، 141 ـ 147.

(19) سيفي، 174، عن نظام **التاما**، انظر أوبان «الجذور العرقية»، 74 ـ 75.

(20) ج. فلتشر، «المغول: من منظور بيئي واجتماعي»، HJAS، 46 (1986م)، 17، 24 ـ 28.

(21) TN, II، 166 ـ 167 (تر. 1143 ـ 1144). انظر ب. جاكسون «تفكك الإمبراطورية المغولية»، CAJ، 22 (1978م)، 197 ـ 199.

المبكرة، التي حالت دون وقوع حرب أشقاء مع ابن عمه باتو، في آسيا الوسطى، أن أفضت إلى فترة انتقالية أخرى، بدون خاقان، دامت ثلاث سنوات، تمكن باتو وفريقه بعدها، من إزاحة ذرية غويغ وضمان المجد الإمبراطوري لتولوي بن مونكه (1251 ـ 1259م). تعرضت المعارضة الصادرة عن الفرعين الأوسطين من العائلة، للسحق دونما رحمة؛ وفي عملية إعادة توزيع كبرى للموارد، جرى حرمان الأمراء الأوغوديين، ونظرائهم من آل جغتاي، من مراعيهم، وإعدامهم أو نفيهم[22].

في سبيل حشد التأييد والدعم خلف النظام الجديد، تم إطلاق سلسلة من الحملات على الحدود، وصولاً إلى مواقع بعيدة مثل الصين وآسيا الغربية[23]. ففي 1252 ـ 1253م، أُرسل سالي نويان إلى الحدود الهندية على رأس جيش جديد، مفوضاً باستلام زمام القوات التي كانت في الماضي تحت قيادة كل من داير وأوقوتور. أما سالي نفسه، فكان خاضعاً لهولاكو، شقيق مونكه[24]، الذي كان سنة 653 هـ / 1255م سيزحف غرباً على رأس جيش عظيم، وسيقوم بسحق الحشاشين الإسماعيليين في (أَلموت) إيران الشمالية سنة 654 هـ / 1256م) من جهة، وبالإجهاز على الخلافة العباسية في بغداد سنة 656 هـ / 1258م) من الجهة الثانية. وحسب نظام **التاما**، كانت قوات الخاقان مصحوبةً بفصائل تمثل أمراء آخرين من العائلة الإمبراطورية، وكانت الجيوش المقدَّمة من الجوشيين، هي الطاغية بين هذه الفصائل[25].

---

(22) المصدر نفسه، 200 ـ 208.

(23) ت. ت. آلسن، **الامبريالية المغولية: سياسات الخان الأعظم مونغكه في الصين وروسيا والأراضي الإسلامية، 1251 ـ 1259** (بيركلي ولوس آنجلوس، 1987)، 1 ـ 5.

(24) JT ,I، جزء: 1، 188 (تر. خيتاغوروف، 110)؛ JT ,III، 21 ـ 22 (تر. آرندز، 21). آوبان، «الجذور العرقية»، 73، 79. يقع تاريخ إيفاد سالي إلى الهند في تموز 1253م حسب **اليوان شيح**: والتراوت آبراموفسكي، «حوليات الصين عن مونغكه»، ZS 13 (1979م)، 22.

(25) جاكسون، «تفكك...»، 220 ـ 221.

تمتع الأمراء الجوشيون بقدر كبير من الاستقلالية العملية عن الخاقان، بفضل بُعْد مواطنهم. فسلطة باتو كانت تمتد إلى مسافات بعيدة خلف حدود ما سيعتبر، لاحقاً، وطناً للقبيلة (الذهبية): والجوزجاني يقر بنفوذه، عبر جميع المناطق الإيرانية المحتلة من قبل المغول، كما أن سيفي يقدم أدلة أكثر تحديداً، تبين مدى قدرة باتو على التدخل في شؤون هراة، خلال أربعينيات القرن الثالث عشر[26]. فوفقاً لما تقوله تقارير وصلت إلى مصر بعد حوالي عشر سنوات، كانت القبيلة الذهبية (القطيع الذهبي) متمتعةً بما يتراوح بين ثُلُث وخُمْسي الغنائم المحصلة من إيران[27]. غير أن الاحتكاك بين الفصائل لم ينشأ، إلاّ بعد وفاة مونكه سنة 1259م، ونشوب صراع في الربيع التالي بين أخويه: قوبيلاي وآريغ بوكه في الشرق الأقصى، على الرغم من احتمال رؤية وجود هولاكو في آسيا الغربية، تحدياً لموقع الجوشيين ومكانتهم في هذه المنطقة.

حتى بعد توقفه عن الكتابة، كان الجوزجاني قد سمع الشائعات الأولى عن وجود توتر في العلاقة بين هولاكو وابن عمه بركه، شقيق باتو وحاكم القبيلة الذهبية، في ذلك الوقت. أما الأسباب المذكورة ـ وهي متمثلة بغضب بركه، الذي تمت تنشئته مسلماً، من المصير الذي آلت إليه الخلافة العباسية ـ فموجودة أيضاً في مصادر تعود إلى الإمبراطورية المملوكية[28]. ومع ذلك، فإن الوقائع تقول إن الصراع بين بركه وهولاكو تم إرجاؤه، لما يقرب من ثلاث سنوات بعد اجتياح بغداد ونهبها، وثمة مؤلفون من أماكن أبعد غرباً، كانوا أقدر على متابعة الأحداث، يَعْزُون الصدام إلى سببين مختلفين تماماً، أولهما: أن

---

(26) TN, II، 176 (مع التصحيح بموجب مخطوطة BL، ملف 155 ب؛ قارن تر. رافيرتي 1172). سيفي، 122 ـ 128، 136 ـ 139. عن باتو، انظر جاكسون، «تفكك...»، 212 ـ 213، 218.

(27) د. آيالون، **«الدستور (الياسا)** الأعظم لجنكيز خان: إعادة نظر»، جزء: ب، **ستوديا إسلاميكا** 34 (1971م)، 174، طبع ثانية في كتابه **الغرباء في بلاد الإسلام** (لندن، 1988). جاكسون، «تفكك...»، 220 ـ 221.

(28) TN, II، 198 (تر. 1257). اليونيني، II، 365. الصفدي، **الوافي**، X، 118.

هولاكو حَرَم القبيلة الذهبية من حصتها المألوفة من الغنائم المأخوذة من إيران؛ أما السبب الثاني المذكور في المصادر، بوصفه أساساً للعداء والخصومة بين هولاكو وبركه، فيكمن في أنهما كانا يدعمان مرشحين متنافسين في النزاع على الخلافة: كان بركه يعترف بآريغ بوكه، في حين كان هولاكو يفضل قوبيلاي[29].

يبقى وضع هولاكو الدقيق عند وفاة مونكه إشكالياً. فلدى وصف شروط مهمته، يستخدم مؤرخ الإيلخانيين، رشيد الدِّين، لغةً شديدة التحفظ. تقول روايته لقصة الأحداث، إن مونكه تعمّد بينه وبين نفسه إبقاء أخيه في إيران، ونقل السلطة الملكية إلى ذريته (المعروفة باسم الإيلخانيين) من بعده، ولكنه تظاهر بالإيعاز إليه بالعودة إلى منغوليا، بعد إنجاز عملية الفتح[30]. ولعل هذا يبعث على قَدْر من الشك، بوجود محاولة لتسويغ استعادة وضع الإيلخانيين. علينا أن نؤكد أننا لا نملك أي دليل آخر، على وجود مثل هذا الهدف لدى مونكه، والمصادر المؤلَّفة داخل الإمبراطورية المملوكية تؤكد، على النقيض من ذلك، أن هولاكو ما لبث، في إحدى المنعطفات، بعد سقوط بغداد، أن تمرد ونصَّب نفسه حاكماً للإقليم[31]. حتى العنوان الفعلي (**إيل**، «تابع»، **خان**) الذي اعتمده هولاكو وسلالته ليس ثابتاً فيما قبل 658 هـ / 1260م[32]. يبدو أن

---

(29) جون و. داردس، «من امبراطورية مغولية إلى أسرة حاكمة يوانية: أشكال متغيرة للحكم الامبراطوري في منغوليا وآسيا الوسطى»، **مونيو منآسيريكا** 30 (1972 ـ 1973م) 128 ـ 131. ب. جاكسون، «اعتلاء قوبيلاي خان للعرش: إعادة معاينة»، **مجلة الجمعية الانجليزية ـ المغولية**، 1975)، 1 ـ 10، أيضاً، «تفكك...»، 226 ـ 227. موريس روشابي، **قوبيلاي خان: حياته وأيامه** (بيركلي ولوس أنجلوس، 1988) 46 ـ 62.

(30) III, JT، 24 (تر. آرندز، 22).

(31) MA، تحقيق وتر. كلاوس ليش، **الامبراطورية المغولية العالمية** (فيسبادن، 1968م)، النص العربي 2 (الترجمة الألمانية: 91).

(32) روفن آميتاي ـ برايس «دلائل الاستخدام الأول للقب **إيلخان** بين صفوف المغول»، JRAS، السلسلة الثالثة، 1 (1991)، 353 ـ 361. ت. ت. آلسن، **حكام من السهب: تشكل الدولة على أطراف أوراسيا** (لوس آنجلوس، 1991م)، 227.

هولاكو أفاد من اندلاع الصراع في الشرق الأقصى، ليتحول من قائد أعلى للجيوش في إيران، إلى حاكم لأمة (أولوس) على غرار أقربائه، حاصلاً على الشرعية المطلوبة من قوبيلاي. تعرض الأمراء والجنرالات الجوشيون في جيشه للاعتقال والإعدام أو السجن، وجرى ذبح أكثرية أفراد قواتهم؛ مما أطلق يده للانقضاض على المناطق الواقعة إلى الجنوب من جبال القوقاز، التي كان الجوشيون يعتبرونها لهم. وبالتالي فإن الحرب ما لبثت أن نشبت بينهم سنة 1261م[33].

شكلت الأحداث التي أعقبت وفاة مونكه، طابع تفكك الإمبراطورية المغولية. فحتى بعد خضوع أريغ بوكه سنة 1264م، لم يكن، قوبيلاي، الذي صار يحكم من العاصمة الجديدة (خانبالق) [تا ـ تو] في الصين الشمالية، مستطيعاً أن يعوّل إلاّ على ولاء هولاكو وسلالته، إيلخانيي إيران، بما يجعل من الممكن التحدث عن «محور تولوي» مؤلف من هاتين القوتين المتباعدتين جغرافياً. أضف إلى ذلك، أنه ما لبث أن بات منذ حوالي سنة 1270م، في مواجهة حلف من الأعداء، فيما وراء النهر وتركستان. وهنا ـ بادر الأمير الجغتائي آلوغو، الذي كان قد تخلى عن أريغ بوكه للالتحاق بركب قوبيلاي إلى استغلال فرصة الحرب الأهلية، لإعادة تأسيس الدولة الجغتائية على مرتكزات جديدة تماماً، واضعاً يَدَه على موارد الأقاليم الحضرية المستقرة المجاورة، التي كان ينبغي أن تكون قد ذهبت إلى الخاقان؛ غير أن بَرَق الذي أرسله قوبيلاي، غرباً، ليحكم الأمة الجغتائية بعد موت ألوغو، سرعان ما تحداه. ومع ذلك فإن العدو الأخطر الذي واجه قوبيلاي في هذه المنطقة كان متمثلاً بقايدو، أحد أحفاد أوغوداي، قايدو

(33) للحصول على معاينة أكثر تفصيلاً لجذور هذا الصراع، انظر جاكسون، «تفكك...»، 226 ـ 235؛ أيضاً المصدر نفسه، من **الأولوس** إلى الإمارة الخانية: تشكل الدول المغولية، حوالي 1220 ـ 1290، في ر. آميتاي ـ برايس ود. أو. مورغان (محررين)، **الامبراطورية المغولية وتراثها** (يصدر لاحقاً).

هذا، الذي بادر عددٌ من الأمراء والقادة (النويان) الجغتائيين والأوغوديين سنة 670 هـ / 1271م إلى الاعتراف به خاناً لهم[34]. كانت إمبراطورية قايدو، مترامية الأطراف. لقد استولى على الإدارة المالية للأقاليم الحضرية المستقرة في آسيا الوسطى، التي بات موظفوها من تعيينه هو، بل ونجده يعين حكام الأمة الجغتائية، الذين تصرفوا كأتباع له. وظل هو وحلفاؤه معادين للنظام في خانبالق، إلى أن توفي سنة 1303 م؛ ولم يعترف العالم المغولي بخاقان واحد، مرة أخرى، حتى سنة 1304م[35].

أَلْحق تفكك إمبراطورية المغول إلى عدد من الأمارات المتنافسة، أضراراً جدية وخطيرة، بقدرتهم على متابعة الحملات التوسعية على كل الجبهات، سواء أكانت جبهة الصين، أم جبهة أوروبا الشرقية، أم جبهة الشام، أم جبهة الهند. كان الإيلخانيون مطالبين باليقظة الدائمة، تحسُّباً لتعرض، ما وراء القوقاز، للغزو من جانب قوات القبيلة الذهبية. ثمة هجمات متقطعة شَنَّها المغول الجغتائيون، وخصوصاً تلك التي تمت سنة 668 هـ / 1270م، قَلَبت خراسان عملياً، إلى منطقة عازلة (نومانزلاند) أحياناً[36]. جاء انتقام الإيلخانيين سنة 671 هـ/ 1272 ـ 1273م، على شكل اجتياح بخارىٰ ونهبها[37]. أما التخلي عن الادعاء القديم، المتمثل بحُكْم العالم، فيتجلى بأكثر أشكاله بروزاً في

---

(34) جمال الدين القارشي، **ملاحظات الشراح**، محقق في ف. ف. بارتولد، **تركستان في العصر المغولي** (سان بطرسبرغ، 1898 ـ 1900م، جزءان)، ا، (نصوص)، 138. وضّاف JT76 II, .، 192 (تر. بويل، 153 / تر. فيرخوفسكي، 100)، وIII، 138 (تر. آرندز، 87).

(35) لعل أوفى عرض لقايدو وامبراطوريته هو الذي نجده في مايكل بيران، **قايدو وصعود الدولة المغولية المستقلة في آسيا الوسطى** (ريتشموند، سري، 1997م). ثمة روايات أكثر إيجازاً في و. بارتهولد، **أربع دراسات عن تاريخ آسيا الوسطى** (لايدن، 1956 ـ 1962، 4 أجزاء في 3 مجلدات)، ا، 124، 129؛ بليوت، **ملاحظات حول ماركو بولو** (باريس، 1959 ـ 1973)، 3 مجلدات)، ا، 124 ـ 129؛ ج. أ. بويل «كايدو»، .Enc Isl*؛ وبصورة أعم، داردس، 130 ـ 131.

(36) JT III، 148 (تر. آرندز، 92).

(37) بيرتولد شبوله، **المغول في إيران**، الطبعة الرابعة (لايدن، 1985م)، 63.

الاستعداد الجديد الذي بات الأمراء المغول يُبْدونه للتحالف مع قوى خارجية ضد أشقّائهم. كان الإيلخانيون مواجَهين منذ سنة 662 هـ / 1263 ـ 1264م، بنوع من التفاهم، بين جيرانهم الشماليين، القبيلة الذهبية من جهة، والنظام المملوكي في مصر والشام من الجهة الأخرى. أمّا محاولاتهم الرامية إلى موازنة هذا التفاهم، عبر التفاوض على نوع من العمل المشترك مع أعداء المماليك في أوروبا الكاثوليكية، فقد ذهبت أدراج الرياح[38].

السلطنة و«أزمتها المغولية»

بات تنامي قوة المغول في إيران أكثر خطورة وتهديداً، نظراً لانجرارهم إلى الشؤون الداخلية لسلطنة دلهي، في أعقاب هروب جلال الدين مسعود، شقيق محمود شاه، إلى داخل الأقاليم المغولية سنة 646 هـ 1248 م. تقول المصادر المؤلَّفة في إيران، إن مونكه أَمَر سالي نويان بمساعدة الأمير الهارب في استرجاع «مملكة أجداده وآبائه». يبدو أن هجمات متعاقبة شنَّها سالي على مُلْتان ولاهور، وصفها سيفي، ونجح فيها والي مُلْتان في رشوة الغزاة، شكلت جزءاً من هذا الجهد. لا يقال لنا أيُّ شيء عن مصير لاهور، لأن سيفي يتوقف عند هذا المنعطف، فجأة، ليصف مصائر شمس الدين محمد كرت، ملك هراة العميل، الذي كان قد رافق قوات سالي، غير أنه ما لبث أن تراجع وانسحب عائداً إلى الوطن. من المؤكد، أن زحف قوات محمود شاه نحو السند عن طريق لاهور سنة 650 هـ / 1252م، حين تعرض أُلُغ خان بلبان للإبعاد، كان رداً على هذه الإغارة[39]. وبالتالي، فإن المغول باتوا

---

(38) س. زاخيروف، **العلاقات الدبلوماسية بين القبيلة الذهبية ومصر** (موسكو، 1966م). روفن آميتاي ـ برايس، **المغول والمماليك: الحرب المملوكية ـ الإيلخانية، 1260 ـ 1281 م**(كامبردج، 1995م) 78 ـ 86، 94 ـ 105. ج. آ. بويل «إيلخانات إيران وأمراء أوروبا»، CAJ 20 (1976م)، 25 ـ 40. مورغان، **المغول**، 183 ـ 186. وللاطلاع على عرض أكثر تفصيلاً لتوقف الزحف المغولي في 1260 ـ 1262م، انظر جاكسون، «تفكك...»، 236 ـ 243.

(39) TN ,I، 486 (مع التصحيح بالاستناد إلى مخطوطة BL، ملف 192 أ؛ قارن تر. رافيرتي، 692). =

عاجزين عن التوغل إلى ما هو أعمق من جاجنر، وما لبثوا أن تقهقروا، إلاّ أن الأمير كان قد عُيِّن حاكماً عميلاً للاهور وكوجاه وسودرا التي كانت خاضعةً (إيل) لهم[40].

لم تدم سلطة جلال الدين مسعود في هذه المناطق طويلاً، بعد مشاركته في الحملة، التي أعادت أُلُغ خان بلبان إلى الحكم سنة 652 هـ / 1254 م. ففي إحدى المنعطفات، بُعَيْد ذلك، التحق به ابن عم بلبان شيرخان، الذي كان أيضاً قد لاذ بالمناطق المغولية، ثم عاد غداة إعادة تنصيب النائب. تعرض الرجلان للانهيار، ومن المحتمل أن يكون جلال الدين، الذي تقاعد وترك أتباعه وقواته نهباً بيد منافسه، مات في غضون السنوات القليلة التالية. وحين اشتبك شيرخان في صراع مع آرسلان خان، مُقْطَع تبرهند، بادرت حكومة دلهي إلى التدخل ومنحَتْه، جزاء ولائه، ليس تبرهند فقط، بل «وكل المنطقة والإقطاعات التي كانت بحوزته من قبل»: يجب أن تكون هذه الخُطَّة قد رُسمت في سبيل احتضان لاهور وأوتشش ومُلْتان[41].

= سيفي، 157 ـ 159 (644). حبيب الله، **أساس**، 215، مال، بالتالي، إلى ربط الاجتياح بحملة بلبان في سلسلة جبال الملح. غير أن التسلسل الزمني لدى سيفي غير جدير بالثقة بشأن هذه المرحلة (انظر أوبان، «الجذور العرقية»، 72 ـ 73)، كما أن العام مبكر جداً ليكون موعداً لوصول أي من سالي أو شمس الدين كرت إلى المناطق الحدودية الهندية، أن يقوم سيفي بذكر عيد الأضحى **(عيدي قربان)** (العاشر من ذي الحجة) بوصفه حاصلاً خلال حصار مُلْتان (158) يشكل حجة لصالح تحديد تاريخ الحملة بعام 650، حيث تتناغم مع موسم العام المحدد من قبل الجوزجاني. لا يمكن التعرف على والي لاهور الذي يطلق عليه سيفر اسم ك ر ت خان (كويت خان). ربما كان علينا أن نتوقع طغرل خان (يُزبك).

(40) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي .Taf 57، النص الفارسي Taf، 22 (تر. 48 تقول «خيبر» بدلاً من ح ح ن ي ر في المخطوطة)؛ قاشاني، 185. عن هذا الحدث، انظر كارل يان «حول مشكلة الفتح المغولي في الهند» (القرنان الثالث عشر والرابع عشر)» في **أعمال مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع والعشرين بميونيخ**. . . **1957** (فيسبادن، 1959م)، 618.

(41) TN ,II، 44 (تر. 793). ينبغي لهذه التسوية أن تكون قد حصلت قبل 654 هـ / 1256م، حيث نجد آرسلان خان، في أوَذ. يتضح أن جلال الدين مسعود كان متوفى مع حلول عام 658 هـ / 1260م من صيغة **«عليه الرحمة»** في قائمة الجوزجاني لذرية إلتتمش في مخطوطة BL، ملف 179 ب، ومخطوطة IOL، ملف 242 ب.

كانت المصالح المغولية في منطقة لاهور قد أُصيبت بنكسة، كما يحق لنا الافتراض، نتيجة لتصالح جلال الدين مسعود مع محمود شاه[42]. أما الآن، فقد جرى خَلْعُه من قِبَل شيرخان الذي كان تابعاً للسلطان، وصاحب مخططات بالنسبة إلى السند، بتشجيع من دلهي. فهذه المنطقة ـ السند ـ هي الأخرى كانت، مؤخراً، قد أصبحت محمية مغولية. وفي أعقاب عودته الظافرة إلى أوتشش ومُلْتان سنة 651 هـ / 1254م، كان كوشلوخان قد أفاد من المساعي الحميدة لشمس الدين محمد كرت الهروي، لعرض ولائه وخضوعه، وكان قد قبل بوجود مقيم (**شحنة**) مغولي. وحين أخفق كوشلوخان وحلفاؤه في الاستيلاء على دلهي سنة 655 هـ / 1257م، تحول إلى أسياده المغول. ما لبث استجداؤه المساعدة من هولاكو ـ وقد تم، حسب كلام الجوزجاني، شخصياً ـ أن تمخض عن استجابة مباشرة. ففي شتاء 655 هـ / 1257 ـ 1258م توغل سالي نويان في السند، بقوة، وأجهز على تحصينات مُلْتان؛ وربما قامت قواته، أيضاً، بمحاصرة قلعة بهكّر في إحدى جزر الإندوس[43]. وعلى الرغم من أن جيش السلطان خرج من دلهي، فإن موقفه لم يكن إلاّ موقفاً دفاعياً خالصاً، على ما يبدو. ومن الواضح، أن الحكومة كانت حريصة على عدم استفزاز المغول. وفي صفر من سنة 657 هـ شباط / فبراير 1259م نُقل شيرخان إلى مهمة موزعة متمركزة حول بهايانا التي كانت خاضعة لإدارة نصرت خان، الذي حل محله في تبرهند، ويعزو الجوزجاني المبادلة، صراحة، إلى الحاجة لدرء

---

(42) I, TN، 489 (تر. 700)، يقال إن لاهور كانت تعتبر إقطاعاً له.

(43) المصدر نفسه، ا، 494، وا، 76 (تر. 711، 844)؛ عن إذعان كوشلو، انظر ا، 38 ـ 40 (تر. 784، 786). بهاكّار: سيفي، 250 ـ 257. تعاملات كوشلوخان مع المغول ربما جاءت مرتبطة مع سفارة من «أحد سلاطين الهند» رافقت بعثة أوروبية غربية في المراحل الأولى من سفرته من بلاط مونغكه في تموز ـ آب 1254م (وإن كان هذا قابلاً بالمثل لأن يشير إلى شيرخان): وليم الروبرتوكي، «مسار رحلة»، XXXVI، 3، في آ. فان دن وينغايرت (محرراً)، **سينيكا فرانسيسكانا**، ا، **ايتنيرا إن ريلاسيونيس فراتوروم مينوروم سايكولي** XIII، إتXIV (قوارتشي ـ فيرنزه، 1929)، 306؛ تر. ب. جاكسون ود. أو. مورغان، **رسالة القسيس وليم الروبروكي**، HS، سلسلة ثانية، 173 (كامبردج، 1990م)، 247 وهـ. 2.

الصراع على الحدود، مع كوشلوخان على ما يبدو[44]. أما الانطباع بوجود موقف استرضائي، يتصاعد جراء إخفاق قوات دلهي المستمر في التصدي العملي للمغول خلال هذه الأشهر، فيما ظل دائباً على اجتياح أراضي السلطان.

في الوقت الذي كتب فيه الجوزجاني، كان المغول قد باتوا مسيطرين على «مجمل أراضي طوران والشرق كلها». ففي كل مكان «من حدود الصين وتركستان وما وراء النهر وطخارستان وزاول [ستان] وغور وكابُل وغزنين والعراق وطبرستان وحران وأذربيجان والجزيرة والأنبار وسيستان ومكران وكرمان وفارس وخوزستان وديار بكر والموصل، وصولاً إلى أطراف حدود الروم والشام» كان قد جرى إزالة الحكام المسلمين[45]. وعلى امتداد العقدين الماضيين، كانت الأقاليم التي تدين بالولاء لسلطان دلهي، قد تقلصت بصورة درامية مذهلة، تحت تأثير الزحف المغولي. كانت عمليات إلتتمش ضد أعوان الخوارزمشاه، وقد أتينا على ذكرها من قبل، قد أدت إلى وضع عدد من المواقع الحصينة الواقعة بين جهيلام وراوي تحت سيطرته. يورد الجوزجاني في قائمة فتوحاته، كلاً من كوجاه (كوجرات الحديثة) ونانداندا وسودرا وسيالكوت، معتبراً الأوليين بَلْدتين حدوديتين (سرحد)[46]. غير أن المغول، كانوا قد باتوا، في عهد رضية، محتلين مساحات واقعة خلف نهر تشاناب، وهو السبب المؤكد الذي حال دون تمكين كبير خان المتمرد، لدى مطاردته شمالاً من قبل قوات رضية سنة 637 هـ / 1239م، من التراجع والانسحاب إلى ما هو أبعد من «حدود سودرا»[47]. ولدى عودة الأمير

(44) TN, II، 44 (تر. 794).

(45) المصدر نفسه، II، 90 ـ 91 (تر. 870 871، 879 ـ 885.

(46) المصدر نفسه، II، 22، حيث يقدم إلتتمش الإقليمية كليهما إقطاعين.

(47) المصدر نفسه، II، 6 (تر. 726 ـ 727).

المرتد، جلال الدين مسعود، بفضل المساعدة المغولية في حوالى 650 هـ / 1252م، كانت لاهور وكوجاه وسودرا خاضعة للمغول، كما رأينا، كما كانت جاجْنَر تُعْتَبر منطقة حدودية[48]. لم يشكل، حتى ارتداد جلال الدين، سوى نكسة عابرة، لأن أسلوب الجوزجاني يفشي حقيقة، أن إقليم السند كان واقعاً خارج ممتلكات سيده ناصر الدين محمود شاه[49]، نتيجة لحملات سالي نويان. فالمغول المسيطرون، عبر أتباعهم الدائرين في فلكهم، على بنبان وسلسلة جبال الملح ووادي الإندوس الأوسط والأعلى، باتوا الآن يهددون قلب سلطنة دلهي. وفي وصفه لأحداث أواخر خمسينيات القرن الثالث عشر، يشير الجوزجاني، مرتين، إلى تبرهند بوصفها «الحدود»[50]. إنها المنطقة الحدودية الإسلامية، مثلها مثل إقليم السند ولاهور وجهات **(طرف)** نهر بياه، التي كان المغول يغيرون عليها مع حلول سنة 656 هـ / 1258 م؛ وحين تبادل نصرت خان إقطاعه مع شيرخان في السنة التالية، حصل على مناطق سيطرة (سرحدها) وصولاً إلى مخاضات نهر بياه؛ ثم ما لبث المغول أن أقدموا على عبور البياه، في غضون السنوات الأولى من عهد بلبان[51].

في ظل هذه الظروف، كان **الحديث** (النبوي) القائل، إن المد المغولي لن يلبث أن يتحول إلى جَزْرٍ بعد أن يكون قد وصل إلى لاهور[52]، يوفر قدراً من الراحة والطمأنينة. لم تشهد ممالكهم أي دليل يشير إلى التقلص مع حلول سنة 1260 م. أضف إلى ذلك، أن تقدم المغول اعتُبر نذيراً بانتهاء الزمن. فقد رآهم

---

(48) وصّاف، 310؛ JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي 57 TAF، النص الفارسي .Taf، 22 (انظر هـ: 40 أعلاه)؛ قاشاني، 185.

(49) II, TN، 86 (تر. 860).

(50) المصدر نفسه، II، 44 (تر. 793، 794).

(51) المصدر نفسه، II، 43، 79 (تر. 788، 850 ـ 851). TFS، 81.

(52) المصدر نفسه، II، 166 (تر. 1336 ـ 1142).

عوفي طلائع جَحافل ياجوج وماجوج[53]. أو لم يقم عددٌ من المؤلفين بنقل بلاغ الرسول القائل بأن علامة نهاية الزمن، ستكون متمثلة باجتياح «الأتراك»[54]؟ أما دعاء الجوزجاني المتكرر راجياً الله أن يمكّن سلطنة ناصر الدين محمود شاه من الصمود إلى يوم البعث (تاقيامي قيامات)[55] فلربما كان أكثر من مجرد مبالغة في التملُّق والتزلف. فالأشياء الأخيرة لم تكن، بالنسبة إلى مسلمي جيله، بعيدة[56]. ولدى سرده لقصة احتلال المغول لأوتشش ومُلْتان سنة 655 هـ / 1257 ـ 1258م، لا يتردد المؤرخ في السماح لقلقه بأن يتسلل، في إحدى المراحل، عبر خُصْلة نسيج روايته الواقعية للأحداث، فيما عدا ذلك[57].

وبالتالي، فإن من شأن مبادرة المغول، بدورهم، إلى اعتماد موقف أكثر ميلاً إلى التصالح، في أثناء الصلات الأخيرة التي سجلها الجوزجاني، أن تبدو منطوية على شيء من المفاجأة. فرداً على مقاربة، غير مباشرة، صدرت عن ناصر الدين محمد بن حسن قرلُق، الذي حكم بنبان باسم المغول، كان أُلُغ خان بلبان قد أوفد **(حاجباً)** رسولاً محملاً إياه موافقته على قيام تحالف نَسَبٍ ومصاهرة بين عائلتيهما. بات مضمون الرسالة معروفاً لدى كوشلوخان، الذي نَبَّه المغول، فاضطر ناصر الدين محمد أن يوعز لموفده، بأن يتابع السفر إلى بلاط هولاكو في إيران؛ غير أنه لم يفعل هذا، كما يقال، إلاّ بعد إضافة رسائل أخرى زَوَّرها بنفسه، ولكنها بادية كما لو كانت صادرة عن أُلُغ خان. ورحّب هولاكو بالمبعوث في شهر ربيع الثاني من سنة 658 هـ / آذار / مارس 1260 م. ويبالغ الجوزجاني في وصف المهرجان الذي تم، خارج دلهي، احتفالاً

(53) JH، مخطوطة BL، مسلسل 4392، ملف 127 ب، **مقدماي ـ ي ياجوج وماجوج**.

(54) II, TN، 92 ـ 94، 98 (محذوف من ترجمة رافيرتي).

(55) المصدر نفسه، I، 422، 450، 462، وII، 89.

(56) انظر أيضاً، I، 440 وII، 48 (تر. 597، 800).

(57) المصدر نفسه، II، 40 (تر. 786) للاطلاع على تحليل مفيد لنظرة الجوزجاني إلى المغول، انظر، د. أ و. مورغان، «المؤرخون الفرس والمغول» في مورغان (محرراً) **الكتابة التاريخية الوسيطة**، 111، 113.

بالمبعوثين المغوليين، واستعراضاً لعضلات السلطنة العسكرية. يقال إن هولاكو أصدر أمراً لسالي نويان قضى ببتر حوافر أي جواد مغولي يدخل الأراضي الخاضعة لسلطة محمود شاه[58].

يوحي ما يقوله الجوزجاني، بأن ناصر الدين محمداً توخى تمرير رد أُلُغ خان، بوصفه دليل خضوع للمغول وصولاً، إلى نيل ثقتهم على أنه الوسيط. غير أن الجدول الزمني للسفارة المغولية، قد يكون منطوياً على مغزى لم يكن ظاهراً بالنسبة إلى الجوزجاني. فممثلو هولاكو كانوا، سلفاً، قد وصلوا إلى ضواحي دلهي، حين انطلق أُلُغ خان بلبان إلى حملة وجيزة ضد ميوس (ميوات) في صفر 657 هـ شباط / فبراير 1260م[59]. من المؤكد أن هولاكو كان قد سمع نبأ وفاة أخيه الخاقان، لدى تسيير البعثة (أواخر سنة 657 هـ / 1259م)، ولربما سَلَق سِلْماً، على عجل، مع السلطنة، ليكون حراً أثناء انشغاله بإنجاز فتح العراق والشام، مترقباً خلافة مثقلة بالنزاعات. أما حقيقة أن بركه أيضاً كان، بالمقابل، على اتصال دبلوماسي مع دلهي في هذه السنة بالذات، فقد دفعت إلى السطح، الفكرةَ القائلة بأن الحاكمَيْن كانا منطلقين من دافع تنافسهما، المتمثل بالتماس أحدهما تأييد أخ مسلم في سبيل تطويق الإمارة الإيلخانية، وبرغبة الآخر، في ضمان حياد السلطان[60]. ممكن أيضاً، وبدرجة موازية، بالطبع، أن تكون قصة الجوزجاني قناعاً يخفي عرضاً صادقاً للولاء من جانب أُلُغ خان، عرضاً جرى تصميمه لكسب الوقت لصالح السلطنة. ومن شأن مثل هذا السيناريو، أن يقدم تفسيراً أفضل، للأسلوب المتشدد الذي اعتُمد في منع سالي من اقتحام أراضي دلهي، بما يذكّر، بامتياز، عدم الانتهاك

(58) II, TN، 83 ـ 88 (تر. 856 ـ 863).

(59) II, Tn، 79 (تر. 851).

(60) عزيز أحمد، «الضغط المغولي في أرض غريبة»، CAJ، 6 (1961)، 183 ـ 184، 185. أوبان، «الجذور العرقية»، 81. انظر II, Tn، 218 (تر. 1292)، عن سفارة بركه إلى دلهي.

الممنوح، مثلاً، إلى أرمينيا الصغرى، حين أصبح ملكُها عميلاً مغولياً سنة 1254م[61]. أما أن المغول لم يتوِّجوا تقدمَهم المدهش، على امتداد العقد الماضي، بفتح المزيد من الأراضي التابعة لدلهي، فيعود، في المقام الأول، إلى نشوب الصراع داخل العائلة الحاكمة للأمبراطورية سنة 1260 م.

بروز النغودريين على المسرح

ثمة ظروف خاصة حرمت هولاكو من قابليته لتوجيه عمليات عسكرية ضد سلطنة دلهي، في المناطق المجاورة للهند. فبعض القوات الجوشية نَجَت من الذبح، على يد قوات هولاكو، ولاذت بسورية ومصر، طلباً للحماية والملجأ لدى السلطان المملوكي[62]. في حين فر البعض الآخر إلى أفغانستان الحالية للالتحاق بركب نغودر، الذي كان يتولى قيادة إحدى الفصائل الجوشية هناك. غير أن قوات هولاكو، ما لبثت أن هزمت جيش نغودر، الذي تحرك شرقاً واستولى، كما يقول رشيد الدين، على البلاد الممتدة «من جبال غزنة وبيني غاو إلى مُلْتان ولاهور»[63]. هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر بيني غاو، التي هي بقعة وثيقة الارتباط بالنغودريين، والمعروف بأنها كانت واقعة في مكان غير بعيد عن شال (كويتا الحديثة)[64].

من المؤسف ألاَّ تملك المصادرُ الإيرانية مزيداً من المعلومات عن

---

(61) كيراكوس غانجاكجي، **باتموتيون هوبوتش**، تر. روبرت بدروسيان، **تاريخ كيراكو غانجاكيتس عن الأرمن** (نيويورك، 1986م)، 304؛ انظر أيضاً ج. آ. بويل، «رحلة هتوم الأول، ملك أرمينيا الصغرى إلى بلاط الخان الأعظم مونغكه»، CAJ، 9 (1964م)، 181.

(62) جاكسون «تفكك»، 232 ـ 233. آيالون، «وافديه».

(63) سيفي، 270 ـ 272، مع تاريخ 660 هـ / 1262م، وإن يكن تاريخ رشيد الدين 661 هـ / 1263م أقوى احتمالاً. JT, II، 39 (تر. بويل، 123/ تر. فيرخوفسكي، 82)؛ وقارن أوبان، «الجذور العرقية»، 80 ـ 81، لإلقاء الضوء على النص.

(64) سيفي، 270، عن شال اسماً بديلاً لكويتا، انظر IC, XXI، 13، 20. تماثل بيني ـ ي غاو مع شاشغاو (على بعد 15 ميلاً إلى شمال شرق غرنة في الطريق إلى كابول)، الوارد عند بويل، «القادة المغول»، 247 هـ. 74، يجب، بالتالي، استبعاده.

مجيء النغودريين أو القاراؤونيين، كما عُرفوا أيضاً، غير أن الحكاية المُغَرْبَلَة، التي التقطها ماركوبولو في كرمان بعد بضع سنوات، قد تلقي بعض الضوء على الموضوع. إنه يجعل عصابة نغودر تمر عبر بدخشان وباشاي وكشمير، حتى تصل إلى «مدينة دليفار»، التي أخذوها عنوة من حاكمها، «آسيدين سولدان»، والتي ما لبثت أن أصبحت قاعدة نغودر[65]، حسب مزاعم الزاعمين. تبدو الرواية البولوية هنا، شديدة الاضطراب والتشوش، وقد لفتت أنظار الكثير من المعلقين المتعاقبين[66]. ليس ثمة إلاّ القليل من الشك، في أن «آسيدين» عند بولو، هو عز الدين كوشلوخان[67]، رغم أن «دليفار» التي اعتبرت، بصورة مقنعة، متماهية مع لاهور («سيتا دي ليفار»)، تنطوي على شيء من الصعوبة[68]، لأن كوشلوخان، الذي حكم في السند، لم يُعْرَف عنه، قط، أنه كان صاحب تلك المدينة؛ وتاريخ منطقة لاهور، بين تاريخ هجرها من قِبَل جلال الدين مسعود، وتاريخ استعادتها من جانب بلبان حوالى 666 هـ / 1268م، صفحة بيضاء. فالمؤلف الآخر الوحيد، الذي

---

(65) ماركو بولو، **لو ديفيزمان دو موند**، تر. آ. سي. مول وبول بليو، **وصف العالم** (لندن، 1938م، جزءان)، ا، 121؛ تر. هنري يول، **كتاب لسير ماركو بولو البندقاني**، طبعة جديدة، هـ. كورديه (لندن، 1903 ـ 1920، 3 أجزاء)، ا، 98.

(66) يول، المصدر نفسه، ا، 103 هـ. ، أصاب إذ لاحظ أن بولو يخلط بين حدثين مختلفين تماماً، حدث يخص الجنرال الجوشيدي وآخر، وقع بعد بضع سنوات، يتعلق بأمير جغتائي (يدعى تغودر في الحقيقة) كان فعالاً في منطقة القفقاس. انظر أيضاً، بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 190 ـ 196. أما الخلط بين نغودر وتغودر فيتكرر في شبولر، **المغول في إيران، 62، ووفيك، الهند ا**، 206، 208. يبقى مقال السير آرول شتاين، «رواية ماركو بولو لقصته اقتحام مغولي لكشمير»، المجلة الجغرافية 54 (1919م)، 92 ـ 103، بحاجة إلى إعادة نظر ومراجعة.

(67) بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 52، رغم الاتفاق مع «الفكرة العامة التي تقول إن هذا يجب أن يكون بلبان» (آسيدين ـ غياث الدين)، فقد بقيت الشكوك ولوحظ أن الاسم يبدو أقرب إلى «عز الدين».

(68) يول، ا، 104 ـ 105 هـ. بليو، **ملاحظات حول ماركو بولو**، 626، كان، من جهة أخرى، ما يزال مستعداً لتصور دلهي: على الرغم من أن المصدر نفسه، 195 ـ 196، ينظر إلى «دلي» و«مالابار» في طبعة راموسيو بعين الشك.

يتحدث عن مصير كوشلوخان، هو عصامي، الذي يزعم أنه خسر مُلْتان أمام بلبان، واضطر للإقامة في بنبان، رغم أنه جلب المغول إلى السند في مناسبتين لاحقتين[69]. ومن جهة أخرى، ثمة شعراء معاصرون يمدحون ابن كوشلوخان، ناصر الدين محمداً، الذي لم يكن، على ما يبدو بوضوح، لاجئاً منفياً لا حول له ولا قوة، بل كان أميراً ذا شأن، تولى حكم أوتشش ومُلْتان لبضع سنين[70]. ومما لا شك فيه، أن مسألة كوشلوخان وأسرته الحاكمة، مُقَدَّر لها بأن تبقى دون حل.

بالتزامن مع هذه الاضطرابات، ثمة شخصيتان كانتا قد لعبتا دوراً قيادياً في الأحداث الجارية على الحدود، على امتداد العقد السابق، تعرضتا بالمثل للاستئصال. فقوات ألوغو، عندما كان ذلك الأمير ما يزال متحالفاً مع أريغ بوكه، ألقت القبض على سالي وأخذته أسيراً إلى ما وراء النهر[71]. يُعزىٰ سقوط ناصر الدين محمد بن حسن قرلُق في المصادر الإيلخانية، إلى دسائس شمس الدين محمد كرت الهروي، مع آخر غير معروف اسمه «خوداوندزاده برغوندي»؛ جرى استدعاؤه إلى بلاط هولاكو، مع عدد معين مع الحكام المحليين الآخرين، وتم إعدامه بتهمة عدم الإخلاص. ومن العواقب المترتبة على إزاحته، هروب الزعيم الخَلْجي وسلطان دلهي المستقبلي، جلال الدين الذي كان قد قدم خدمته إلى الهند[72].

---

(69) FS، 154 ـ 155 (تر. 278 ـ 280).

(70) صدّيقي، «معلومات تاريخية»، 66. عميد سُنّامي، أورده بداؤوني، **منتخب التواريخ**، تحقيق م. أ. علي (كالكوتا، 1864 ـ 1869م، 3 أجزاء)، ١، 110، 121. انظر أيضاً الإشارة الوجيزة في TFS، 66.

(71) وصّاف، 12. يقول رشيد الدين إن آلوغو أرسل جيوشاً إلى سمرقند وبخارى وغيرهما من مناطق ما وراء النهر، رغم إضافته المشوّشة أنه هاجم ممتلكات بيركه (مؤيد لأريغ بوكة مثل آلوغو): JT ،II، 403 ـ 404 (تر. بويل، 257 ـ 258/ تر. فيرخوفسكي، 163). انظر بارتولد، **تركستان**، 488.

(72) وصّاف، 311، JT، تحقيق يان، **كتابات هندية**، النص العربي Taf 57، النص الفارسي .Taf، 23 (الترجمة الألمانية 48 ـ 49 تقول «مماليك» خطأ بدلاً من **ملوك**. قاشاني، 186. قارن أيضاً صدّيقي، «مملكة القرلغ»، 85 ـ 86.

المغول والهند بعد سنة 664 هـ / 1266 م

انطلاقاً مما نعرفه عن حقبة ناصر الدين محمد شاه، مفاجئٌ أن نجد أمير خسرو قد جعل، بعد بضعة عقود، في إيجازه لتاريخ السلطنة الذي قدَّم به كتابه **ديوال راني**، بداية الإغارات المغولية متزامنة مع عهد بلبان[73]. غير أن هذه السنوات شهدت بالفعل، إذا صدَّقْنا برني، تجدداً للضغوط المغولية على البنجاب. وهو يحمل مسؤولية ذلك لواقع أن خلفاء شيرخان، الذين كانوا يتحكمون بالإقطاعات الواقعة، على طريق الزحف المغولي، وكانوا قد دسوا له السم بأمر من بلبان، لم يكونوا مثله من حيث المؤهلات[74]. حتى إذا كان هذا صحيحاً، فإن الإغارات المغولية، ربما لم تكن سوى انعكاس لحقيقة، أن النغودريين كانوا قد باتوا يشنون حملات من قواعد أقرب، من تلك التي شغلها جيش سالي نويان. ومن شبه المؤكد، أنهم أغاروا على أوتشش ومُلْتان في السنة التي وضعتها إحدى الروايات اللاحقة سنة وفاة الشيخ التششتي فريد الدين غانج ـ شيكار (664 هـ / 1265 ـ 1266م)[75]. ما لبثت الهجمات السنوية أن أضحت النموذج المتبع على أية حال[76]. وفيما بعد، يؤكد برني أن المغول تقدموا، بانتظام، حتى روبار على السوتلج الأعلى[77]. كانت استعادة لاهور هي عملية الاسترجاع الوحيدة، التي استطاع بلبان إنجازها، في الشمال؛ غير أن ما يلفت النظر، هو أن أي ذكر لها ممنوحةً كإقطاع ثانية، لا يرد قبل القرن الرابع عشر.

---

(73) DR، 50.

(74) TFS، 65 ـ 66. يتناقض تحليل برني مع ما نعرفه عن تخصيص الإقطاعات حين كتب الجوزجاني، حين جرى نقل شيرخان من تبر هند إلى بهايانا.

(75) أمير حسن دهلاوي، **فوائد الفؤاد**، تحقيق م. لطيف ملك (لاهور 1386 هـ / 1966م)، 373 ـ 374.

(76) WH، مخطوطة IOL الفارسية، 412، ملف 90 أ، 134 ب .TFS، 82؛ وانظر أيضاً 50 ـ 51، حيث يوجد كلام صادر عن بلبان يشير إلى غزوات سَنَوية.

(77) المصدر نفسه، 82، مع القراءة المشوّهة لـ ء ز و ب ر: نص رقمه هوديڤالا، **دراسات**، II، 85 ـ 86. عن روبار، «بلدة ذات عراقة محترمة»، واقعة بزاوية 30 درجة و58 دقيقة شمالاً و76° 32 شرقاً، انظر IG، XXI، 339.

كان السلطان بلبان قد وضع مهمة حراسة الحدود الغربية، على كاهل نجليه: مُنح الأكبر محمد السند، وتم وضع الأصغر، بغراجان محمود، في سامانا. كان الأميران يتقاسمان مسؤولية الدفاع ضد المغول، مع **الباربك**، اختيار الدين بيغبارس، وبرني يثني على فاعلية ونجاح هذه الترتيبات[78]. غير أن بغراخان ما لبث، حوالي سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م، أن نُقل إلى لخناوتي بصورة دائمة. ربما أدى هذا إلى إضعاف الدفاعات الحدودية في السنوات الأخيرة من حكم بلبان، لأن عصامي، يسجل غزواً شنته عصابتان مغوليتان، تمكنتا من رد القوة التي أرسلها محمد لردهما على أعقابهما[79]. وكانت ضربةً أشد ستقع، في شتاء 683 هـ / 1284 ـ 1285م، حين هُزم محمد نفسه، وقُتل في المعركة مع القائد المغولي تيمور[80]. وحسب الرواية الأكثر تفصيلاً، لقصة الاشتباك الواردة في **مرثية** أمير حسن دهلوي التي حفظها سرهندي، فإن المعركة جرت في باغي نير، القريب من ملتقى نهري راڤي ودهند الكبير، يوم 29 ذي الحجة سنة 683 هـ 8 آذار/ مارس 1285 م. أما صديق أمير حسن وزميله، الشاعر أمير خسرو، الذي أخذه المغول أسيراً لفترة قصيرة، فقد خلّد ذكرى الكارثة في كتابه: **وسط الحياة**[81].

عاد تيمور إلى غزو الهند ثانية، وزرع الدمار والخراب في المناطق الممتدة من لاهور إلى سامانا أوائل سنة 686 هـ / 1287م، حين كان السلطان

---

(78) TFS، 80، 81.

(79) FS، 171 ـ 173 (تر. 299 ـ 300).

(80) وصفُ تَمُر كـ «أحد كبار أمراء جنكيز، وملكاً لكل من هراة وقندهار وبلخ وباداخشان، وغزنين وغور وباميان» ليس موجوداً في أي مصدر سابق على فيريشتا (1، 143)، ويثير الشك بالتالي: غير أن عزيز أحمد يقبله، **التاريخ السياسي**، 285.

(81) مقتبس بإطناب من قبل بداؤوني، ا، 138 ـ 155 (ثمة مقتطفات مطولة في ميرزا، **حياة وأعمال**، ص 56 ـ 59). انظر أيضاً TFS، 109 (مع سنة 684 هـ)؛ FS، 175 ـ 181 (تر. 304 ـ 311). التاريخ يأتي به أمير حسن (مقتبس في TMS، 45) وخسرو في WH، مخطوطة IOL 412، ملف 133 أ، 134 ب (وارد في بداؤوني، ا، 147). أمّا الموقع الوارد في WH فيتأرجح بين حدود مُلتان (ملف 78 أ) ومكان قريب من لاهور (ملف 132 ب).

الجديد، معز الدين كيقباد، حفيد بلبان، قد بدأ يتحرك شرقاً، تهيئة للمجابهة مع أبيه بغراخان في أوَذ. لدى اقتراب **الباربك** خان جهان شاهِك، انسحب المغول دون اشتباك، وجرى تعقُّبُهم، كما يقول سرهندي، إلى سفوح جبل جامّو[83]. غير أن تفسخ نفوذ السلطان، وتمركز السلطة بين يدي نظام الدين أديا إلى الإجهاز على الكثير من الأمراء والنبلاء، بمن فيهم شاهك (أزدرخان وأمير مُلْتان الآن)[83]. ويبدو أن مسؤولية الدفاع عن الحدود آلت بعد ذلك، بصورة رئيسية، إلى أمير الخَلْج جلال الدين فيروز، الذي كان بلبان قد جعله مُقْطع كايتال ونائب سامانا[84]. وعلى الرغم من أن جلال الدين يُصوَّر على أنه محارب مخضْرَم على الجبهة المغولية، لدى اعتلائه العرش سنة 689 هـ / 1290م، فإننا نكاد لا نعرف شيئاً عن مآثره. يبادر أمير خسرو، ببساطة، إلى تقويل السلطان الجديد عبارات تشير إلى حملات ضد مغول «غزنين وخرمان وبيرجند»، ويلمّح لاحقاً إلى اعتزامه الزحف من مُلْتان نحو غزنة؛ ونجد برني حتى أقل تحديداً[85].

بُعَيْد جلوسه على العرش، تفرغ السلطان، الذي كان قد أوكل أمْرَ إقطاع مُلْتان لابنه الثاني، إركلي خان، في زحمة انتصارات فترة دامت اثني عشر شهراً، جرى تخليد ذكراها في **مفتاح الفتوح** لأمير خسرو، للزحف ضد المغول. كانت هذه الحملة التي عاد منها إلى دلهي مطلع 690 هـ / 1291م، بعد غياب شهر واحد، موجهة ضد منطقة يتعذر التعرف عليها[86]. وما لبثت،

---

(82) TMS65 ـ 62 QS . 54.

(83) TFS، 134.

(84) المصدر نفسه، 170، 194، 195.

(85) MF، DR8 .، 51، TFS، 169. قد تكون بيرجاند هي نفسها «بارغوند» كاسم آخر لنغار: هوديفالا، **دراسات**، ا، 168؛ آ. د. هـ. بيفار، «نغار وإيرياب: موقعان إسلاميان غير شهيرين على الحدود الشمالية الغربية لأفغانستان وباكستان». **إيران**، 24 (1986م)، 131 ـ 138.

(86) MF، 22، 23. تدعى المنطقة ب ا ل ا غ ت ر ك: والقراءة نفسها موجودة في مخطوطة IOL الفارسية، 51، ملف 490 أ (هامش)، و412، ملف 788 ب (هامش).

على ما يبدو، أن أدت إلى استثارة الهجوم المغولي التالي سنة 691 هـ / 1292م، بقيادة الأمير عبد الله. عَسْكَر السلطانُ في موقع يدعوه كل من برني وعصامي، «بر رام»، حيث كان نهر (السوتلج؟) يفصل بين الجيشين. وبعد بعض المناوشات بين الطليعتين، تم التوصل إلى إعلان هدنة. تبادل جلال الدين وعبد الله، بعض الرسائل الودية والهدايا، ثم انسحب الأمير المغولي تاركاً، وراءه، جماعة من أتباعه اعتنقت الإسلام، بقيادة قائد يدعى ألوغو، أسكنها السلطان في أماكن مجاورة لدلهي[87]. وبعد ذلك، لا نعود نسمع عن أية عمليات اجتياح أخرى، خلال عهد جلال الدين وفي أعقاب اغتيال السلطان العجوز سنة 695 هـ / 1296م على يد ابن أخيه علاء الدين، ما لبث، ولداه اللذان تمكنا من الصمود لبعض الوقت، في مُلْتان، أن أُجبرا على الاستسلام، وقد تم إعدامهما لاحقاً. وقد أدت هذه الأزمة إلى إضعاف دفاعات السِّنْد كثيراً، وهو وضع لم يتأخر المغول في استغلاله، كما سنرى في الفصل الحادي عشر.

النغودريون وجيرانهم المغول

كان انهيار الوحدة المغولية بعد موت مونكه، قد ثبَّت على المناطق الحدودية الهندية، كتلةً من الجيوش المغولية غير الموالية لأي من الفرعين الإيلخاني والجغتائي؛ وما لبثت المنطقة أن تحولت إلى سلسلة معسكرات، لتجمعات مستقلة أصغر، غير ذات قدرة على الوصول إلى استغلال موارد الإمبراطورية المغولية. كان ضعف النغودريين ظاهراً. لكنهم ظلوا على درجة من القوة كافية للحيلولة دون تعريض السلطنة للخطر وهكذا ظلوا حاجزاً آخر في الدفاع الهندي، أمام النزعات التوسعية لدى مغول إيران، أو ما وراء النهر.

---

(87) TFS، 218 ـ 219. ترد رواية مختلفة لهذه الحادثة في FS، 209 ـ 214 (تر. 372 ـ 379)، حيث ينسحب المغول بعد معركة غير حاسمة مع شقيق جلال الدين، ملك خاموش.

فقد سمع، ماركوبولو، عن نغودر، بأنه «يشن الحرب على جميع التتر المقيمين حول مملكته»؛ ومن المؤكد أن النغودريين اشتهروا بالنهب والسلب وقطْع الطرق، كما ذاعت سمعتهم السيِّئة، بوصفهم أناساً غير قابلين للخضوع لأي حاكم[88].

أدى وصول هؤلاء إلى المناطق الحدودية الهندية إلى دق إسفين بين الهند والأقاليم الخاضعة لسلطة هولاكو[89]. فالمصادر الإيلخانية تتحدث عن إغارات نغودرية على فارس وكرمان، مؤكدةً أن أهالي إيران عاشوا في رعب من مثل هذه الإغارات، حتى انتهاء عهد الإيلخان آرغون (المتوفى سنة 690 هـ / 1291م)[90]. وحين بادر الخان الجغتائي برق بغزو خراسان سنة 668 هـ / 1269م ـ 1270م، حاول ابن هولاكو وخلفه: آباقا صده، عارضاً عليه غزنة و«كُرّماني ـ بنبان»[91] ـ وهما منطقتان لم تكونا في جعبته. ربما لم يكن الإيلخانيون شديدي الاهتمام بهذه البقعة، ومن الممكن أن يكونوا قد فكروا، في هذه المرحلة، بترك أمر إخضاعها للجغتائيين. لا يعني ذلك، أنهم لم يبذلوا جهوداً في سبيل ممارسة نوع غير مباشر من النفوذ على النغودريين، أو بتسيير حملات عقابية ضدهم. فكلٌ من هولاكو وآباقا، أرسل عدداً من القادة ضد نغودر وقواته[92]. وفي أثناء الهجوم على خراسان، هرب عدد غير قليل من الأمراء الجغتائيين إلى الإيلخان، وكان آباقا وراء ذهاب أحدهم: مبارك

---

(88) ماركو بولو، تر. مول وپليو، ا، 122 / تر. يول وكورديه، ا، 99. سيغى، 432.

(89) تخفق نظرة يان القائلة بأن الحاجة الدائمة للدفاع عن الحدود الأخرى هي التي منعت ورثة هولاكو من تنفيذ مطالبتهم بأفغانستان الحالية، في أخذ الأوضاع التي كانت قد نشأت هناك بعين الاعتبار.

(90) JT، III، 151 ـ 152 (تر. آرندز، 94). ابن زاركوب، **شيراز ـ نامه** (حوالى 1344 هـ) تحقيق بهمان كريمي (طهران، 1932م)، 66 / طبعة. إسماعيل واعظ جوادي (طهران، 1971م)، 91 ـ 92. وصّاف، 199 ـ 203.

(91) JT، III، 122 (تر. آرندز، 78)؛ وقارن سيفى، 308.

(92) أوبان «الجذور العرقية» (تر. 80 هـ. 3)، للحصول على إشارات نصفية.

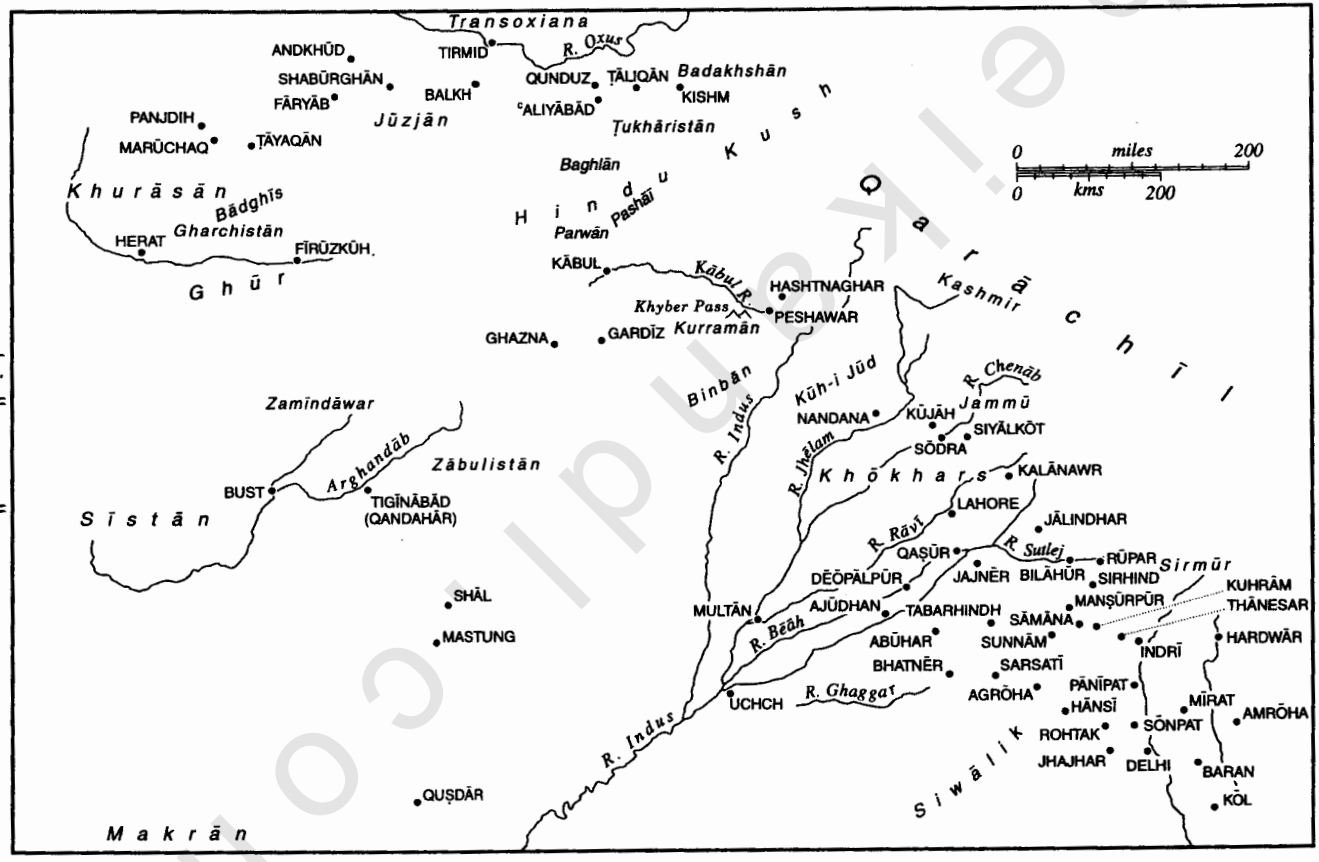

الحدود مع المغول

شاه، لمواجهة «جيش نغودر على حدود غزنين»[93]. غير أن موت مبارك شاه سنة 674 هـ / 1275 ـ 1276م، فيما كان يقود هجوماً على إقليم كرمان، يوحي بأن ولاءه للإيلخان كان سطحياً[94]. وبالمثل، فإن آباقا كان قد ائتمن جغتائياً آخر يدعى بوجي، مكلِّفاً إياه بتولي إحدى القيادات بين صفوف النغودريين، ويبدو أن ابنَ بوجَي هذا، عبد الله الذي سيغزو الهند لاحقاً، قد خلفه عند الوصول إلى هذا المنعطف[95]. وفي سنة 678 هـ / 1279م، قاد آباقا نفسه جيشاً، وصل به إلى هراة، انتقاماً لغارة نغودرية على كرمان وفارس، حيث حصل على ولاء أبناء مبارك شاه، فيما تم إرسال ابنه هو: آرغون، لمتابعة المسيرة، متوغلاً في غور وغرشستان. وعلى الأثر، تمّ استخدام عدد من الأمراء النغودريين وأتباعهم، لشغل الوظائف الإيلخانية في إيران الغربية[96].

يبدو أن هذه الحملات الإيلخانية كانت ذات أهداف محدودة بشكل صارم. ومن الصعب الدفاع عن الفرضية المطروحة من قِبَل البروفسور يو. إن. داي U.N. Day، والقائلة بأن الفيضان المفاجئ للتجاوزات المغولية المتوغلة في

---

(93) JT، II، 193 (تر. بويل 153 ـ 154 / تر. فيرخوفسكي، 100).

(94) أوبان «الجذور العرقية»، 83. مجهول المؤلف، **تاريخ ـ ي شاه ـ ي قره خيطائيان** (أواخر القرن الثالث عشر)، تحقيق محمد باستاني ـ باريزي (طهران، 1976)، 248 ـ 250.

(95) كرماني، **سمط**، JT49 .. II، 177، **حاكمي تشاريكي قره أونا بوددار حدودي غزنين** (تر. بويل، 144؛ ليس في النص المستخدم التر فيرخوفسكي). شجرة نسب مجهولة المؤلف (عائدة إلى القرن الخامس عشر) بعنوان **معز الأنساب**، مخطوطة BN. . . في JT يبدو أن رشيد الدين يورد هذا الفرع من الجغتائيين مرتين، ولسنا مضطرين أن نفترض كما فعل أوبان («الجذور العرقية»، 84 هـ 10) أن هناك أميرين باسم بوجي. ونرى أن برني يعتبر «عبد الله» حفيداً «لهولاكو» (TFS، 218)، وهذا خطأ أدى إلى تضليل لال، **تاريخ الخلجيين**، 30؛ غير أن من شأنه أن يعكس وعياً بدلهي بأن عبد الله كان معيناً من قبل الإيلخانيين.

(96) JT، III، 152 ـ 153، 252 (تر. آرندز، 94، 143)؛ قارن أيضاً JT، II، تر. فيرخوفسكي، 100. حول هذه الحملة انظر أوبان «الجذور العرقية»، 85 ـ 86؛ وعن التاريخ اللاحق للفصائل النغودرية المنقولة غرباً، المصدر نفسه، 87 ـ 90.

الهند، منذ حوالى سنة 1285م، يعكس الفوضى التي عَمَّتْ إيران بعد موت آباقا سنة 680 هـ / 1282م[97]. فمغول إيران كانوا مفصولين عن الهند ليس فقط بحاجز النغودريين، بل وبمملكة هراة الكرتية المتمردة أحياناً، فضلاً عن مملكة سجستان شبه المستقلة. عمد خلف آباقا: أحمد، إلى إلحاق تيغين آباد بمنحة مقدمة إلى ملك سجستان سنة 683 هـ / 1284م، وبالفعل فإن سجستان هذه، لم تصبح بعد، موصوفة على أنها تابعة (إيل) للإيلخان في عهد غازان (694 ـ 703 هـ / 1295 ـ 1304)[98]. إن أقصى ما نستطيع قوله، هو أن العمليات الإيلخانية في خراسان الشرقية، ربما أدت إلى تشجيع النغودريين على تكريس قدر أكبر من الاهتمام لإقليم البنجاب. غير أنه من المؤكد أن دوافع أخرى، أكثر محلية، كانت تفعل فعلها. فقيام مالك هراة الكرتي شمس الدين محمد الثاني[99]، باحتلال قندهار سنة 680 هـ / 1281م، كان من شأنه، بكل تأكيد، أن يشكل تهديداً للنغودريين، وربما يساعد، بالتالي، على تفسير التزايد الواضح للضغوط المغولية على سلطنة دلهي، في سنوات بلبان الأخيرة.

أما فيما يخص الجغتائيين، فإن توغل ألوغو داخل حدود الأقاليم الهندية ـ كما حصل لدى الإطاحة بسالي نويان ـ كان، على ما يبدو، ظاهرة مؤقتة. وعلى الرغم من أن أوبان Aubin يؤكد أن «استحالة الإبقاء على الصلة مع القبيلة الذهبية، سرعان ما اضطرت النغودريين لاستبدال أسيادهم في عملية تحولٍ، ما لبثت أن اكتملت حوالى سنة 1270 م»، فإن من حقنا أن نتساءل عما إذا نجح

---

(97) يو. ن. داي «الحدود الشمالية ـ الغربية للسلطنة»، في **بعض جوانب تاريخ الهند الوسيط**، نيودلهي، 1971م)، 43 ـ 44؛ وقارن أيضاً «الحدود الشمالية ـ الغربية تحت حكم سلاطين دلهي الخلجيين»، IC 39 (1963م)، 99.

(98) جعفر بن محمد بن حسن الجعفري، **تاريخ ـ ي يزد**، تحقيق عراج آفشار (طهران 1959م)، 27؛ عن الهبة، انظر بوزوورث، **تاريخ الصفّاريين**، 435. وعن مملكة هراة. انظر ت. و. هيغ و ب. شبولر، «كرت» Enc. Isl²؛ أيضاً شبولر، **المغول في إيران**، 129 ـ 133، ومقاله في، **المجتمع والتاريخ**. مقالات تكريماً لكارل أوغوست فيتفوغل (لاهاي، 1978م)، 403 ـ 409.

(99) سيفي، 369 ـ 373: ليس التاريخ فوق الشبهة بالطبع.

الجغتائيون في ترسيخ مرتكزات سلطتهم هنا، في هذا الوقت[100]، بل وحتى في الحفاظ على هذه السلطة، في السنوات المضطربة التي جاءت بعد ذلك. تبقى طبيعة الروابط، إذا كانت هناك أية روابط أساساً، التي استبقاها الأمراء الجغتائيون، الذين قام الإيلخانيون بتنصيبهم في منطقة غزنة، مع شعب (أولوس) الجغتائيين، غامضة. ففي كلامه عن السلالة الجغتائية، يتحدث رشيد الدين، الذي كتب في السنوات الأولى، بالذات، من القرن الرابع عشر، عن «إقليم غزنة وجيش قراؤون اللذين كانت لهما روابط عريقة مع الجغتائيين»[101]. غير أن علينا ألاَّ نعوِّل كثيراً على مثل هذه الكلام، على ما يبدو. مما لا شك فيه، أن التنظيم السياسي للنغودريين كان مهلهلاً، وتأثير رئيس الأمة الجغتائية ـ مثله مثل تأثير خصمه الإيلخان ـ جاء متبايناً بين وقت وآخر، ومن فصيل إلى غيره[102]. فحتى العقد الأخير من القرن الثالث عشر، أو حوله، لم يتم بذل أي جهد ناجح من جانب إقليم ما وراء النهر، لفرض السيطرة على النغودريين، والتحكم بالمناطق المتاخمة للهند (انظر الفصل الحادي عشر)؛ وعندئذ، كان من شأن التأثير على سلطنة دلهي أن يبرز، بحدة أكبر، من أي وقت سابق.

(100) قارن أوبان «الجذور...»، 82، نص فرنسي.

(101) JT، II، 174، لشغري قراؤونا كي آز قديم بازبايشان تعلق داشتا آند (تر. بويل 142 / تر. فيرخوفسكي، 92 ـ 93).

(102) انظر الملاحظات في أوبان «الجذور العرقية»، 87.

الفصل السابع

من الإغارة إلى الفتح والاحتلال فالاستيطان

ليس وضع خريطة تقدم الجيوش الإسلامية في القرن الثالث عشر، أمراً سهلاً، بأي من الأحوال. إذ ليس ثمة مصادر سَرْدية هندوسية معاصرة، إذا أردنا الدِّقة؛ فحتى ملحمة **هامّيراماهاكاويا**، مثلاً، تعود إلى نهاية القرن الخامس عشر. فمن الجانب الهندي، تبقى النقوش ـ سواء تلك المنحوتة في الحجر، أو المكتوبة على الألواح النحاسية، التي كان الحكام يمنحونها لمرؤوسيهم ـ أفضل الأدلة المتوافرة لدينا، على الرغم من أن التلميحات فيها إلى **مليكّات** («غير النظيفين») و**التوروشكات** («الأتراك»)، و**الياوانات** («الغربيين»)، تكون غامضة بصورة متكررة. أما الكتاب المسلمون، الذين نجدهم، أقل صراحة، فيما يخص النكسات، فلا يقدمون إلاّ نُتَفاً ممزقة من المعلومات والبيانات. أضف إلى ذلك، أن ملاحظة كَوْن روايات الجوزجاني لقصة العمليات العسكرية محصورة، إلى حد كبير، بتلك التي حضرها ناصر الدين محمود شاه، أو أُلُغ خان بلبان، ليست إلاّ اعترافاً بمدى جهلنا. كانت ثمة، بالضرورة، عمليات عسكرية كثيرة خيضت، على المستوى المحلي، من قِبَل الأمراء والمُقْطَعين، أكسبت جامع الخراج والمستوطن، مزيداً من المساحات الجديدة، غير أننا لا نعرف عنها شيئاً. وعلى الرغم من إمكانية استخدام توزيع الإقطاعات مؤشراً على وجود احتلال إسلامي، فإن المعلومات المتوافرة عن أي من الأوقات،

تكاد ألاّ تكون شاملة. صحيح أن وجود كتابة منقوشة، في هذا الموقع أو ذلك، تؤرخ لبناء أحد المساجد، يؤكد وجود مجتمع إسلامي؛ غير أننا، مع ذلك، لا نستطيع معرفة ما إذا كان هذا هو المسجد الأول الذي بُني في البلدة المعنية.

من المهم ألاّ ننخدع باصطلاح الحرب المقدسة (**الجهاد، الغزو**) الذي يستخدمه الجوزجاني وآخرون. فالأهداف الرئيسية للحرب المقدسة الإسلامية، محصورة بالدفاع عن **دار الإسلام** من جهة، وتوسيع دائرة الحكم الإسلامي في بلاد عبدة الأوثان، من جهة ثانية. وفي الظروف التي سادت الفترة الأولى من حياة السلطنة، لم يكن تحقيق الهدف الثاني ممكناً، إلاّ في مناطق معينة، ولزمن محدود ربما؛ بل وقد لا يكون ممكن التحقيق على الإطلاق. ثمة مثال صارخ يتمثل بحُصْن رنتانبور الأكبر في راجستان، هذا الحصن، الذي احتُلّ مرتين، وهوجم مرات كثيرة، قبل احتلاله النهائي من قِبَل علاء الدين خَلْجي في 700 هـ / 1301 م. ربما كان العاهل المسلم المعروف بالتقوى، خلال القرن الثالث عشر، مضطراً للاكتفاء بالغارات المغامرة المتقطعة. أمّا في الحالات الأكثر إثارة، فقد جرى احتلال عاصمة المملكة الهندوسية ونهبها، وتركها بعد ذلك، لتمكين حاكمها من العودة إلى احتلالها غداة رحيل الجيش الإسلامي. كان هذا النوع من الغارات، يؤدّي إلى رصّ صفوف المسلمين، وإلى إضعاف الأمير الكافر، بتجريده من الكنوز والجياد والفيلة، وإلى الحط من شأنه في أعين نظرائه ومرؤوسيه. غير أن حملات كثيرة كانت قد صُمِّمت، لا لشيء، إلاّ لسد النقص فيما هو موجود من المواشي والعبيد. وخلال الجزء الأكبر من فترة ما بعد 633 هـ / 1236م، تعرضت السيادة الإسلامية، إما للجمود، أو للتراجع، لأن السلطنة كانت عاجزة حتى عن الحفاظ على الحيازات، التي أضافها كل من معز الدين آيبك أو إلتُتْمش.

ربما كانت لغارات النهب على الأراضي الهندية أسباب، أو دوافع

أخرى، غير الحماس الديني التقليدي. يقال إن أُلُغ خان بلبان أوصى ناصر الدين محمود شاه، بالقيام بنشاطات عسكرية ضد القوات الهندوسية، أملاً في استخدام الغنائم المحصلة من الهندوس، لتسديد رواتب أفراد الوحدات المتصدية للمغول[1]. وكذلك، فإن مثل هذه الحملات، كانت تخدم مصالح القائد الفرد. فحملة بلبان المُرْبِحة على رنثانبور سنة 652 هـ / 1254م، التي جاءت قُبَيْل عودته إلى السلطة في البلاط؛ واجتياح طُغرُل المربح للبنغال الشرقي، قُبَيْل حركته التمردية حوالي 678 هـ / 1279 ـ 1280 م؛ بل والغنائم المحصَّلة من دِكّان على يد علاء الدين خَلْجي سنة 695 هـ / 1296م، التي مهدت له الطريق إلى العرش، تكفي لتذكيرنا بذلك.

المواقع الحصينة والملاذات

فيما مضى، رأينا كيف نجحت الفتوحات الغورية، في التأسيس لقيام حكم إسلامي، في السهول الممتدة إلى الشمال من نهر الغانج، مع الإبقاء على بعض الحكام الهندوس فوق عروشهم، مقابل دفع الخراج. فعلى المستوى المحلي، بقيت السلطة بأيدي رهط من صغار الزعماء، الذين تكرر تحديهم لحكم السلطان. وإذ أراد برني تقديم صورة ناصعة عن السلم والنظام السائدين في عهد علاء الدين خَلْجي، فقد كان يكفيه تصوير هؤلاء الزعماء (**المُقَدَّمين**)، والرؤساء (**الخوت**) حراساً دائمين على الطرق العامة، ومراقبين يتولون الإشراف على المسافرين والقوافل[2]. فابن بطوطة، الذي زار السلطنة، خلال حكم محمد بن تُغْلُق، كان حريصاً على التمييز بين الهندوس المقيمين في قرى تابعة لضابط (**حاكم**) مسلم، وبين أولئك الذين يطلق عليهم صفة «المتمردين

---

(1) TN، II، 57 (تر. 816).

(2) TFS، 324؛ وانظر أيضاً 340. أمّا عن عبارة **غوت**، فانظر يول وبورنل، **هوبسون جوبسون**، 480 ـ 481؛ س. هـ. هوديڤالا، «ملاحظات حول هوبسون ـ جوبسون»، IA 58 (1929م)، 172، **دراسات**، I، 277 ـ 278.

والمقاتلين، ممن يعيشون في معاصي الجبال، ويسطون على الرحالة»[3]. وهو يعود إلى الموضوع نفسه في مرحلة لاحقة، ليقول:

النص كما هو في كتاب ابن بطوطة:

ولنعد إلى ما كنا بسبيله، فأقول: سافرنا من مدينة أبوهار، في صحراء، مسيرة يوم، في أطرافها جبال منيعة، يسكنها كفار الهنود، وربما قاطعو طريق. وأهل بلاد الهند، أكثرهم كفّار، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين، يسكنون القرى، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم، الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون، يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

مترجم عن الترجمة:

إن الكفار في أرض الهند، يسكنون منطقة ليست مفصولة جغرافياً، عن منطقة المسلمين، فأراضي الفريقين متلاصقة؛ وعلى الرغم من أن اليد العليا هي للمسلمين، فإن الكفار يتحصنون في جبال منيعة وأماكن وعرة، ولديهم غابات ومراعي... يعيش الكفار في هذه الغابات، التي هي بمثابة أسوار المدينة بالنسبة إليهم، وهم يربُّون، داخلها، مواشيهم ويحفظون حبوبهم، ومخزونهم من الماء الذي يجمعونه من الأمطار، بما لا يدع مجالاً للتغلب عليهم، إلاَّ باستخدام جيوش قوية، من رجال يقتحمون هذه الغابات، ويزيلون تلك النباتات[4]...

هذه هي **المَواسات** (مفردها **مواس** أي «مأوى»، «ملاذ») التي يتكرر ظهورها في المصادر الإسلامية الهندية. كانت الكلمة تنطبق على الأعداد الكبيرة جداً من الأقاليم المُقَطَّعة، والشعاب الوعرة والأدغال الصعبة، شبه

(3) IB، III، 133 (تر. جيب، 612).

(4) المصدر نفسه، III، 389 (تر. جيب، 741 ـ 742).

المستعصية على الفرق الإسلامية من الخيالة الثقيلة، والتي كان العدو يستطيع الصمود أمامها، بمناعة نسبية[5]. من المؤكد أن إحدى هذه المناطق تمثلت **بتاراي**، الواقعة خلف نهر سارو (سرجو) ـ «أدغال هندوستان الكثيفة، الشعاب الضيقة والشلالات، والدرع السميك المصنوع من آلاف الأشجار»، كما يقول الجوزجاني ـ حيث تقدم بلبان سنة 654 هـ / 1256م عبر مطاردته الفاشلة لخصومه المسلمين[6]. شكلت **المواس**، بالطبع، ملاذاً آمناً للمتمردين المسلمين، أيضاً، من أمثال قُطْلُغ خان، الذي عبر مثل هذه المناطق، في طريقه إلى سانتور، بحثاً عن ملاذ سنة 654 هـ / 1256م[7]؛ وعلى الرغم من أن آمالهم كانت أحياناً تخيب، كما حصل لدى تسليم ملك تشهاجّو سنة 689 هـ / 1290م، وأتباع عين الملك بن مهرو حوالى سنة 740 هـ / 1339 ـ 1340م، إلى السلطان بعد سعيهم إلى اللجوء إلى إحدى المواسات[8]. باتت العبارة مرادفة للتحدي. فعصامي يقول، لدى إشارته إلى الحركة الانفصالية التي كانت بقيادة إسلامية في البنغال وبيهار، خلال عهد محمد بن تُغْلُق «لقد أصبحت غاور وتيرهوت كلها **مواساً**»[9].

كثيراً ما كان المقاتلون الهندوس مستعدين للوقوف في صف المتمردين المسلمين الثائرين على الحكومة. فعصيان طُغرُل حوالى سنة 678 هـ / 1279م ـ 1280م، اجتذب أعداداً كبيرة من المشاة من صفوف مُلاّك الأراضي في البنغال، أولئك «المشاة المشهورون»، كما يسميهم برني، الذين ما لبثوا أن دفعوا ثمناً باهظاً، حين جاء السلطان المنتصر بلبان، وأمر بقطع رؤوسهم[10]. ولم يكن

---

(5) هوديفالا، **دراسات**، ا، 226 ـ 229. ثمة أمثلة في TN، ا، 491 وIا، 17 ـ 18، 19، 26، 27، 29، 47، 52، 53، 57، 61، 72، 76 ـ 77.

(6) المصدر نفسه، II، 71، . . . (تر. رافيرتي، 837، 838، معدل).

(7) المصدر نفسه، II، 72، . . . (تر. 839)؛ قارن أيضاً ا، 491 (تر. 704 ـ 705 غير دقيق).

(8) TFS، 82 ـ 490 ـ 491.

(9) FS، 606 (تر. 902).

(10) TFS، 83، 91.

الراوات والبايك ـ الذين لا يعتبرهم أمير خسرو إلاّ «بعض القوات الكافرة من هندوستان (آزهندوستان سيباهي تشاند بي ـ دين) ممن التفوا حول ابن شقيق بلبان: ملك تشهاجّو في قارا سنة 689 هـ / 1290م، في محاولة رمت إلى الإطاحة بالنظام الخَلْجي. ساروا في موكب أمام تشهاجّو، رافعين أغصان التنبول، في تعبيرهم المألوف عن التزام الولاء، وأعلنوا، بكبرياء، أنهم سوف ينقضون على مظلة (تشاتر) السلطان جلال الدين في أوج المعركة؛ غير أنهم ما لبثوا، بدلاً من ذلك، أن حوصروا وأُخذوا أسرى، حين فقد تشهاجّو أعصابه ولاذ بالفرار[11]. يبدو أن قارا، كانت أشبه بالمرتع، بالنسبة لأمثال هؤلاء المساعدين للمتمردين المسلمين. لم يقف الأمر عند نجاح علاء الدين في تجنيد ألفين من البايك (المشاة) هنا، بعد ما لا يزيد عن بضع سنوات، بل ونجد عصابة مزعومة من «مدمني المخدرات البايك (المشاة)» وراء انتفاضة، جرت حوالي سنة 1338م في المنطقة نفسها[12].

لدى وصفه للمناطق المسلمة والهندوسية، على أنها غير قابلة للفصل جغرافياً، كان ابن بطوطة يشير إلى سمة للسلطنة، ميزتها عن الكيانات السياسية الإسلامية الأخرى. ففي الأماكن الأخرى في العالم الإسلامي، كان الحديث عن دار الإسلام من ناحية، ودار الحرب من ناحية أخرى، ينطوي على معنى، خلافاً لما كانت عليه الحال في الهند. من شأن سلسلة من النقاط أن تشير إلى مدى اتساع دائرة حكم السلطان، بقدر أكبر من الواقعية مما يفعله التظليل المتجانس، المفضل في الأطالس التاريخية. كان الاحترام (بايبوس، زامينبوس)، مثله مثل الخراج، متقطّعاً. فبرني يجعل نظام الدين ينصح

---

(11) المصدر نفسه 182 ـ 183. عن عبارة أمير خسرو السلبية، انظر MF، 8.

(12) TFS، 222، 487. عن خزان الرجال المسلحين الذي اعتمد عليه المغول لاحقاً، انظر ديرك هـ. آ. كولف، **ناوكار وراجبوت وسيبوي: التاريخ العرقي لسوق العمل العسكري في هندوستان، 1450 ـ 1850م** (كامبردج، 1990م)، الفصل الأول، خصوصاً 3 ـ 17.

السلطان كيقباد، بالسير لملاقاة أبيه سنة 686 هـ / 1287م على رأس جيش مهيب، من أجل إغراء الرايات والرانات (القادة والرؤساء) بتقديم آيات الولاء له على الطريق[13]. فالأرياف المكشوفة، والغابات والجبال، كانت هي ممالك الكفر والكفار. أما سكان وأهالي السلطنة المسلمون، فكانوا بأكثريتهم، يقيمون في البلدات والمدن المحصنة، بل وقد كانوا، حتى مجرد أقلية، في كثير من الأحيان. يلاحظ ابن بطوطة أن قلعة غواليور العظيمة، لم تكن إلاّ «قلعة معزولة يتعذر الوصول إليها، في وسط الكفار الهندوس»، وأن عامة أهلها كانوا من الكفار؛ كذلك كانت أكثرية أهالي القَصَبة المجاورة، المعروفة باسم «آلابور»[14]. وبعد وقت غير طويل، نجد «عين الملك بن مهرو حاكماً للسند باسم فيروزشاه التغلُقي، وهو يعلق بمرارة قائلاً: «إنهم من الفلاحين (**الدهاقين**) وأصحاب الأراضي (**الزمندارات**) الذين هم رعايا ظاهرياً فقط، (رعاياي صُوَري) ويدفعون الخراج، خوفاً من الجيش، أو من ضربة السيف»[15]. ومن كل موقع حصين وقوي، كانت سلطة الحاكم المسلم وجامع الخراج تشع، إلى الخارج لتصل إلى مسافة ما لبثت أن وَهَنَتْ وخَبَتْ، تبعاً لجريان عمليات عسكرية محلية، أو وجود جيش ميداني كبير أرسلته دلهي. إن «دار الحرب»، المأهولة بأرباب **الحروب**، لم تكن، في الهند، بعيدة في أي من الأوقات.

المراكز (الإدارية والسياسية والعسكرية)

لا نعلم إلاّ الشيء القليل جداً عن العلاقات التي أقامها ولاة السلطان في السند، مع القوى الهندوسية المحلية. كان ابن السلطان بلبان، محمد،

---

(13) TFS، 141؛ قارن أيضاً 108، حيث يأتي الزعماء لخدمة بلبان بعد حملة البنغال.

(14) IB، III، 188، 185، وIV 29 (تر. جيب، 642، 645، 785).

(15) IM، 75. عن الجماعات المختلفة المؤلفة للطبقة المعروفة باسم **الزميندار** الفضفاض، انظر ع. حبيب، «الاقتصاد الزراعي»، 58 ـ 59.

أثناء توليه لحكم مُلْتان، قد تزوج من ابنة راي (أمير) هندوسي، افتدى جثمان صهره سنة 684 هـ / 1285م[16]. ويبدو أن محمداً، كان مواظباً لدى عدم انشغاله بصد الهجمات المغولية؛ في المقام الأول، سلطته على أمراء السومرا، المعتنقين للإسلام جزئياً، في دلتا الأندوس. ونظراً لتبعيتهم إلى قوبتشا، كانوا قد خضعوا لإلتُتْمش، ويقال إن ديوال (دَيبُل) ودامريلا كانتا خاضعتين لرضيّة[17]. ولكن ولاء أولئك الأمراء، لم يكن مضموناً، وقد ترتب على ممثلي السلطان في سيويستان، إبقاءهم تحت المراقبة. يقال إن إقطاع محمد، كان ممتداً إلى جناني، بلدة على بعد مئة وعشرين ميلاً إلى الجهة العليا من النهر من ثاتّا، وقد عُرف أنها كانت بيد السومرا. لكننا نعلم، أنه نجح حوالي سنة 680 هـ / 1281 ـ 1282م، في فتح موقع السومرا الحصين في دامريلا[18]. يقول عفيف: إن علاء الدين خَلْجي شنَّ، أوائل القرن الرابع عشر، حملة غير موفقة في المنطقة، مع أننا نعلم أيضاً، أن مُقْطَعةً في ديوبالور، غازي مالك تُغْلُق، قد بنى على السند الأسفل، قلعة جديدة أطلق عليها اسم غازيبور[19]. وبعد ذلك، لا يُسمَع شيءٌ عن هذه المنطقة، حتى عهد محمد بن تُغْلُق.

كان البنجاب وطناً لعدد من القبائل غير الخاضعة تماماً، وخصوصاً الخوخار، الذين كانت بلادهم الأصلية واقعة بين جهيلام والتشناب، غير أنهم

---

(16) FS، 180 ـ 181 (تر. 311).

(17) TN، ا، 459. دامريلا هي دانبهارلو، على مسافة 150 ميلاً إلى الشرق من كراتشي: ج. أ. بوبلي، «جلال الدين خوارزم شاه في وادي السند»، في خوهرو (محرراً)، **السند عبر العصور**، 129 هـ. 13.

(18) FS، 175 (تر. 304): قبيل الإطاحة به من قِبَل المغول (683 هـ / 1285م). DGK، WH69 .، مخطوطة IOL الفارسية 412، ملف 140 ب؛ منه بداؤوني، ا، 154 (وم / ب ل ه خطأ). TMS، 43، عن الحد الجنوبي لإقطاع محمد. أما عن جاناني، فانظر IB، III، 101 (تر. جيب، 596 ـ 597).

(19) غازيبور: SFS، 91. علاء الدين: عفيف، 251؛ الشهادة اللاحقة والمتناقضة حو هذا استعرضها هوديڤالا في **دراسات**، II، 133 ـ 134.

ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من البياه[20]؛ وهكذا صاروا يهددون لاهور في المقام الأول. وسنة 639 هـ / 1241م قام قراقوش خان، مُقْطع لاهور، بذبح عصابة من الخوخار، الذين وجدهم يكنِّسون كل شيء تركه المغول وراءهم، في المدينة المنكوبة[21]. وحسب كلام برني، فإن شيرخان، ابن عم بلبان، أخضع الخوخار وقبائل أخرى، وهو أمر لم يستطع خلفاؤه أن يفعلوه؛ وكذلك، فإن أمير خسرو يعزو فضل مضايقة أولئك، لجلال الدين خَلْجي[22]. أما في القرن التالي، فقد كانت الطريق من مُلْتان إلى آجودان (باكباتان الحالية) تتعرض للإزعاج الدائم والمنتظم، من جانب قطاع الطرق واللصوص الخوخار، كما تقول إحدى رسائل ابن مهرو[23].

أما في الأماكن الأبعد شرقاً، والأقرب إلى قلب السلطنة، فقد تعين على الحكام المسلمين، المتمركزين في القلاع والحصون مثل: تبرهند وسُنّام وسامانا، أن يتصارعوا مع أقوام مضطربة ومتمردة أخرى ـ أقوام البهاتي والماين في منطقة أبوهار، والمندهار في كايتال، والجات. كان هؤلاء، بأكثريتهم الساحقة، رعاة أشداء، متنقلين بين الضفاف المشاطئة للأنهار، وقد سبق لبرني، فيما كان أسيراً في بهاتز، أن رأى معسكراتهم (تالوانداتهم) المؤلفة من العربات، التي كانوا يجمعون مواشيهم داخلها، في أماكن قريبة من منابع المياه[24]. ثمة تودايون وجاتيون، جنباً إلى جنب مع خوخاريين، يوجدون بين

---

(20) عبد السجان، «خوكار»، Enc. Isl.². عن منطقتهم الأصلية، انظر Tāj، ملف 190 أ.

(21) TN، II، 165 ـ 166 (تر. 1136).

(22) TFS، DR. 65، 52.

(23) IM، 168.

(24) TFS، 568: وقارن هوديڤالا، **دراسات**، ١، 305، للحصول على ترجمة هذا المقطع. عن هذه القبائل، انظر عموماً هـ. أ. روز، **لائحة قبائل وطبقات البنجاب والإقليم الحدودي الشمالي ـ غربي**، ١، 295 ـ 296. كان الجات يتخلون عن حياتهم الرعوية لاعتماد الزراعة: عرفات حبيب، «جات البنجاب والسند»، في هاربانس سنغ و ن. جيرالد بارير (محررين)، **البنجاب بين الماضي والحاضر. مقالات على شرف الدكتور غاندا سنغ** (باتيالا، 1976)، 92 ـ 103.

الجنود الذين استندت إليهم رضيّة وآلتونابا، في التصدي لبهرم شاه سنة 638 هـ / 1240م[25]. وحسب كلام برني، فإن شيرخان، كمُقْطَع ديوبالور، قد بنى قلعة بهاتز، ونجح، فيما بعد، في فرض الطاعة على هذه الأقوام[26]. غير أن السلطان التالي جلال الدين خَلْجي، قاتل البهاتي والخوخار، ولدى إغارته على منطقة ماندهار، كمُقْطَع كايثال (أي في أواخر ثمانينيات القرن الثالث عشر) أصيب بجرحين في الوجه، أحْدَثا ندوباً دائمة[27]. ولقد استمرت المقاومة المتقطعة حتى القرن الرابع عشر، لأن محمد بن تغلق، كان سيقود حملة تأديبية ضد كل من المهاين والبهاتي والماندهار، حوالي سنة 1337 م. لعل جماعة كهذه، هي التي كانت قد هاجمت فريق ابن بطوطة في 734 هـ / 1334م، في السهل الممتد بين أجودان وأبوهار[28].

كانت منطقة جبلية مَدْروزة بالكثير من الوديان السحيقة والممرات الضيقة ومغطاة، في القرن الثالث عشر، بغابات كثيفة، تدعى آلوار، تقع إلى جنوب دلهي مباشرة. وبنظر المسلمين، فإن تلك هي «المرتفعات»، **الكوهبايا**. وللمكان اسم آخر، هو «ميوات» نسبة إلى السكان، الميو، الذين كانوا، على ما يبدو، أشباه أتباع ملوك التشاوهان (تشاهمانا) في رنثانبور[29]، والذين كانت نشاطاتهم القائمة على السلب والنهب، تخترق هاريانا في الشمال، وتصل إلى بهايانا في الشرق. كانت مخافر أمامية إسلامية قد أقيمت في هذه البقعة، عند كل من ريواري ونارووال وبالوال وكاما، التي تظهر بوصفها إقطاعات، في ظل إلتُتْمش وخلفائه المباشرين: فريواري كانت مخصصة لبعض الوقت لبلبان،

(25) FS، 139 (تر. 259).

(26) TFS، 65.

(27) المصدر السابق، DR195.، 52.

(28) IB، III، 133 ـ 135 (تر. جيب، 612 ـ 613). عن حملة محمد، انظر TFS، 483.

(29) انظر عموماً ج بورتون ـ بيج، «ميو»، Enc. Isl²، و«موات» المصدر نفسه. أمّا عن الربط مع رانتانبور، فانظر TN، II، 58 ـ 59 (تر. 818)؛ حبيب الله، **أساس**، 152، 153.

الذي يقال إنه تمكن، في بداية حياته العملية، من فرض الطاعة على «**الماوسات والكوهبايا**»[30]. وسنة 658 هـ / 1260م، حين تعرض أتباعه، عند أطراف هانسي لغارات الميو، قاد بلبان حملتين مدمرتين إلى أعماق مناطقهم، ولم يعد إلاّ ومعه مئتان وخمسون من كبار رجالاتهم، لإعدامهم في دلهي، بعد إعمال السيف في رقاب الألوف من أبناء الميو[31]. قد لا تجد رواية الجوزجاني المقيتة، صعوبة كبيرة في إقناعنا، بأن الميو، قد تم إخضاعهم إلى الأبد، غير أن برني يقول إن هؤلاء الميو كانوا، خلال عهود إلتُتْمش وذريته، متمردين، حتى أنهم كانوا ينهبون القصور (الڤيلات ـ **سرايحه**) الكائنة في ضواحي دلهي بالذات، ويضايقون السقّائين في حَوْض شمسي. كان بلبان يضع مسألة سحقهم في صدر سلَّم أولوياته، وقد أنفق السنة الأولى من حكمه، على تطهير الأدغال المحيطة بالعاصمة، وذبح الميو. أقام قلعة في غوبالغير وأسس عدداً من المتاريس والحواجز الدفاعية (الثاناها) المختلفة. وبعد ذلك، أصبح مواطنو دلهي، حسب زعم برني، آمنين من خطر الميو[32]. قد يوحي المسجد الذي شيد سنة 671 هـ / 1272م في ناروال، بنجاح سياسة بلبان[33]. فناروال هذه، تبدو خاضعة، مرة أخرى، للحكم الإسلامي، في ظل جلال الدين خَلْجي، وحقيقة، أن السلطان كان قادراً، لدى خروجه للزحف على رنثانبور سنة 690 هـ / 1291م، على التقدم عبر ريواري وناروال، تظهر بأنه لم يكن يتوجس أي

---

(30) TN، II، 6، 8، 41 (تر. 726، 730، 790)؛ وعن بلبان، II، 52 (تر. 806 ـ 807). عن كاما، في منطقة بهاراتبور، على مسافة 39 ميلاً شمال ـ غرب ماثورا، 27 درجة و40 دقيقة شمالاً، 77 درجة و20 ثانية شرقاً، انظر رافيرتي، 790 هـ. 9؛ عن بالوال، انظر أيضاً شعب؛ «منقوشات من بالوال»، 2 ـ 3؛ RCEA، X، 56، 72 ـ 73 (أرقام: 3678، 3703).

(31) TN، II، 78 ـ 83، 89 (تر. 850 ـ 856، 864)؛ أيضاً تلميح موجز إلى الحملة الأولى في I، 496 (تر. 715).

(32) TFS، 55 ـ 57. عن غوبالغير، انظر أيضاً FS، 164 (تر. 291).

(33) س. س. حسين نقش جديد يدعى السلطان بلبان من متحف الوسريه باتيالا، EIAPS (1972م) 1 ـ 3 ARIE (1973 ـ 1974م)، 13، 181 (رقم: د 250).

إزعاج من الميو[34]. غير أن ملاحظة عابرة، يوردها ابن بطوطة تكشف عن حقيقة أن محمد بن تُغْلُق، كان قد اضطر لإرسال جيوشٍ إلى المرتفعات القريبة من دلهي، قبيل وصول الرحالة المغربي[35]. ما من شيء يسلط الأضواء الساطعة على محدوديات السلطة الإدارية الإسلامية، أكثر من هذه الأزمات المتكررة، في منطقة شديدة القرب من العاصمة.

جهتا الشمال والغرب

أما خَلْفَ الخوخار، فكان أهالي سلسلة جبال الملح (كوهي ـ جود). لم يكن قمع هؤلاء من قِبَل معز الدين سنة 601 هـ / 1204م قد روَّعهم طويلاً، كما لم يكن اعتناقهم للإسلام، إلاَّ مبادرة عابرة. فسنة 643 هـ / 1245م اضطلع «جاسبال سيهرا»، راجا جبال الملح، بدور الدليل للجيش المغولي الغازي، مما جر عليه هجوماً تأديبياً، شنته ضده، قواتُ دلهي بقيادة **أمير ـ حاجب** بلبان في السنة التالية[36]. وبُعَيْد ارتقائه العرش سلطاناً سنة 663 هـ / 1266م، بادر بلبان، إلى قيادة حملة أخرى، إلى سلسلة جبال الملح، تمخضت عن نجاحه في جلب نجلي الراجا رهينتين[37]: ويبدو أنهما اعتنقا الإسلام، ويرد ذكرهما، لاحقاً، في قوائم النبلاء.

يبدو أن السلاطين لم يكونوا على صلات قوية مع الأمراء الهندوس، في الجبال الواقعة إلى الشمال، التي يستخدم كل من الجوزجاني وابن بطوطة، كلمة: قراشيل، للدلالة عليها، خلال القرن الثالث عشر الميلاد[38]؛ لعل

---

(34) MF، 25، المصدر نفسه، 28، عن أحد أمراء نازناوُل. وعن هذا المكان، 28 درجة و3 دقائق شمالاً، 76 درجة و10 دقائق شرقاً، انظر IG، XVIII، 380 ـ 381.

(35) IB، III، 293 (تر. جيب، 696 ـ 697).

(36) TN، II، 56 ـ 57 (تر. 815)؛ قارن أيضاً I، 479 (تر. 678 ـ 679).

(37) TMS، 40 TFS، 59 ـ 60، لا ترد الحملة إلاَّ بصورة موجزة.

(38) TN، II، 126 (تر. 1046)؛ ترد الصياغة بالكتابة **البِلْينا** في IB، III، 325. إنه اسم تركي ويعني على ما يبدو «ثغرة في الثلج» من **قار**: ثلج و**آتشل**: يفتح: كلاوسون **قاموس**. . .، 26، 641؛ بليو،=

محمد بن تُغْلُق هو السلطان الأول المعروف، بأنه شَنَّ حملة على هذه المناطق البعيدة. تكتفي مصادرنا بذكر كشمير وجامو، كل منهما في ظل أسرتها الحاكمة من الراجات، وليس ثمة ما يشير إلى أنهما اعترفتا، في أي من الأوقات، بسيادة دلهي عليهما. غير أن حملات معينة، تم إرسالها إلى المناطق الواقعة شمال دلهي مباشرة، حتى في أيام الجوزجاني. فحين قام راجا سانتور: «رانبال كبير أمراء الهندوس»، بتوفير الملاذ الآمن لقُطْلُغ خان، عدو بلبان، سارع الأخير إلى الانقضاض على مقر إقامة الراجا في سليمور (سيرمور) سنة 655 هـ / 1257م، حيث أشبعه نهباً وسلباً[39].

راجستان والسيوالك

كان الجزء الشمالي من سلسلة جبال آرافاللي، يشكل العمود الفقري للمنطقة، التي يطلق عليها المسلمون اسم «سيوالك» (الذي ينبغي عدم خلطه بالاستخدام الحديث للكلمة، التي تشير إلى قطّاع من هيمالايا الصغرى). كانت تلك منطقة واسعة، ممتدة من هانسي وسارساتي، حتى نغوار وآجمر وسامبهار ناماك وماندور؛ وبالفعل، فإن إحدى عبارات برني توحي، بأنها كانت محكومة بأن تشمل جالور أيضاً[40]. وقد قاد إلتُتْمش حملةً إلى جالور هذه، التي كانت بيد أحد فروع أسرة تشاوهان الحاكمة، في الأيام الأولى من عهده. ما لبث ملكُها أوداسيمها «أودايسا» أن قَدَّم فروض الطاعة، والتزم بدفع الخراج[41]. يبدو أن هذا الترتيب لم يدم طويلاً، لأن إلتُتْمش عاد سنة 644 هـ / 1227م، إلى

= **ملاحظات حول تاريخ الجحفل الذهبي**، 64 (قراتشيل... أما الربط المقترح بكلمة **آتشالا** (جبل) السنسكريتية، وبالتالي بموقع «كولارتشاك» القريب من كشمير والذي ذكره البيروني في القرن الحادي عشر، فيبقى بلا معنى ودون أساس.

(39) TN، II، 72 ـ 73 (تر. 839 ـ 840)؛ انظر أيضاً I، 491 (تر. 704 ـ 706).

(40) TFS، 289. الاستخدام الأضيق نجده في TN، I، 284، 400 ـ 401 (تر. 200، 468). انظر عموماً بول وبورنل، **طوبسون ـ جوبسون**، 843 ـ 844.

(41) Tāj، ملف 288 أ ـ 232 ب. عن جالور بين فتوحات إلتُتْمِش، انظر TN، مخطوطة BL ملف 179 ب.

مهاجمة ماندور، التي يعرف أنها كانت عائدة لأوداياسيمها، واحتلالها، وبالفعل، فإن كتابةً منقوشة لنجله تشاتشيغاديفا تعلن للملأ، أن أوداياسيمها، كان «قد كبح كبرياء التوروشكا (الأتراك)»[42]. قد يكون هذا تلميحاً إلى استعادة ماندور، التي لا تظهر بوصفها جزءاً من إقطاع، إلاَّ مرة واحدة، سنة 639 هـ / 1242م. ومن الواضح أن المسلمين، ما لبثوا أن فقدوها في تاريخ لاحق، لأن جلال الدين خَلْجي كان سيضطر لإعادة احتلالها سنة 691 هـ / 1292م[43]. أما عن جالور فلا نسمع شيئاً آخر، حتى القرن التالي.

كانت آجمر، العاصمة السابقة للفرع الرئيسي، لأسرة تشاوهان الحاكمة، قد احتُلَّت، من قبل آيبك، عقب سقوطها بيد هاريراجا، شقيق برثفيراجا الثالث. وقد ظلت خلال فترة حكم إلتُتْمش، مركز إقطاع، ضمَّ كلاً من لاوا وسامبهار ناماك أيضاً. وقد تملكه، لبعض الوقت، ناصر الدين آتيمُر البهائي. غير أن هذه المقطعات الأخيرة، لا تعود تظهر أرضاً إسلامية، مرة أخرى، في القرن الثالث عشر، وحين نصادف آجمر، ثانية، وهي ممنوحة، كإقطاع، فإنها تكون ملحقة بماندور ونغوار، كجزء من مقاطعة، أو ولاية كبيرة، موضوعة تحت تصرف كوشلوخان سنة 639 هـ / 1242م[44]. من المؤكد، أن الأقاليم الواقعة في أقصى الجنوب، والمتمثلة بسيوالك، كانت قد باتت تتعرض لضغوط شديدة من جانب التشاوهان في رنثانبور، ولعل المَنْح، يشير إلى أن نوعاً من الدمج والتوحيد للموارد المحلية، اعتُبر ضرورياً. ومما ينبغي له أن ينطوي على مغزى أن الكُتَّاب المسلمين، لم يعودوا يأتون على أي ذكر

---

(42) د. ر. بهاندراركار، «تشاهامانا ماروار»، EI 11 (1911 ـ 1912)، 74 وبعدها. عن امتلاك أوداياسيمها لماندور، انظر راي، **تاريخ إحدى الأسر الحاكمة**، 1128 ـ 1131؛ وعن حملة إلتُتْمِش، TN، ا، 446 (تر. 611).

(43) TFS، FS220 .، 215 (تر. 379 ـ 380). TMS، 64، 65. عن مملكة جالور، انظر عموماً، شارما، **أسر التشاوهان الحاكمة الأولى**، 167 ـ 179.

(44) TN، ا، 468، وII، 8 (تر. 661 ـ 662، 728).

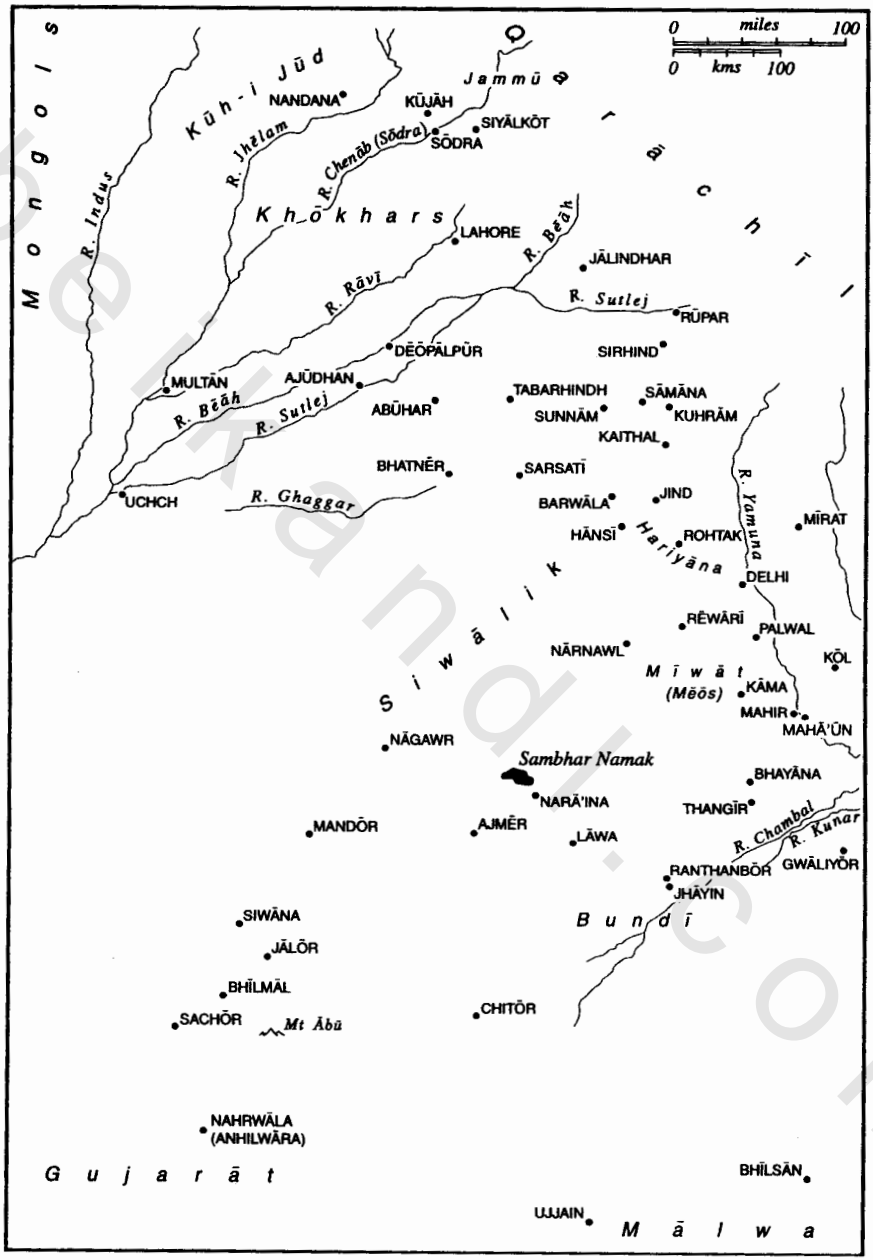

الحرب ضد القوى الهندوسية في الهند الشمالية

لآجمر، حتى القرن الرابع عشر. ثمة ملحمة سنسكريتية، تزعم أن ملك رنثانبور التشاوهاني، هامّيراديفا (1283 ـ 1301م)، مر بآجمر (آجاديامبرو) في خلال تقدمه المظفَّر، من آبو عائداً إلى عاصمته[45]. وإذا كانت هذه الرواية صادقة، فإنها توحي بأن القلعة كانت قد توقفت عن تشكيل جزءٍ من السلطنة.

كانت رنثانبور نفسها، تلك التي شهرها الجوزجاني بوصفها شديدة المناعة، بما مكَّنها من تحدي هجمات سبعين ملكاً هندوسياً ونيف، عبر العصور[46]، قد أصبحت تابعةً تدفع الجزية سنة 587 هـ / 1191 م. يبدو أن المدينة، كانت لا تزال، خاضعة لإلتُتْمش سنة 1215م، لأن منقوشاً في مانغلانا، على الأطراف الشمالية من مملكة تشاوهان، يأتي على ذكر ليس حفيد برثفيراجان، فالها ناديف، فقط، بل و«ساماسادانا» (شمس الدِّين) أيضاً، سلطاناً في يوغيني (دلهي). غير أن من الواضح، أن رنثانبور كانت قد تحدَّتْ السلطان، مع حلول سنة 623 هـ / 1226م، حين تمكن جيش الأخير من احتلال القلعة، بعد حصار طويل. ومع ذلك، فإن الهندوس فرضوا الحصار عليها، غداة وفاة إلتُتْمش، فبادرت رضيّة حوالى 635 هـ / 1237 ـ 1238م، إلى إرسال المالك الغوري قطب حسن بن علي لنَجْدتها: غير أن الأخير، رأى استحالة الصمود فيها، على ما يبدو، لأنه ما لبث أن سحب الحامية الإسلامية، وفكك التحصينات، وغادر المكان[47].

لعدة عقود، لم يشهد المجهود الحربي ضد مملكة تشاوهان، أي ازدهار. ذات مرة، أواخر عهد إلتُتْمش، لقي آتيمُر مصرعه، في حملة انطلقت من آجمر، وتوغلت في منطقة بوندي[48]، التي كانت عائدة، بالتأكيد، لسلالة

(45) نيلكانتا جانارداردان كيرتانه، «الهامّيرا ماهاكافيا من نايانشاندراسوري»، IA 8 (1879م)، 64 ـ 65.

(46) TN، ا، 445 (تر. 610 ـ 611).

(47) باندیت راما كارنا، «منقوش مانغلانا الحجري عن جاياتراسيمها؛ (فيكراما ـ) ساموات 1272»، IA 41 (1912م)، 85 ـ TN88 .، ا، 445 ـ 446، 459 ـ 460 (تر. 611، 642).

(48) المصدر نفسه، II، 8 (تر. 728).

برثفيراجا. وبعد استعادتها من قبل الهندوس، تعرضت رنثانبور لهجوم قوات دلهي، في عدد من المناسبات. فسنة 646 هـ / 1248 ـ 1249م، قاد أُلُغ خان بلبان، جيشاً نحو «المرتفعات (كوهبايا) ورنثانبور «لتأديب «باهارديو»، الذي يصفه الجوزجاني قائلاً: إنه «أعظم أمراء هندوستان»، ويرى المؤرخون الحديثون أنه ملك تشاوهان: فاغبهاتا، خَلَف والهانا‌ديفا. وقد عاد بلبان إلى الهجوم سنة 652 هـ / 1254م، حين كان منفياً في نغوار، فتقدم باتجاه «رنثانبور وبوندي وتشيتور». تعرض «بهارديو» للهزيمة في المرتين، وفاز الجيش الإسلامي بمقادير، ذات شأن، من الغنائم[49]. ثمة حملة أخرى، ما لبثت أن شُنَّت ضد رنثانبور، أوائل 657 هـ / 1259م، على الرغم من أن واقع عدم إخبارنا بالمحصلة، قد يكون دليلاً على الإخفاق[50].

لا نعود نسمع، ثانيةً، عن رنثانبور في المصادر الإسلامية، حتى هجوم جلال الدين خَلْجي سنة 690 هـ / 1291م، الذي يصفه أمير خسرو في **مفتاح الفتوح**. لقد نجح السلطان في إلحاق الهزيمة بجيش، أرسله، ضده، ملك تشاوهان، الذي ما لبث أن غادر عاصمته جهاين، وفر إلى الجبال. قام جلال الدين باحتلال جهاين، وجرى تحطيم أصنامها، أشلاء، لنقلها إلى دلهي. وثمة فِرَقٌ أُرسلت في موجات نهب وسلب، إلى جهات الشمال والشرق[51]. وبرني، الذي كتب من موقع بعيد بعض الشيء، عن هذه الأحداث، يعطي الانطباع بأن الإنجاز، ربما كان محدوداً أكثر. صحيح أن جلال الدين ـ حسب روايته ـ قد احتل جهاين، وحطم الأصنام ونهب المنطقة، غير أنه لم يكرس

(49) المصدر نفسه، ا، 482 ـ 483، وا، 58 ـ 59، 65 (تر. 684 ـ 685، 818 ـ 819، 828)؛ قام رافيرتي باعتماد «ناهار»، ولكن قارن راي، **تاريخ**...، 1095 ـ 1096.

(50) TN، ا، 495 (تر. 713).

(51) MF، 28 ـ 35. ثمة مادة مختصرة أكثر في FS، 223 ـ 224 (تر. 388 ـ 389). تَعَرَّفَ ساتيا براكاش غوبتا على جهاين، «جهاين سلطنة دلهي»، MIM 3 (1975)، 209 ـ 215، مع جشهاين تشهان على بعد 7 أميال من رنثانبور، 25 درجة و55 دقيقة شمالاً، 76 درجة 27 دقيقة شرقاً.

إلاَّ، ما هو أقل من يوم واحد، على معاينة عمليات حصار جيشه في رنثانبور، قبل رفع هذا الحصار، لتجنب وقوع المزيد من الخسائر البشرية في صفوف المسلمين. وثمة حملة ثانية على جهاين، أواخر 691 هـ / 1292م، لم تحقق شيئاً، أكثر من الحصول على الغنائم[52]. وفيما عدا هذا الغزو، يبدو أن ملوك تشاوهان لم يتعرضوا لإزعاج الجيوش الإسلامية، بصورة جدية، خلال الجزء المتبقي من القرن، فتفرغوا للاشتباك في صراعات مع جيرانهم الهندوس، وخصوصاً، مع ملوك بارامارا في ماولا[53]. وتم إرجاء الإطاحة بتشاوهان رنثانبور حتى عهد علاء الدين خَلْجي، ومهَّدت هذه العملية، لزحف المسلمين على تشيتور ومالوا والأراضي الواقعة خلف الفينديا. لقد كان أمير خسرو، على حق، حين أطلق اسم «مفتاح الجنوب» على رنثانبور[54].

وتكاد المصادر الإسلامية أن لا تذكر كلمة صراع في القرن الثالث عشر، مع ملوك غوهيليا، الذين كانوا يسيطرون على ميوار من عاصمتهم تشيتور (تشيتّاورغاره الحالية)، مما يبقينا معتمدين، على إشارات متفرقة، إلى مسلمين في منحوتات المنطقة، ومنقوشاتها. فنقش تشيروا المنحوتة عن جايتراسيمها (المتوفى قبيل 1260م) من جانب حفيده ساماراسيمها، يزعم أن المسلمين، بين آخرين، أخفقوا في إذلاله. ومن المصدر نفسه، نكتشف أن جيوش **السوراترانا** (السلطان) هاجمت ناغادراها (ناغادا) خلال فترة حكمه. وبما أن مقاومة جايتراسيمها تحظى بثناء كبير أيضاً في نقش سامراسيمها على جبل آبو أيضاً، فإن من الممكن أنه كان قادراً على الانتقام لهذا الإذلال. وليس ثمة أخبار، عن صدامات أخرى، إلى عهد حكم سامراسيمها نفسه (حوالى 1273 ـ 1301م)، الذي «قام» حسب اللغة المنمقة والمزخرفة لتلك الكتابة المنقوشة «مثل الخنزير

---

(52) TFS، 213 ـ 214، 220.

(53) ر. ر. هالدر «نقش عن أيام هامّير الرنثانبوري، مؤرخ في 1345»، EI 19 (1927 ـ 1928م)، 46. عن مملكة رنثانبور في القرن الثالث عشر، انظر شارما، **أسر التشاوهان الحاكمة الأولى**، 118 ـ 125.

(54) KF، 54.

الأسطوري الهائل. . . في لحظة واحدة، بإخراج أرض غوجارا، الغارقة بعمق، منقذاً إياها من الغرق في بحر التوروشكا (الأتراك)»[55]. ومهما كان الحدث الذي يجري الحديث عنه، هنا، فإن الكلام لا يسعه إلاّ أن يوحي بأن العاهل الغوهيلي كان، في تاريخ ما قبل سنة 1258م، قد استغل السلبية النسبية للسلطنة، في ظل حكم بلبان.

الدُواب (ما بين النهرين) وأوَد

ظلت منطقة الدُواب، بأكثريتها، أرضاً خاضعة للأعداء حتى، منتصف القرن الثالث عشر، ولم تكن السيطرة الإسلامية، حسب أقوى الاحتمالات، تتجاوز أسوار البلدات الرئيسية في الشمال، مثل ميرات (ميروت) وكول (القريبة من أليغاره الحالية) وبرن (بولاندشهر الحالية)، التي كان المسلمون قد احتلوها منذ أيام آيبك. وحجم المشكلة التي تواجه حكومة دلهي، يتكشف بصورة مذهلة، بواقع أن قوات ناصر الدين محمود شاه تورطت سنة 647 هـ / 1249م، وهي في طريقها للإغارة على مناطق قِنَّوج، في حرب مع عدو هندوسي مجهول، بعد عبور نهر يمونه مباشرة، أدت إلى إيقافها[56]. يقال إن إقطاع ميرات، الذي مُنح لشقيق بلبان كشلي خان سنة 653 هـ / 1244م، كان يمتد «إلى سفوح باندياران»، وإن المُقْطَع الجديد، قضى السنوات القليلة التالية، مشغولاً بإخضاع «جبال باندياران، وصولاً إلى روكي ومايابور»[57]. وفي بدايات حكمه، قام بلبان ببناء قلعة في رووركي[58]، غير أن المكان لا يرد له

(55) بيرنهارد غايغر «منقوش تشيروا. . . WZKM 21 (1907)، 150. ف. كيلهورن، منقوش حجر جبل، أو عن سامارا سيمها [فيكراما ـ] ساموات 1342»، IA 16 (1887)، 354: انظر عموماً، راي، **تاريخ**. . . 1186 ـ 1190؛ غير أن هذه الإشارة، المصدر نفسه، 1190، إلى ظهور جلال الدين مسعود، شقيق السلطان ناصر الدين محمود، في مروار مستندة إلى خطأ في قراءة ج ت و ر بدلاً من س ن ت و ر أي سانتور.

(56) TN، I، 483، وII، 60 ـ 61 (تر. 686 ـ 687، 821).

(57) المصدر نفسه، II، 47 (تر. 799).

(58) FS، 164.

ذكر مرة أخرى في فترة السلطنة. كذلك لا يجري ذكر جهينجهانا، التي تظهر بوصفها أحد الإقطاعات، خلال عهد إلتُتْمش[59]، وكانت في ذلك الوقت، على ما يبدو، المخفر الأمامي الإسلامي الشمالي الأبعد في المنطقة. ومهما يكن، فإن بناء المساجد في ثمانينيات القرن الثالث عشر، في كل من مانغلاور وغارهموكْتَسار، يشهد على تنامي الوجود الإسلامي في الدواب الشمالي[60].

يحظى تقدم جيوش المسلمين في الجزء الجنوبي من الدواب، بقدر أفضل من التوثيق. ثمة مدن معينة كانت، بوضوح، خاضعة لحكم السلطان، مع حلول منتصف القرن الثالث عشر، وهي مذكورة في مناشير الإقطاعات. فماهاؤون ما لبثت أن أُلحقت بماهر (ماثورا) وبهايانا وغواليور، لتشكيل ولاية مترامية الأطراف، لكل من نصرت الدين تايسي أيام إلتُتْمش، وشيرخان سنة 657 هـ / 1259 م. وكذلك، فإن خاليسار وبالارام، والثانية إقطاع منذ أيام رضيَّة، كانتا جزءًا من إقطاع شيرخان[61]. ومن جهة أخرى، نرى أن حجم هذه المنح غير الاعتيادية بالذات ينبّهنا مرة أخرى، إلى حقيقة أن الموارد العسكرية الإسلامية كانت محكومةً بأن تتوزع على مساحات واسعة. لا نعود نسمع شيئاً عن ماهر وماهاؤون مرة أخرى، قبل القرن الرابع عشر. وربما جاء إخضاع هذه الأقاليم في أعقاب انتصار غامض، حققه إلتُتْمش عند موقع القوات الغورية في مسرح عملية الإطاحة بملك غاهادافالا جاياتشاندرا، على يد القوات الغورية سنة 590 هـ / 1194م، والذي يذكره الجوزجاني في إشارة عابرة[62]. والعدو

---

(59) TN، II، 29 (تر. 759). عن جهينجيهانا، انظر DGUP، III، مظفرناغار، 263 ـ 264.

(60) يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 28 ـ 30؛ ARIE (1975 ـ 1976)، 178 (رقم د 254)؛ RCEA، XIII (القاهرة، 1944م)، 21 ـ 22 (رقم: 4832).

(61) TN، II، 11، 34، 44، 62، 78 (تر. 733، 767، 794، 824، 849). قد تكون بالارام هي نفسها ببلرام، على مسافة 19 ميلاً إلى الشمال من إيتا، 57 درجة و49 دقيقة شمالاً، 78 درجة و38 دقيقة شرقاً: DGUP، XII. **إيتاه**، 159 ـ 161.

(62) TN، II، 17 (تر. 742 ـ 743). عن تشانداور «قرية قديمة ذات أهمية تاريخية كبيرة»، عند 27 درجة =

هنا، ربما كان ابن شقيق جاياتشاندرا، آجاياسيمها، الذي تمكن، على ما يبدو، من اغتصاب السيطرة على منطقة إيتاوا، أقله، لدى انتقال الأجزاء الباقية من مملكة غاهاضوالا، إلى نجل الملك الراحل[63]. ومهما يكن، فإن المعارضة المحلية لم ينضب معينها قط، وربما انتعشت بعد موت إلتُتْمش. فسنة 642 هـ / 1244م ألحق بلبان دماراً شديداً بإقليمي جارالي وديولي «**وماوسات** أخرى»، على الحدود الشمالية لإيتاوا[64]. أمّا بعد اعتلائه العرش، فقد اضطر لخوض حملة أطول في الدواب، عاكفاً على بناء القلاع في كل من كامبيل وباتيالي وبهوجبور وجلالي. ومن هذه، فإن باتيالي، على الأقل، كانت بأيدي المسلمين منذ بعض الوقت، لكونها مسقط رأس أمير خسرو، المولود حوالى سنة 651 هـ / 1253م، وقد تمت إعادة تسميتها مُؤْمِنْ بور («بلدة الإيمان») لدى موت بلبان[65]. يقول برني: إن مساجد شيدت في هذه البلدان، وتاريخ 665 هـ (1267م) المنحوت على أحد المساجد في جلالي، يمكننا من تحديد عمليات السلطان، بشيء من الدقة[66]. ومن شأن مثل هذا النشاط العسكري، أن يكون

= و7 دقائق شمالاً، 87 درجة و23 دقيقة شرقاً، انظر DGUP، VIII. **آغرا**، 238 ـ 239؛ عرفان حبيب، **أطلس الإمبراطورية المغولية** (أوكسفورد ودلهي، 1982م)، 27 وخريطة 8 آ.

(63) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، XVIII و92 ـ 94.

(64) TN، II، 53 ـ 54 (تر. 809). ليس قيام رافيرتي بجعل الأولى هي نفسها «جورولي»، عند نقطة 28 درجة / 17 دقيقة شمالاً و78 درجة / 17 دقيقة شرقاً (809 هـ. 7) مقنعاً. انظر هوديڤالا، **دراسات**، ١، 230، حيث يقترح إمّا «جولولي» على مسافة 35 ميلاً إلى الجنوب من فتح غاره أو «جوولي»، على مسافة 14 ميلاً إلى الجنوب من سكيت؛ هنا وفي ١، 402، يساوي بين «ديولي» وبين «دوهلي» ثورنتون في إيتاوا عند النقطة 27 درجة / 2 دقائق شمالاً، 78 درجة / 53 دقيقة شرقاً: قارن DGUP، X، **مانيبوري**، 204 («ديهولي»).

(65) DGK، 70. ميرزا، **حياة وأعمال**، 16 ـ 17.

(66) TFS، 57 ـ 58. عن الجامع في جلالي، انظر يزداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 25 ـ 26؛ RCEA، XII، 122 (رقم 4885)؛ عن هذه «البلدة القديمة»، على بعد 13 ميلاً شرق أليغاره، عند نقطة 27 درجة / 52 دقيقة شمالاً، 28 درجة / 15 دقيقة شرقاً، انظر DGUP، VI. **أليغاره**، 261 ـ 263. أما بهوجبور فتقع عند نقطة 27 درجة / 17 دقيقة شمالاً، 79 درجة / 48 دقيقة شرقاً، على مسافة ستة أميال إلى الجنوب من فتح غارة DGUP، IX فرّوخ آباد 184 ـ 185؛ عن كامبيل عند نقطة 27 درجة / 39 =

قد وفَّر إمكانية احتلال قلاعٍ معينة مثل قلعة ساكيت (سكيت)، حيث بني أحد المساجد سنة 684 هـ / 1285م[67]. غير أن الضغط الإسلامي على إيتاوا كان متقطعاً، فبقيت عملية تأكيد سلطة دلهي وترسيخها، عملية بطيئة. أما رابري، الواقعة في وادي اليمونه الأسفل، على الحدود الغربية، فلا يرد ذكرها، بوصفها قاعدة إسلامية، قبل عهد علاء الدين خَلْجي[68].

يقول برني، إن حصيلة عمليات بلبان في الدواب، كانت متمثلةً بـ «فتح الطريق الموصلة إلى هندوستان (أي أوَذ والمناطق الواقعة شرقاً)»[69]. ربما كان أحد الأهداف متمثلاً بحماية وسائل الاتصال مع موقع قِنَّوج الحصين، على الضفة اليمنى للغانج. وفي غضون فترة قصيرة، بعد احتلالها من قبل آيبك في 595 هـ / 1199م يبدو أن الهندوس ما لبثوا أن استعادوا قِنَّوج، لأن فضل فتحها يُعزىٰ إلى إلتُتْمش، الذي صك القطع النقدية التي حملت عبارة «من خراج قِنّوج»[70]. باتت قِنَّوج بعد ذلك قاعدة هامة، تنطلق منها العمليات الموجهة ضد الأمراء الهندوس، حيث لم يكتف مُقْطَعوها بقيادة الإغارات المحلية على حسابهم الخاص[71] بل وساهموا أيضاً بتوفير الجيوش، كما سنرى، لخوض الحرب في «مالوا» إلى الجنوب. إن حملة الأشهر الأربعة سنة 647 هـ / 1249 ـ 1250م التي شنها جيش ناصر الدين محمود شاه كانت، على ما يبدو، موجهة إلى منطقة قِنَّوج، لأن نقشاً من بيلرام، يسجل استشهاد أحد القادة المسلمين في

= دقيقة شمالاً، انظر المصدر ذاته، 215 ـ 216؛ وعن باتيالي، عند نقطة 27 درجة / 42 دقيقة شمالاً، 72 درجة / 5 دقائق شرقاقاً، قارن DGUP، XII، **إيتاه**، 201 ـ 203.

(67) يازداني، «منقوشات عن السلاطين الأتراك»، 31 ـ 32؛ RCEA، XIII، 47 ـ 48 (رقم: 4870).

(68) TFS، 328، 333؛ وانظر هوديڤالا، **دراسات**، ا، 281. ج. هـ. يازداني، «منقوشات عن سلاطين دلهي الخلجيين ومعاصريهم في البنغال»، EIM (1917 ـ 1918م)، 30.

(69) TFS، 58.

(70) CCIM، ا، الجزء الثاني، 21 (رقم: 39). CMSD، 71 ـ 72 (رقم: 52). Tāj في ED، II، TN241 .، ا، 452 (تر. 627).

(71) المصدر نفسه، ا، 470 (تر. 665).

هذه الأثناء، عند قرية قريبة من قِنَّوج[72]. وبالمثل فإن من الممكن أيضاً، أن يكون انتزاع الإقليم الممتد بين قِنَّوج ومخفر قارا الأمامي النائي، من أيدي الكفار، قد استغرق فترة زمنية ذات شأن. إن بريهون (برهامون) التي يعرف أنها كانت تقع بجوار قِنَّوج، وسبق لها أن مُنحت كإقطاع من قبل إلتُتْمش، لا يرد ذكرها مرة أخرى[73]. أما أسوار تيلساندا التي يشبّهها الجوزجاني ببوابات الإسكندر، فلم تسقط إلاّ سنة 645 هـ / 1248م، أمام هجوم شنّته عليها قوات محمود شاه[74]. كان، ثمة، سلسلة من النكسات حسب كل الاحتمالات، من تلك النكسات التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، الذين جرى تخليد ذكرهم، عبر الكثير من نقوش الأضرحة المختلفة من بيلرام في تواريخ 658 هـ / 1260م، و683 هـ / 1284م، و703 هـ / 1303م، كان آخرها في قلعة تشانداور[75].

إلى الشرق من الغانج، كان موقع بداؤون الحصين ذي الأهمية البالغة، وهو بيد المسلمين منذ سنة 594 هـ / 1198م، يواجه كاتيهر (المقابلة لروهيلخاند الحالية بصورة تقريبية)، التي يتكرر بروزها في مراجعنا، بوصفها المنطقة المأهولة بأكثر أقوام الكفر عناداً وتمرداً. لعل إخضاع هذه البقعة من قبل إلتُتْمش، الذي يلمح إليه الجوزجاني، قد تم سنة 1227م[76]. غير أن

---

(72) ARIE (1966 ـ 1967م)، 82 (رقم: د 249). عن الحملة، انظر TN، ا، 483، وا، 60 ـ 61 (تر. 686 ـ 687، 821).

(73) المصدر نفسه، ا، 20، 36 (تر. 746، 779). هذا المكان مذكور من قبل جغرافيي القرن العاشر: المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر م. ج دو غويه (لايدن، 1877)؛ 478؛ **حدود العالم**، طبعة مصورة، ف. ف. بارتولد (لينتغراد 1930)، ملف 15 ب (تر. مينورسكي، 90)، واضعاً إياها بالقرب من قنّوج.

(74) TN، 480، 481 (تر. 679 ـ 680، 681). انظر رافيرتي، 679 ـ 680 هـ. 6، وهوديڤالا، **دراسات**، ا، 222: قرية تلساندا القريبة من كونبور التي ذكرها الأخير، تبدو محتملة جداً.

(75) ARIE (1966 ـ 1967م)، 83 (أرقام. د 252، د 253، د 255).

(76) حيث عرف أن إلتُتْمِش كان في بداؤون: ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 80 ـ 89. =

ذلك لم يدم طويلاً، لأن سَنْجَري قبقولاق، كمُقْطَع بداؤون في ظل محمود شاه، ما لبث، كما يقال، أن أطاح بـ «**ماواسات** كاتيهر وبداؤون» وقاد عدداً من الحملات، كما أمر ببناء المساجد[77]. وحوالي منتصف القرن الثالث عشر، نسمع عن مراكز أخرى خاضعة للمسلمين في هذه البقاع، مثل سامبهال وكاسراك، اللذين يظهران في البداية كإقطاعين، في عهد محمود شاه، وأمروها التي لم تصبح إقطاعاً إلاّ في ظل بلبان[78]. وسنة 652 هـ / 1254م، خلال حملة عابرة لباردار (هاردوار) وبيجابور، وصولاً إلى ضفاف الرهاب (رامغانغا)، انتقم محمود شاه لفقدان أحد معاونيه، عن طريق «إذاقة كفار كاتيهر هزيمة لن ينساها أهل [تلك المنطقة]، طوال حياتهم»، حسب تعابير الجوزجاني[79]. غير أن الذكرى كانت، على ما يبدو، وجيزة. فاضطرابات 665 هـ / 1266 ـ 1267م، التي عرَّضَت بداؤون وسامبهال وأمروها وغانوري للمزيد من أعمال النهب والسلب على أيدي الكفار، ما لبثت أن أثارت غضب بلبان على كاتيهر، فمسحَ البلدة، التي كانت تحمل ذلك الاسم عن الأرض، كما أرسل خمسة آلاف من الرماة، لتخريب الأجزاء الباقية من المنطقة ونهبها. ويزعم برني أن اضطرابات أخرى لم تثر في كاتيهر نتيجة لذلك، حتى نهاية حكم جلال الدين خَلْجي[80]، وقد تم خلال عهده، إلحاق تشاوبالا (مرادآباد الحالية) على ضفة الراهب بغانوري،

= كاتيهر محذوفة من نسخة TN المطبوعة ولكنها موجودة في مخطوطة BL، ملف 180 أ. والأهمية المتباينة لعبارة «كاتيهر» نوقشت في **دراسات**، ا، 259، لهوديڤالا.

(77) TN، II، 26 (تر. 755).

(78) سامبهال: المصدر نفسه، ا، 482 (تر. 684). أمروها: TFS، 36 ـ 37، وحبيب الله، **أساس**، 156. كاسراك: TN، II، 42؛ يقوم ب. براساد في **منقوشات سنسكريتية**، 81 ـ 82 بجعل المكان متماهياً مع إحدى قرى تحصيل تيلها بمقاطعة شاهجاهبور.

(79) TN، 487 ـ 488 (تر. 696 ـ 698).

(80) TFS، 59. في **دراسات**، ا، 259 ـ 260، لهوديڤالا تتم مماهاة «غانوري» بـ «غنوري» أو «غينوري» ثورنتون، في بولاند شهر، عند نقطة 28 درجة / 20 دقيقة شمالاً، 78 درجة / 4 دقيقة شرقاً.

الحرب ضد القوى الهندوسية في الهند الشمالية

لتشكيل إقطاع ذي مساحة معقولة، مما قد يشير إلى أن الموارد هنا كانت شحيحة[81]. كما أن قبضة الحكم في ظل علاء الدين، كانت آمنة، إلى درجة جعلت المنطقة مؤهلة لضمها إلى أراضي الخالصة[82].

كانت منقطة أوَذ الواسعة، تقع إلى الجنوب من بداؤون. وفي وقت من الأوقات، كان المسلمون قد احتلوا المدينة التي تحمل هذا الاسم، أيوديا القديمة، التي كانت، في تسعينيات القرن الثاني عشر، إقطاع حسام الدين أوغول بك. ثم لا نلبث، أوائل القرن الثالث عشر، أن نسمع عن بلدات أخرى في المنطقة، باتت مراكز قيادة إقطاعية مثل كاسماندي وماندياؤون (مانديفانا)، المجاورتين لمدينة لاخناو (لكناو) اللاحقة[83]. لقد لعب مُقْطَع أوَذ، دوراً بارزاً في الحرب اللامتناهية ضد الكفار. فبعد سنة 623 هـ / 1226م بوقت غير طويل، تمكن ناصر الدين محمود، نجل إلتُتْمش الأكبر، الذي كان متمركزاً في أوَذ، من سحق حاكم يدعى «هاردودال»، يسميه الجوزجاني «بارتو» (ربما كان أحد أتباع الغاهاضوالا)، كان بمثابة الشوكة في جسد المستوطنين المسلمين في المنطقة. غير أن انتصار الأمير، وقد خلّده الشاعر سراجي شعراً[84]، لم يتمخض عن فرض الهدوء على أوَذ، إذ إن كلاً من تاج الدين سنجر كرت خان، وتاج الدين تنزخان، على التوالي، يجب اعتبارهما صاحبي فضل في

---

(81) TFS، 204 (ك ا ن و د، مصححة عن مخطوطة BL، ملف 110 ب). عن تشاوبالا، انظر MF، 13؛ هوديڤالا، **دراسات**، I 366؛ DGUP، XVII. **مرادآباد**، 232.

(82) MF، 21 ـ TFS22 .، 323، 324. عن كابار، أعيدت تسميتها لاحقاً وأصبحت شيرغاره (بلدة قديمة) عند نقطة 28 درجة / 39 دقيقة شمالاً، 79 درجة 22 شرقاً. انظر DGUP، XIII، **باريللي**، 268 ـ 269.

(83) TN، II، 29، 72 (تر. 759، 838). عن كاسماندي، انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 233، وDGUP، XXXVII. **لكناو**، 195 ـ 196. عن مانديأوون، عند نقطة 26 درجة / 56 دقيقة شمالاً، 80 درجة / 58 دقيقة شرقاً، انظر المصدر نفسه، 254 ـ 257؛ حبيب، **أطلس**، خارطة رقم 8 أ.

(84) صدّيقي، «معلومات تاريخية»، 55 ـ TN56 .، I، 453 (تر. 628 ـ 629). ثمة نظرة أخرى في حبيب الله، **أساس**، 111 هـ. 99، كان هوديڤالا، **دراسات**، I، 218 مخطئاً بالتأكيد حين ربط «بارتو» بأحد الراجات في منطقة بيهتارغاره الواقعة في البنغال الشرقي.

استئصال جذور الماوسات من المنطقة، في العقود التالية[85]. أما بعد ذلك، فثمة نوع من الفراغ في معرفتنا بالتطورات الجارية هنا، حتى الفترة التُغْلُقية، على الرغم من إطلاعنا، أحياناً، على أسماء مُقْطَعي أوَذ، بمن فيهم سلطان المستقبل علاء الدين، لفترة قصيرة من الوقت.

كانت بَنَارِس قد انتُزعت من أيدي الغاهاضوالا في 590 هـ / 1194م، وكان محمد بن بختيار قد استغل مشكلات أولئك القوم، ليقيم قاعدة في إقليمي سخيت وبهويلي، في منطقة التشونار على الضفة المقابلة للغانج، ويطلق منها سلسلة من العمليات ضد مانَرْ وبيهار[86]. غير أن موطئ القدم أو رأس الجسر الإسلامي، هنا كان عابراً، سريع الزوال. فالغاهاضوالا ظلوا يقاومون ويرفضون الإذعان، في الأجزاء الأكثر استعصاء وصعوبة من منطقتي بَنَارِس وتشونار؛ وعلى الرغم من أن الجوزجاني يورد بَنَارِس، في قائمة المواقع الحصينة التي استولى عليها إلتُتْمش، منتزعاً إياها من أيدي متمردين مسلمين مهزومين، فإنها لا تُذكر بوصفها إقطاعاً مرة أخرى، وتختفي عن الأنظار. أما الكتابة المنقوشة الأولى، التي تشهد على وجود الحكم الإسلامي، فتعود إلى عهد حكم قطب الدين مبارك شاه خَلْجي (716 ـ 720 هـ / 1316 ـ 1320م)[88].

الطريق إلى البنغال

كانت بلدة بهراتش القديمة، التي تؤوي ضريح مجاهد مسلم، ذي

---

(85) TN، II، 27، 29 (تر. 757، 760).

(86) المصدر نفسه، I، 423: انظر هوديڤالا، **دراسات**، I، 206، عن تماهي هذين المكانين حيث الثاني، أي «بهويلي» عند ثورنتون، يقع في نقطة 25 درجة / 6 دقائق شمالاً، 83 درجة / 3 دقيقة شرقاً؛ أيضاً DGUP، XXVII. **ميرزابور**، 278 ـ 284.

(87) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 56 ـ 70 (رقم: II: 5 ـ 6). انظر بصورة أعم، نيوغي، **تاريخ أسرة عنها ضوالا الحاكمة**، 113 ـ 119.

(88) ARIE (1971 ـ 1972م)، 91 (رقم: د 170).

أصول غامضة يُدعىٰ، سلار مسعود، والذي أصبح مزاراً رئيسياً يقصده الحجاج، قد أصبحت القاعدة الإسلامية الأبعد فيما وراء أوَذ باتجاه مناطق الكفار في نيبال وتيرهوت في العقود الأولى من القرن الثالث عشر[89]. لقد تم احتلال بهراتش هذه، من قبل المسلمين، في عهد إلتُتْمش؛ ويعلن الجوزجاني متباهياً، أن ولي نعمته وسيده ناصر الدين محمود شاه، شن حرباً مقدسة (جهاداً) ضد أقوام هندوسية غير محددة، قبل اعتلائه العرش[90]. ربما كانت تلك المناطق نفسها، التي نهبها وخربها جلال الدين خَلْجي سنة 690 هـ / 1291م، غداة انتصاره على المتمرد مالك تشهاجّو، لأن أمير خسرو يقول إنه كان يسعى، عبر قطع أشجار الأدغال والغابات، إلى فتح الطريق المؤدي إلى لخناوتي: صحيح أن **ماوساً** بعد **ماوس** صار يقدم الخراج والجزية للسلطان، غير أن ما يدعو للأسف، هو أن أياً من الأماكن التي يذكرها خسرو، لا يمكن التعرف عليه[91]. يؤكد برني أن (أمير) راي غوراخبور كان قد دفع الجزية إلى الناحية الإدارية (الشقّ) في أوَذ، قبل حركات التمرد التي شهدها عهد محمد بن تُغْلُق[92]؛ غير أن احتمال أن تكون العلاقة عائدة إلى القرن الثالث عشر، يحيطه الشك.

خلال فترة السلطنة الأولى، دأبت الجيوش الإسلامية على الإغارة على كل من تيرهوت (بيهار الشمالية)، ومنطقة نيبال المجاورة المعروفة باسم «بهاتيغون»، أيام الجوزجاني. كانت تيرهوت قد دفعت الجزية لغياث الدين عِوض، وهذا دون شك، هو ما يدعو الجوزجاني إلى إيراد المنطقة في قائمة

---

(89) إ. هـ. صديقي «ملاحظة عن دارغاه سلار مسعود في بهراتش في ضوء المصادر التاريخية المتداولة»، في كريستيان و. ترول (محرراً)، **الأضرحة الإسلامية (المزارات) في الهند** (دلهي، 1989م)، 44 ـ 47.

(90) إلتُتْمِش: عوفي، **لباب الألباب**، ا، 115. محمود شاه: TN، ا، 470، 478 (تر. 665، 676).

(91) MF، 22 ـ FS23 .، 224 (تر. 390 ـ 391). TMS، 64، متضمناً صدى باهتاً لهذه الحملة في جملة مشوهة بوضوح.

(92) TFS، 587 ـ SFS588 .، 33، يزعم بالمثل أن «كاروسا» وغوركبور كانتا تابعتين لأوَذ.

فتوحات إلتُتْمش[93]، كما أن طُغرُل طوغان خان، مقطع بيهار ولخناوتي، في عهد رضية، قد شن غارة ناجحة على تيرهوت[94]. غير أن تيرهوت هذه، كانت أيضاً، عرضة للهجمات الآتية من الجهة المقابلة. فمُقْطَع رضيَّة في أوَذ، تيمورخان، توغل «حتى أطراف تيرهوت»، وفرض الجزية على بهاتيغون[95]؛ ثم جاء بلبان بداية سنة 654 هـ / 1256م، في أعقاب خصمه قُطْلُغ خان، ليقود جيشاً وصل به إلى «بهاتيغون وأطراف تيرهوت»، وعاد محمَّلاً بالكثير من الغنائم[96]. في 702 ـ 703 هـ / 1302 ـ 1303م، نجد مُقْطَع قارا، قائداً لجيوش «الشرق والبنغال وتيرهوت»[97]، مما يشكل لغزاً، لأن البنغال لم يكن، بَعْدُ، يشكل جزءاً من ممتلكات السلطان. وفيما عدا ذلك، لا نعود نسمع شيئاً عن أية هجمات إسلامية على تيرهوت، إلى أن تصل حملة غياث الدين تُغْلُق سنة 724 هـ / 1324 م.

من الواضح أن عملية إخضاع بيهار، التي لا يقدم الجوزجاني عنها أية تفصيلات، باستثناء قصة احتلال المدينة نفسها (الشبيهة حسب كل الاحتمالات بأودّاندابوري)[98]، كانت تدريجية. فغايا (فاجراسانا)، التي كانت تحت الحكم

---

(93) TN، I، 437 (تر. 587 ـ 588)؛ محذوفة من فتوحات إلتُتْمِش في I، 452، ولكن انظر مخطوطة BL ملف 180 أ.

(94) TN، II، 14 (تر. 737).

(95) المصدر نفسه، II، 17 ـ 18 (تر. 743). هنا (هـ. 3) يقوم رافيرتي، الذي كان قد سبق له أن تعرف على هذه المنطقة بشكل صحيح (المصدر نفسه، 639 هـ. 8؛ قارن أيضاً 567 هـ. 1)، بتحديدها على أنها «المساحة الواقعة على الضفة اليسرى من السوق، إلى الشرق من بنارس». قارن أيضاً، حبيب الله، **أساس**، 150، الذي يحددها، حاذياً حذو كننغهام، على أنها وادي التونز («بهاث ـ غورا»). غير أن هذا يعني تجاهل الارتباط بتيرهوت التي يوردها الجوزجاني في المناسبتين. ربما كان الاسم ذا علاقة ببلدة بها تفاؤون، انظر IG، VIII، 89، بشأنها.

(96) TN، II، 71 ـ 72.

(97) TS، مجموعة مخطوطات ديغبي، ملف 113 أ؛ TFS، 300.

(98) TN، I، 423 (تر. 551 ـ 552)؛ ثمة إشارة وجيزة إلى فتح إقليم بيهار في I، 425 (تر. 556). عن أودّاندابوري، انظر شري حسن نشأت أنصاري، «جغرافية بيهار التاريخية عشية الغزو التركي المبكر»، JBRS 49 (1963)، 257 هـ. 3.

الإسلامي سنة 1219م[99]، لم تعد بأيدي المسلمين حين مر الناسك البوذي دهارماسفامين ببيهار سنة 1234 م؛ على الرغم من شهادته البليغة على النشاط العسكري الإسلامي المستمر، في كل من بيهار وتيرهوت[100]. في أعقاب قيام بلبان باستعادة الأقاليم الشرقية بعيد حوالي سنة 665 هـ / 1267م، ربما كانت غايا ما تزال غير محتلة، لأن حاكماً محلياً يتباهى في كتابة نقشية تعود إلى 1268م، بأنه حفظ منطقته من السلطان[101].

يعود جزء كبير من فضل نشر الإسلام في البنغال الغربي، إلى الحكام الخَلْج، الذين يتم إغراقهم بالمديح، لقيامهم ببناء المساجد والمعاهد **(المدارس)** والمصحات **(الخاناقامات)**، كما لاتصافهم بالسخاء إزاء علماء الدين الإسلامي (رجال الدين) والسادة[102]. غير أن شُحّاً في المصادر، يجعل مسار الاستيطان الإسلامي هنا، أكثر غموضاً، حتى مما هو مذكورٌ عن الأماكن الأخرى. فبعد الجوزجاني، تلقي الكتاباتُ المنقوشة، الضوءَ على أن أحد المواقع الحصينة الإسلامية التي يذكرها ـ موقع ديوكوت الذي كان العاصمة إلى حين استلام عوض السلطة ـ كان لا يزال مركزاً للنفوذ الإسلامي، آخر القرن الثالث عشر، في ظل السلاطين الغياثيين المستقلين؛ غير أن مواقع أخرى ـ مثل نارانغوي أو باسانكوت (التي أسسها عوض) ـ لا تطفو على السطح مرة أخرى[103]. إن الجوزجاني يميز، بين منطقة رال (راره)، بمركزها في لاخنور،

---

(99) ARIE (1962 ـ 1963م)، 24، 80 (هـ. ن 261).

(100) ج. رويريخ، **سيرة حياة دهارماسفامين (تشاغ لو ـ تسا ـ با تشوس ـ رجه ـ دبال)**، (بانتا 1959)، 61 ـ 64. عن التاريخ، انظر المقدمة التي كتبها أ. س. آلتيكار، V - VI؛ وعن الضغط الإسلامي علي بيهار، **المصدر نفسه**، XIX.

(101) حسن نشأت أنصاري، «منقوش غايا، 1325» حيث يلاحظ أن بلبان يرد على شكل **بيرونا** JBRS 53 (1967م)، 170 ـ 181: يبقى المحقق متشككاً فيقترح أن هذا الأمن تم شراؤه بالجزية.

(102) TN، ا، 427، 436 (تر. 559 ـ 560، 583).

(103) باسانكوت، **المصدر نفسه**، ا، 436 (تر. 581 ـ 582). نارانغوي: ا، 432، 434 (تر. 572، 574، 577). غانغوري: ا، 433 (تر. 575). ديوكوت: ا، 431 ـ 434 (تر. 572، 574، 576، 578)؛ =

إلى الغرب من نهر الغانج، وبين بارِيند (فاريندرا)، تلك المساحة الممتدة إلى الشرق من النهر، التي كانت تضم ديوكوت[104]. إننا، ببساطة، لا نعرف شيئاً عن تاريخ استعادة لاخنور، بعد أن احتلها الهندوس سنة 642 هـ / 1244 م.

دأب عوض على ابتزاز الجزية والخراج من ملوك السينا في البنغال الشرقي (بانغ)، وتم الحفاظ على هذا الضغط، بعد قيام إلتُتْمش بفتح لخناوتي من قبل ممثليه. لقد كان ثاني هؤلاء، سيف الدين آيبك، مديناً بلقبه **باغانتوت** إلى الأعداد الهائلة من الفيلة التي حصل عليها، عن طريق النهب من بانغ وما لبث أن أرسلها إلى السلطان[105]. وسنة 653 هـ / 1255م، يصك طُغرُل اختيار الدين يوزبك قطعاً نقدية من «الموارد (الخراج) المأخوذة من منطقة (أرض) بادار ونوديا»[106]؛ والإتيان على ذكر المدينة الثانية، مؤشر يدل على أن السينا كانوا، ذات يوم، قد عادوا واحتلوا عاصمتهم القديمة. وقد استمر هؤلاء إلى النصف الثاني من القرن، حيث حلت محلهم، على ما يبدو، قوة منافسة، كانت قد برزت في تيبّراه. وهذه المنطقة التي يطلق عليها برني اسم «جاجنَغَر»، ربما كانت موضوع غزو مربح، بالنسبة إلى معاون بلبان، طُغرُل، حين كان حاكماً للخناوتي، بعد تمرده على السلطان مباشرة، واستيلائه على لقبه الإمبراطوري[107]. كان أحد الملكين المعروفين من أسرة تيبّراه الحاكمة، هو «الدانوج راي» السونارغاؤوني (سونارغاون) الذي ما لبث أن أخذ بالثأر

= عبد الكريم (محرراً)، **مجموعة المنقوشات العربية والفارسية في البنغال** (داكا، 1992م)، 48 ـ 53. عن المواقع المحتملة لبعض هذه الأماكن، انظر موغوهان تشاكرافارتي، «ملاحظات عن غاور وأماكن قديمة أخرى في البنغال»، JASB رقم: 5 (1909م)، 199 ـ 235.

(104) TN، ا، 436 ـ 437، وا، 13 (تر. 584 ـ 585، 737).

(105) المصدر نفسه، ا، 9 ـ 10 (تر. 732). عن تو. **ياغانتوت**، (قنص الفيلة»، انظر كلاوسون، **قاموس**...، 904، بالارتباط مع راسيوني، «**أسماء أشخاص**...»، 241 ـ 242.

(106) CCIM، 146 (رقم: CMSD 6، 55 (رقم 225 د).

(107) TFS، 82، 83. عن استخدام برني (جاهاجناغار، «مدينة القوارب أو السفن»)، انظر تشاكرافارتي، «ملاحظات حول غاور»، 217.

عن طريق التعاون مع بلبان، والاضطلاع بمهمة الحيلولة دون هرب المتمرد[108].

لم تكن بانغ، إلاّ واحدة من المناطق، التي وفّرت فيضاً من العائدات لحكام لخناوتي المسلمين. صحيح أن أحداً لم يحاول محاكاة محمد بن بختيار، الذي كان قد عاد مهيض الجناح من حملة كارثية، عبر منطقة براهمابوترا العليا، ربما إلى أعماق إقليم أسّام، الذي يطلق عليه المسلمون اسم كامروب أو كامرود[109]؛ غير أن خلفاءه في لخناوتي، نجحوا في إدارة سلسلة من العمليات، عبر مساحات واسعة. كان عوض يجبي الجزية، ليس فقط، من كامروب، بل ومن مملكة غانغا الشرقية في أوريسّا، المعروفة في المراجع الإسلامية عادة، باسم جاجنَغَار[110]. وبالمحصلة، فإن ولاة سلطان دلهي كانوا أقل نجاحاً. فقد ابتُلي طوغان خان سنة 641 هـ / 1244م بحرب متواصلة مع ملك جاجنَغَر، تمخضت عن قيام جيش الهندوس باحتلال لاخنور، حيث سقط معاون طوغان خان قتيلاً، في المعركة، وباتت لخناوتي نفسها مهددة: ولم يتم إنقاذها إلاّ بفضل وصول الجيوش المرسلة من سلطان دلهي في الوقت المناسب[111]. من الواضح، أن ذكرى هذه الهزيمة في جاجنَغَر، قد جرى تخليدها في كتابة منقوشة، تعود إلى الملك ناراسيمها الثاني، ملك أوريسّا، أشارت إلى انتصار أبيه على «يافانا رادها» (راره)

---

(108) TFS، TMS87 .، 42 ـ 43. اعتُبر متماهياً مع آريراجا دانوجامادهافا ديساراتاديفا، الذي مَنَح لوحةً نحاسية في هذا الوقت تقريباً: حبيب الله، **أساس**، 183 هـ. 32؛ راي **تاريخ**. .، 383 هـ. 1؛ وللاطلاع على استعراض للسينا اللاحقين، **المصدر نفسه**، 379 وما بعدها.

(109) TN، ا، 427 ـ 432 (تر. 560 ـ 572). عن هذه الحملة، انظر البينات التي استعرضها ديغبي، **جياد الحرب والفيلة**، 45 ـ 46؛ قارن الفرضية المثيرة للشك في ز، ف. طوغان، «عن حملة أتراك الخلج الهنود ضد كيرايت منغوليا في التيبت الشمالي بين سنتي 1205 ـ 1206 م»، JPHS 12 (1964)، 187 ـ 194، وفي **وقائع جلسات مؤتمر المستشرقين الدولي السادس والثلاثين** (دلهي، 1968)، 174 ـ 178.

(110) TN، ا، 437 (تر. 587 ـ 588).

(111) المصدر نفسه، ا، 15 (تر. 739 ـ 740).

وفارندرا»[112]. أمّا المهانة التي لحقت بطوغان خان، فقد جرى الانتقام لها بعد حوالي عشر سنوات، على يد يوزبك، الذي استباح عاصمة ملك جاجنَغَر، في موقع غير معرف، يدعى «أومردان»[113]. غير أن يوزبك نفسه، لقي حتفه حوالي سنة 655 هـ / 1257م، وهو ما يزال مشغولاً بغزوة طموح ومغامِرة لكامروب[114]. فمن فصل يطلق عليه اسم **فتح نامه** في كتاب **رسائل الإعجاز** لأمير خسرو، يتضح أن بلبان نفسه تولى، سنة 680 هـ / 1282م، قيادة حملة توغلت في أوريسّا، وتمخضت عن إلزام الملك «مال ديو» بتقديم فروض الطاعة والخضوع[115].

كانت حقبة السلاطين الغياثيين وخلفائهم، من سلالة فيروزي آيتكين المستقلة، مطبوعة بنجاحات ذات شأن، على حساب القوى الهندوسية المستقلة، داخل البنغال بالذات. فمن قطعة نقدية صادرة عن حفيد بلبان: كيكاوس، ومصكوكة «من **خراج** بانغ»، يتضح أن جزءاً مَن الدلتا، الشرقية كان قد بات، مرة أخرى، تابعاً للمسلمين[116]. وفي ظل شمس الدين فيروز شاه، تظهر سونارغاؤن على المسرح، بوصفها مدينة إسلامية متخصصة بصك النقد. وكذلك، فإن ساتغاؤن (ساتغاون) تبدو ملحقة بدائرة نفوذه، كما تم بناء مسجد في تريبني، على الهوغلي، سنة 698 هـ / 1298 ـ 1299 م. فالكتابات المنقوشة، تكشف عن أن سريهات (سيلهت)، الواقعة إلى الشرق من براهما

---

(112) ن. فاسو، «منقوشة نحاسية لنَرْسيمها ديف الثاني ـ أوريسا، تاريخ 1217 م. تشاكا JASB، 65، الجزء الأول (1896م)، 232، 234، 267 (البيت: 84).

(113) TN، II، 31 (762 ـ 763). حبيب الله، **أساس**، 144، كان متشككاً حول كون «أوماردان» في أعماق أوريسا فعلاً.

(114) TN، II، 32 ـ 33 (تر. 764 ـ 766).

(115) RI، V، 5 ـ 13: انظر 8 ـ 11 عن «مال ديو»؛ 13 عن التاريخ. عنوان خسرو لـ **فتح نامه** لا يشير إلاّ إلى لخناوتي، مما ضلل ميرزا، **حياة وأعمال**، 219.

(116) هـ. إ. ستابلتون، «مساهمات في تاريخ أعراق شمال ـ شرق الهند ـ IV. تأريخ بنغالي خلال فترة الحكم الإسلامي المستقل. الجزء ا، 686ـ 735 هـ (1286 ـ 1334م)» JASB، رقم: 18 (1922م)، 410.

بوترا مباشرة، قد أُخضعت في 703 هـ / 1303م[117]. وقد كان من شأن جميع هذه الأماكن، أن تخضع، بصورة عابرة، لحكم سلطان دلهي، نتيجة حملة غياث الدين تُغْلُق سنة 724 هـ / 1324م.

بندلخاند ومالوا

نشأت بلدة بهايانا مع استيطان سلطانكوت، التي أسسها بهاء الدين طُغرُل كجزء من استراتيجية لأخذ غواليور[118]. فغواليور هذه التي كانت قد خضعت لآيبك في 597 هـ / 1200 ـ 1201 م، استعادها الهندوس، بعد موت آيبك دون شك، غير أن المدينة ما لبثت، سنة 630 هـ / 1233 م، أن سقطت بيد إلتُتْمش بعد حصار دام أحد عشر شهراً؛ ففر ملك بارتيهارا (باريهار) الأخير «مانغال ديو» إلى ناروار[119]. وقد كان نصرت الدين تايسي، الذي عينه إلتُتْمش مُقْطَعاً لكل من بهايانا وسلطانكوت، ومحافظاً (شحنة: مقيماً) لغواليور، مكلفاً أيضاً بتولي القيادة العامة لجيوش قِنَّوج وماهر وماهاؤون، بما قد يشير إلى مدى الأهمية التي كان السلطان يعلقها على هذه الجبهة بالذات[120]. ومن هذه القواعد شن القادة المسلمون حربهم ضد مملكة تشانديلاّ في جيجاكابهوكتي (بندلخاند الحديثة). كانت عاصمتها، كالينجار، قد سقطت بيد قطب الدين آيبك في 599 هـ / 1203، غداة موت الملك باراماريديفا، وأصبحت إقطاعاً لفترة وجيزة من الوقت[121]. غير أن

---

(117) عبد الكريم، **مجموعة** . . . ، 35 ـ 36. ستابلتون، 411 ـ 412. عن نقش سيلهت، انظر أحمد حسن داني، نقوش البنغال الإسلامية (داكّا، 1957م)، 7 (رقم: 9). انظر عموماً ماجومدار، **تاريخ البنغال الوسيط**، 17 ـ 19.

(118) TN، I، 421 (تر. 545)؛ قارن أيضاً، II، 34 (تر. 767).

(119) المصدر نفسه، I، 448 (تر. 619). عن آخر ملوك براتيهارا، انظر راي، **تاريخ** . . . ، 829 هـ. 1، 834 هـ. 1.

(120) TN، II، 10 ـ 11 (تر. 732 ـ 733).

(121) Tāj، ملف 182 أ ـ 185 أ.

ترايلوكيافارمان، نجل باراماريديفا ووريثه ما لبث، على ما يبدو، أن استعادها في السنوات الأخيرة من حكم إلتُتْمش[122]. صحيح أن تايسي ألحق الهزيمة بترايلوكيافارمان مستولياً على مظلة الراي (الملك) وبيارقه الشعائرية في أثناء المطاردة[123]، غير أن النشاط العسكري الإسلامي لم يتمخض عن أي تأثير ذي شأن بالنسبة إلى مملكة تشانديلاّ. وعلى الرغم من أن كالينجار لم تؤسس من جديد كعاصمة بعد استعادتها، وكان الملوك يقيمون عادة في آجاياغاره، على مسافة حوالى عشرين ميلاً إلى الجهة الجنوبية ـ الغربية، فإن هذا قد كان، على ما يبدو، التنازل الوحيد الذي قدمه حاكم تشانديلاّ الذي استمر يلقّب نفسَه «ملك كالينجار» لأية سلطة إسلامية. ففي كتابةٍ منقوشة عائدة للابن فيرافارمان يُعزى فضل «انتشال الأرض الغارقة في البحر الذي شكلته سيول التوروشكا (الترك) المتدفقة» للأب ترايلوكيافارمان[124]. وقد أصدر فيرافارمان نفسه لوحة نحاسية قدمها سنة 1280 م هدية إلى نبيل كان قد سحق «التوروشكا» (الأتراك) مع آخرين[125]. وكذلك فإن هؤلاء الحكام لم يحيدوا قيد أنملة عن واجب محاربة الجيران الهندوس، ولا سيما ملوك القالاتشوري في تشَدي والجاجابيلاّ في ناروار[126].

---

(122) TN، II، 10 ـ 11، 12، 62 ـ 63 (تر. 733، 734 ـ 735). ك. ن ديكشيت، «ألواح غارًا عن التشانديلا ترايلوكيافارمان: 1261 م»، EI 16 (1921 ـ 1922م)، 272 ـ 277. ر. ك. ديكشيت، **الكانديلاّ**، 157 ـ 158، حاذياً حذو راي، **تاريخ**... 725، يرىٰ أن ترايلوكيافارمان استعاد كالينجار في وقت مبكر يعود إلى 1205 م.

(123) TN، II، 10 ـ 11، 12، 62 ـ 63 (تر. 733، 734 ـ 735، 834 ـ 835).

(124) ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 100 ـ 105 (البيت 7).

(125) السير ألكساندر كننغهام، «تقرير جولة في بوندلخاند وريوا في 1883 ـ 1884 م»، ASIR 21 (1885م)، 75. المنحة لم تعد موجودة: راي، **تاريخ**...، 732، حيث يرد التاريخ، فيكراماساموات 1237م خطأ، والصحيح هو 1337 م.

(126) عن الهجوم على ناروار، انظر د. سي. سيركار، «منقوشات من أيام ياجفابالا غوبالا»، EI 31 (1955 ـ 1956م)، 326 ـ 327؛ وعن العلاقات مع الجاجابيلاّ عموماً، انظر ر. ك. ديكشيت، **الكانديلاّ**، 168، 170.

خلال مسيرة العودة من غزوه لمملكة التشانديلاّ سنة 632 هـ / 1235 م، كان تايسي قد وقع في كمين نصبه له حاكم يطلِق عليه الجوزجانيُ اسمَ «تشاهاري آجاري». كان ذلك هو الصدام الإسلامي المسجل الأول مع تشاهاداديفا، ثاني ملوك الجاجابيلا (ياجفابالا)، الذين تمكنوا، في حوالى هذا التاريخ، من انتزاع موقع نارواز الحصين من أيدي البراتيهارا لتحويلها إلى مقر إقامة لهم. لقد سمع الجوزجاني، الذي كان قاضياً لغواليور في ذلك الوقت، رواية لقصة الاشتباك من فم الأمير المخضرم نفسه، ومن الواضح أن تايسي كان قد أخرج جيشه من الورطة بقَدْر غير قليل من الصعوبة[127]. وقد مات بعيد تولي رضيّة للحكم، وسنة 635 هـ / 1238 م قامت جيوشها بإجلاء أهالي غواليور المسلمين[128]. صحيح أن الجوزجاني احتفظ بمنصبه كقاض، وقد تأكد الأمر سنة 643 هـ / 1245 م، غير أنه كان في كل من المناسبتين يحصل في الوقت نفسه على منصب في دلهي، مما يشي بأن منصب غواليور لم يكن إلاّ شكلاً من أشكال غياب الثقة in partibus infidelium[129]. أما أن القلعة الكبرى قد أصبحت في الأراضي المعادية فيتجلى من الحملة التي شُنَّت في إحدى فترات حكم رضيّة من قبل تيمورخان قيران انطلاقاً من أوَذ باتجاه «غواليور ومالوا»، تلك الحملة التي يقال إن تيمور أبلى فيها بلاء حسناً متميزاً[130].

لا شك أن العدو كان ملك الجاجابيلاّ. ففي وصفه لحملة أُلُغ خان بلبان

---

(127) TN، II، 11 ـ 12، 62، 63 (تر. 733 ـ 734، 824 ـ 825). عن التحديد الصحيح لـ «تشاهار»، انظر م. ب. غارده، «ملاحظة عن الياجافابالا أو الجاجابيلاّ في نارواز»، IA 47 (1918م)، 241 ـ 244، داحضاً الرأي القائل بانتمائه إلى فرع التشاوهان؛ رغم أن النظرة القديمة يكررها راي، **تاريخ**...، 1103 ـ 1104. تجري مناقشة اسم «آجاري» الثاني في هوديڤالا، **دراسات**، I، 224 ـ 225، حيث يتم ربطه بموقع آجار، على بعد 40 ميلاً تقريباً إلى جنوب ـ شرق نارواز.

(128) TN، II، 25 ـ 26 (تر. 754 ـ 755). جرى نقل المبعوثين المغول المحتجزين في غواليور إلى قنّوج: **المصدر نفسه**، II، 214 (تر. 1285). عن موت تايبس، انظر **المصدر نفسه**، I، 458، وII، 13 (تر. 639 ـ 640، 735 ـ 736).

(129) المصدر نفسه، I، 460، 470 (تر. 644، 667).

(130) المصدر نفسه، II، 17 (تر. 743).

ضد هذا الملك سنة 649 هـ / 21251 م ـ 1252 م، يقول الجوزجاني إن بلبان تقدم باتجاه «غواليور وتشاندري ونورْوُل (ناروار) ومالوا»، ويتحدث عنه (عبد الملك) بوصفه «أعظم رايات (ملوك) ذلك البلد». نجح بلبان في أخذ ناروار واستباحتها[131]. يبدو أن غواليور استبعدت عند هذا المنعطف لأن إدارة القلعة سنة 657 هـ / 1259 م، مع إقطاع واسع مؤلف من كول وبهايانا وبالارام وماهر وماهاؤون وغيرها من المناطق، كانت أُحيلت إلى ابن عم بلبان، شيرخان[132]. مرة أخرى قد تشي عملية تجميع الموارد المبعثرة على نطاق واسع بهشاشة السلطة الإسلامية من جهة وبضخامة التهديد الهندوسي من جهة ثانية. من الواضح أن غواليور التي استطاع الجوزجاني أن يعتبرها «أحد المواقع الإسلامية الحصينة الشهيرة» كانت قد عادت ثانية إلى أيدي الهندوس مع حلول السنوات الأخيرة من حكم بلبان، لأن بين أولئك الذين تم إلحاق الهزيمة بهم على يد النبيل الذي حصل على المنحة آنفة الذكر من عاهل التشانديلا، فيرافارمان، سنة 1280 م، كان هاريراجا الغوبا غيري أي الغواليوري[133]. ما لم يكن هاريراجا حاكماً عميلاً تابعاً لسيادة السلطان، وهذا غير وارد، فإن المنحة تبين أن القلعة كانت قد انزلقت مرة أخرى من أيدي المسلمين. ويتأكد هذا الاحتمال بواقع قيام جلال الدين خَلْجي بحملة سَلْب واستباحة على غواليور قبيل اغتياله سنة 695 هـ / 1296 م[134].

أما فيما يخص تشاهاداديفا فلا يمكن التعديل كثيراً على تأكيد الجوزجاني الذي يقول إنه تعرض للإطاحة به كلياً وللاستئصال من مملكته. فالقطع النقدية

(131) المصدر نفسه، ا، 485 ـ 486، وا، 62، 63 (تر. 690 ـ 692، 824 ـ 825).

(132) المصدر نفسه، ا، 44 (تر. 794)؛ وعن التاريخ، قارن ا، 495 (تر. 712 ـ 713).

(133) كننغهام، «تقرير جولة...»، 74 ـ 76. عن العبارة المأخوذة من الجوزجاني، انظر TN، ا، 44 (تر. 794).

(134) TFS، 223، 228، TMS، 67؛ عن زعم سر هندي بأن غواليور باتت ثانية بأيدي المسلمين مع حلول العام الأول من عهد علاء الدين، انظر المصدر نفسه، 72.

والمنقوشات العائدة لأسرة جاجابيلاّ الحاكمة تفرض تقويماً أكثر حصافة، نظراً لأنها تسلط الأضواء على حقيقة أن تشاهاداديفا وخلفاءه حافظوا على تحكمهم بناوار حتى القرن الرابع عشر. يبقى المصير النهائي للحاجابيلاّ غامضاً، ويفترض عادة أنهم ذهبوا ضحية غزوة غير مسجلة شنتها قوات علاء الدين خَلْجي[135]. لعل حملة كهذه هي التي تمخضت عن قيام المسلمين باحتلال تشاندري، الأمر الذي يُعرف بأنه حصل قبل 711 هـ / 1312 م[136].

إلى الجهة الشمالية الشرقية من مملكتي الجاجابيلاّ والتشانديلاّ، وقع مخفرا قارا ومانيكبور الأماميان الإسلاميان، اللذان يتكرر ربط أحدهما بالآخر في المصادر. فالأولى: قارا اعترفت بالسلطة الإسلامية في تاريخ مبكر يعود إلى عهد آيبك وكانت مقراً لأحد الأمراء في أيام إلتُتْمش[137]. لدى كونه مُقْطَعاً في قارا خلال عهد رضية، قال إن تيمور خان قيران نفذ الكثير من عمليات الإغارة على الكفار، ولكن دون إعطاء أية تفاصيل[138]. وسنة 645 هـ / 1248 م نجد جيش ناصر الدين محمود شاه متمركزاً في قارا، في حين قام بلبان بقيادة فرقة ضد حاكم هندوسي يدعوه الجوزجاني «دالاكيمالاكي»(؟). تبقى الانتماءات الملكية لهذا الأمير الذي يُزعَم أنه كان يشغل المناطق الممتدة على ضفة اليمونه بين قارا وكالينجار، غير مؤكدة؛ غير أن من الواضح أنه لم يكن من التشانديلاّ، لأننا نعلم أن «رايات (أمراء) سهول (أطراف) كالينجار ومالوا «كانوا عاجزين عن إخضاعه. تعرض موقعه الحصين للنهب على أيدي

---

(135) سيركار، «منقوشات من أيام ياجفابا لاغوبالا»، 323، 336، أيضاً «ياجفابالا غوبالا»، IHQ، 32 (1956م)، 399 ـ 405.

(136) ز. أ. ديساي، «منقوشات تشاندري عن علاء الدين خلجي»، EIAPS (1968م) 4 ـ 10. قارن أيضاً 627.

(137) ARIE، (1969 ـ 1970م) 11، 98 (رقم) د 214)، TN. 452. عن قارا. انظر عموماً لايق أحمد، «قارا».

(138) TN, II، 17 (تر، 743).

(139) المصدر نفسه، ا، 481 ـ 482، وII، 57 ـ 58 (تر. 681 ـ 683، 816 ـ 818). راي، **تاريخ**. . . ، 729 ـ 730، وهوديغالا، **دراسات**، ا، 222 ـ 223، ظنّ «دالاكيمالالي» هو ملك التشانديلاّ، ترايلو كيافارمان؛ غير أن رواية الجوزجاني توحي بزعيم أقل نفوذاً.

المسلمين، وجرى أسر أفراد عائلته ومن كان يعيلهم»[139]. ذلك كان الانتصار الذي يحدثنا الجوزجاني عن أنه خَلَّد ذكراه في ملحمته المفقودة: ناصري - نامه؛ غير أن من الصعب مقاومة الانطباع القائل أن الحملة كانت على نطاق تافه نسبياً على الرغم من كل مبالغات المؤرخ المتغطرسة[140]. ولا نعود نسمع ثانية عن قارا إلى أن يصبح علاء الدين خَلْجي مُقْطَعاً للإقليم سنة 689 هـ / 1290 «ويدوس الكثير من **الماواسات** بالأقدام»[141].

وبحسب ما يقوله الجوزجاني كان آيبك قد فتح البلاد وصولاً إلى حدود أوجّاين[142]. كانت حرب السلطنة الأولى ضد عائلة بارامارا المالكة في مالاوا قد صُدمت حتى نهاية حكم إلتُتْمش، الذي قام سنة 632 هـ / 1235 م بغزو المملكة ونهب مدينتي بهيلسان (بهيلسا) وأوجّاين على التوالي، مدمراً المعبد في الأولى وناقلاً تمثال ماهاكالا إلى دلهي[143]. غير أن هذه الحملة، مثلها مثل الكثير من المحاولات الأخرى في تلك الفترة، لم تتمخض عن أية نتائج دائمة؛ كما لا نملك سجلاً يتحدث عن أي هجوم إسلامي لاحق على البارامارا قبل الحقبة الخَلْجية، حين أقدم السلطان المستقبلي علاء الدين، حين كان مقطعاً لقارا، حوالى سنة 692 هـ / 1293 م، باستباحة بهيلسان والسطو على صنمها البرونزي الكبير[144]. يتحدث الجوزجاني عن حملات استهدفت مالوا في عدد من المناسبات، غير أنه لا يستخدم العبارة بمعناها الضيق، للدلالة على مملكة بارامارا، التي كانت أيامه بعيدة عن متناول معاوني السلطان وقادته. وبالأسلوب

---

(140) لايق أحمد، «قارا»، 84، يفترض أن كيشلي خان عُيّن مُقْطَعاً لقارا في 653 هـ / 1255م (651 هـ / 1253م تصحيحاً) وأن قارا كانت بيد الهنود قبل ذلك بعدد من الأعوام.

(141) KF، 8؛ انظر أيضاً FS، 227 ـ 228 (تر. 393 ـ 394)، عن قسوته مع الهندوس المتشددين حين كان في قارا.

(142) TN, I، 417 (تر. 516 ـ 517)؛ وانظر ص 19، هـ 62 في هذا الكتاب.

(143) TN, I، 449 (مع عام 631 هـ)؛ 452 (قارن مخطوطة BL، ملف 180 أ ب (تر. 621 ـ 623، 628). راي **تاريخ**...، 907، يضع هذا الغزو في عهد ديفابالا (حوالي 1218 ـ 1236م).

(144) TFS، 220.

نفسه فإن أمير خسرو يصف جيوش جلال الدين خَلْجي المتوغلة في العمق وصولاً إلى حدود مالوا سنة 690 هـ / 1291 م، حين عبرت التشامبال وكونواري (كونار)[145]. لعل «مالوا» تضطلع، في قاموس هذين الكتابين، بمهمة الدلالة على مجمل المناطق الواقعة إلى جنوب وجنوب ـ غرب بندلخاند الحديثة.

آفاق السلطنة

استندت فكرة السيادة على شبه القارة ككل إلى تاريخ عريق وطويل[146]، ومن الممكن أن تكون قد انتقلت إلى سلاطين دلهي. من شأن كتابة سانسكريتية منقوشة عن حكم بلبان أن تكون قد بدت مانحة إياهم جميع أشكال التشجيع، لأنها تصور نفوذ السلطان نافذاً كالشعاع مخترقاً «بلاد الدرافيدا وراميسڤارام»[147]. ثمة شعراء بلاط أيضاً دأبوا على تملق الحكام المسلمين على فتوحاتهم المزعومة. ففي **قران السعدين**، يتباهى معز الدين كيقباد قائلاً: «أحياناً أعطي جنودي ذهباً من گوجرات؛ وفي أوقات أخرى أكتب [لهم] إحالات على ديوغير... أجعل مالوا مخزناً لكنوزي؛ وأكلّف جاجنغر بتسديد الالتزامات المترتبة على خزانتي...»[148] غير أن هذا لم يكن إلاّ وهماً وخيالاً في ذلك الوقت. فقبل غارة علاء الدين الجريئة سنة 695 هـ / 1296 م، لم يكن أهالي ديوغير قد رأوا، ولو مجرد رؤية، أي جيش إسلامي قادم من

---

(145) MF، 34.

(146) آندريه وينك، **الأرض والسيادة في الهند** (كامبردج، 1986م)، جزء ا، خصوصاً 15 ـ 21.

(147) منقوش بالام باولي، 1276 / 1333، في ب. براساد، **منقوشات سنسكريتية**، 5 ـ 6، 12 (رقم: ا: 4). انظر التعليقات الصادرة عن بيتر هاردي، «سلطة الملوك المسلمين في جنوب آسيا العصر الوسيط»، في مارك غابوريو (محرراً)، **الإسلام والمجتمع في آسيا الجنوبية**، مجموعة بروشارته 9 (باريس، 986)، 39.

(148) QS، 63... (تر. III. ED، 526).

الشمال[149]. كانت أكثرية المناطق المركزية من شبه الجزيرة الهندية عوالم مجهولة terra incognita، بالنسبة إلى مسلمي سلطنة القرن الثالث عشر. فبلاد الهندوس الواقعة إلى هذه الجهة بدت ممتدة إلى مسافات لانهائية. وقد كتب أمير خسرو فيما بعد ـ مستنداً كلياً مرة أخرى إلى كونه شاعراً (يحق له ما لا يحق لغيره كما يقول المثل العربي) قائلاً إن حدود مالوا تفوق قُدْرة أمهر المساحين (مهندسان) على قياسها[150]. يا لها من شهادة مدهشة على مدى حيوية نظام علاء الدين، وإن كانت الأحداث، كما سنرى في الفصل العاشر، قد تجاوزت هذه الملاحظة قبل وفاة خسرو ببضع سنوات.

(149) TFS، 222 ـ 223. عن الأشعار والنقوش الهندوسية في مملكة ياداف التي تبدو متناقضة مع كلام برني، انظر ب. م. جوشي وأ. مهدي حسين، «الخلجيون والتغالقة في الدكن»، في هـ. ك. شرواني وب. م. جوشي (محررين)، **تاريخ الدكان الوسيط** (1295 ـ 1724م) (حيدر آباد، أ. 1، 1973، جزءان)، ا، 34 ـ 35، وإن كانا يريان أن هذا يشير إلى وجود بعض الصدام مع المسلمين في المنطقة الساحلية.

(150) KF، 56.